إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

في بعض المراحل من حياة الأمم ، قد يغدو التفكير في الوسائل والأدوات أكثر الحاحاً وأبعد أهمية من التفكير في الأهداف والغايات . يحدث هذا حين تطول مرحلة بلورة الأهداف وتكثر الاجتهادات والتفاسير ، ثم يصحو القوم من الجدل البيزنطي وقد سبقهم الزمن وركب الأعداء أكتافهم ولم تعد تفدهم الغايات بعد أن أفلتتمن بين أيديهم الوسائل .

واليوم يكاد المجتمع العربي أن يكون على مفترق الطرق بين أن يستمر في اللغو حول النظر إلى ما كان وما يجب أن يكون ، فيستمر على هذا النحو حتى يغدو خارج التاريخ تماماً ، وبين أن يباشر العمل للوصول إلى الوسائل التي تؤذن بتحقيق هذه الغايات وتجاوزها إلى آفاق أفضل .

إن وحدة الثقافة العربية نتيجة وغاية في وقت واحد ، هي نتيجة التاريخ المشترك الطويل ، والرسالة العظيمة الخالدة ... لكنها أيضاً غاية نتجه إليها بكل قلوبنا وجماع عقولنا وأيدينا لكي نتشبث بها فلا تفلت منا. إن إرث التاريخ قابل للضياع أو النسيان أو الاهمال ما لم تصنه الارادة الواعية المشتركة والقرار السياسي المتعمد .

إن وحدة التراث العربي عنصر لايؤدي بالضرورة إلى وحدة الثقافة العربية الحالية لأن هذه تخضع لعوامل التجزئة والتفكك والقصور الذاتي والتشويش والافتراء والدس والوقيعة والتباعد وصرف النظر والاهمال .. وهي العوامل ذاتها التي تخضع لها قضية الوحدة العربية نفسها والمجتمع العربي عينه . وليس من غير المنطقي أن نقول إن تجزئة الوطن العربي أدت إلى تجزئة الثقافة العربية .

حين دعينا إلى مهرجان المربد في العراق،أوائل هذا العام،أهدتنا وزارة الاعلام العراقية ما يزيد على خمسين كتاباً .. لم تكن كتب دعاوة سياسية أو سياحية ، بل كانت نتاجاً أدبياً ودراسات في الفكر والفن المعاصرين ، وأبحاثاً في مختلف جوانب الحياة العربية . ولما لم يكن لدى كاتب هذه السطور ما يفعله بعيد السادسة مساء فقد استرسلت طيلة اسبوعين في قراءة معظم هذه الكتب ، وقد شغلتني القراءة في النهار بعد أن

استغرقت مني الليل كله بحيث لم أر من بغداد أو العراق غير شوارع بغداد والبصرة . ظللت في الفندق أقرأ بشغف : هذا النتاج من نتاج العقل العربي كان يستحيل علي الاطلاع عليه لولا هذه الرحلة ، ولعله خير ما فيها . غير أنني أعترف بأنني أنهيت الليلة الأولى وليالي بعدها بضيق غير عادي ، وغيظ مكتوم . خطر لي ، قبل ألف عام كان المؤلف العربي في العراق يضع كتابه وهو واثق أن كتابه بعد أقل من خمس سنوات سوف يصل إلى الأندلس ، على الرغم من أنه ينسخ بالخط وينقل على الجمال والأحصنة . أما نحن ، في عصر المطبعة والباخرة والسيارة فلا يبلغ المؤلف عندنا بطموحه طموح زميله قبل ألف عام ... لقد خسرنا الجمال ولم نكسب السيارات ولا القاطرات . خسرنا النسخ اليدوي ولم نكسب المطابع أو كثرة النسخ المطبوعة ... وأبلغ دليل على ذلك أن نسبة الأمية بين العرب في هذا العصر تفوق نسبتها بينهم قبل ألف عام ، حين لم يكن الكتاب متوفراً ولا المطابع معروفة ..

يا ليت اليونسكو العربية ، أو وزارة الثقافة الاتحادية تضع في اعتبارها أن انشاء شركة عربية لتوزيع الكتاب العربي أمر يفوق في أهميته كل مانكتبه — نحن المفكرين — عن أهداف التربية والتوعية والتثقيف في الوطن العربي . إن الوطن العربي بأكمله شريط ساحلي يمتد عبر البحر المتوسط والبحر العربي ، أي بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي . فشراء باخرة عربية لنقل الكتب وتوزيعها بين القطر المنتج وبقية الأقطار القارئة — وكل قطر قارىء ومنتج — يفوق في أهميته ، أو على الأقل يعادل ، شراء ناقلات بحرية للنفط العربي أو انشاء مطارات واسعة ، لخدمة المواصلات الجوية العالمية . إن الناشر يتقاضى نصف ثمن الكتاب ، ولا بأس على الشركة العربية المزمع انشاؤها أن تبدأ بالأسعار ذاتها التي يتعامل بها الناشرون . وبما أن الرقابة ستظل قائمة على الكتاب العربي فلا بأس أيضاً من أن يسعى الناشر إلى الحصول بالبريد على ترخيص بدخول الكتاب قبل نقله بواسطة شركة التوزيع . إن المشروعات العربية الشاملة ، إذا بدأ تحقيقها قبل الوحدة العربية سوف تكون عنصراً مساعداً ومتقدماً ودليلاً هادياً لكل تفكير أو نظرية في هذا الموضوع . أما إذا ظل الفكر العربي في كل قطر حبيس تلك اللعنة العربية القائمة فيما يسمى الكيانات السياسية فأين — بحق السماء — وحدة الفكر العربي أو وحدة الأدب العربي ؟

« رئيس التحرير »

جورج سالم



مقولتا «الكتاب» و«الرسالة» في التراث العربي

– ١ –

لايعدو هذا البحث ان يكون مجموعة من التأملات حول مقولتين أساسيتين في التأليف عند العرب ، هما مقولتا « الكتاب » و « الرسالة » ؟ فأنا أود ، ههنا ، ان اختبر مدلول هاتين الكلمتين في الذهن العربي، وكيف كان ينظر الكتاب الى هذين المفهومين، وكيف كانوا يميزون بينها ، وما الأسس التي كانوا يرتكزون عليها في ذلك . وبعبارة اخرى . كيف تصور العربي الكتاب والرسالة ، وما الطرائق التي اتبعها في كتابة كل منها ، ومامقوماتها بالتالي ، وعم كان يعبر حين استعمل تينك المقولتين ؟

ولست أقصد من ذلك الى دراسة تاريخ الكتاب عند العرب او تطوره ، ولا الى دراسة الرسالة في التراث العربي ونموها ، فليس لهذا البحث طابع تاريخي ، بل سعيت أن أدرس فيه بنية هاتين المقولتين ودلالتها ، وللوصول الى هذا الهدف فقد رأيت أن اعمد الى تحليل عدد من المؤلفات العربية ، من كتب ورسائل ، في عصور متباينة وموضوعات مختلفة بغية معرفة مقوماتها ، عسى أن أصل في نهاية المطاف الى نتائج واضحة ومفاهيم متميزة .

يقسم العرب — صنيع غيرهم من الأمم في القديم والحديث — النتاج الأدبي والثقافي ، مبدئياً ، قسمين كبيرين متميزين ، هما الشعر والنثر ، واذا كان الشعر عند العرب يشمل الأرجوزة والقصيدة الطويلة او القطعة القصيرة(١) فان النثر يشمل فنوناً أدبية عديدة منها ، على سبيل التعداد لا الحصر ، المثل والخطبة والوصية والكتاب والرسالة والسيرة والمقامة والتفسير والرحلة والخبر والحكاية ... واذا كان الشعر يتميز عن النثر بالايقاع والنغم (الوزن) والقافية ، فان النثر يضم ، ببساطة وعلى طريقة المسيو جوردان ، كل ما عدا ذلك من كلام أدبي اتجه به الأمر الى التدوين . ولايعنينا في هذا المقام أن نبحث انتقال الأدب من الكلام الى الكتابة ، أي من اللغة المنطوقة المسموعة الى اللغة المكتوبة المقروءة ، فهذا الموضوع خارج عن نطاق بحثنا فما يهمنا هو دراسة هاتين المقولتين الأدبيتين كما يطالعنا بها التراث النثري العربي . ويجدر بنا أن نشير الى أن هاتين المقولتين لا تبـدوان واضحتين متميزتين دائماً فكثيراً ما أطلق الدارسون أو الناشرون او النقاد اسم الكتاب على الرسالة او الرسالة على الكتاب ، فشارل بيللا مثلاً يطلق على أثر كالتربيع والتدوير للجاحظ اسم كتاب بينما يسميه كل

---

(١) في اعتقادنا أن الشاعر العربي كان ينظم « قصيدة » ، تعبر تعبيراً فنياً وجمالياً عن تجربته الوجدانية ورؤيته الانسانية الى الكون والوجود والانسان والمجتمع أما تمزيق اوصال القصيدة الواحدة الى وقوف على الاطلال وغزل ومدح وهجاء .. فقد استورد هذه القصيدة بعض دارسي الأدب في العصر الحديث من النقد الاوربي النابع من الشعر الاوربي الذي يختلف عن شعرنا القديم ، وهذا النقد يقوم على دراسة الفنون الأدبية أو الموضوعات(Themes) وحاولوا تطبيقه على القصيدة العربية ، دون ان يلحظوا الفرق بين مفهوم القصيدة عند العرب ، ومفهومها عند الاوربيين .

من طه حسين وطه الحاجري رسالة(١) ؟ بيد أن الجاحظ نفسه يسمي هذا الأثر رسالة وذلك في كتاب «الحيوان» حيث يقول : «... فان أعجبتك هذه المسائل، واستطرفت هذا المذهب، فاقرأ رسالتي الى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب فهي مجموعة هناك ...(٢)» وإن دل هذا الكلام على شيء فانما يدل صراحة على أن الجاحظ – وسائر الكتّاب في عصره ، وفيما تلا عصره – كانوا يميزون بين الكتاب والرسالة .

– ٢ –

ولابد لنا قبل أن ننتقل الى دراسة بنية الكتاب من ان نتوقف قليلا لنبحث في غائيته ، أي لماذا كان الكتاب ؟

ويبدو أن الجاحظ قد طرح مثل هذا السؤال الخطير على نفسه ، أو أن العصر الذي عاش فيه قد استدعى اثارة هذا السؤال . ولعل من المفيد أن نعرض وجهة نظره في هذا الموضوع لما فيها من اصالة وعمق . فهو يرى ان الأمم تسعى الى تسجيل مآثرها بطريقة ما ، والغاية من هذا التسجيل هي الحفاظ على هذه المآثر من جهة ونقلها الى من يأتي بعدها من جهة ثانية ، أترانا نستطيع ان نستخلص من ذلك ان الامة تسعى ، بهذه الطريقة ، الى اطالة أمد بقائها والتغلب على الموت ؟ ان هذا يكشف عن سبب من أسباب الكتابة عامة ، وهو ليس بأضعفها .

ينطلق الجاحظ في الاجابة عن هذا السؤال من المسلمة التالية التي تقول ان «كل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال ...(٣)» ويدرس الجاحظ هذه الأشكال التي تعتمدها الأمة ، أية أمة ، لتحصن بها مناقبها ، وتستوفي بها مآثرها فيجدها لا تخرج عن ثلاثة : البنيان والشعر

---

(١) انظر : كتاب التربيع والتدوير بتحقيق شارل بيلا – منشورات المعهد الفرنسي دمشق ، وطه حسين (من حديث الشعر والنثر) ص : (٨٨) ، وطه الحاجري : الجاحظ : حياته وآثاره ص (٢٧٥) دار المعارف بمصر .
(٢) الجاحظ : الحيوان ، ج ١ ص ٣١١ .
(٣) الجاحظ : الحيوان ، ج١ ص ٧١ .

والكتاب ، ويحلل كلاً من هذه الاشكال بشيء من التفصيل فيرى أن من شأن البنيان أن يتهدم ، وكثيراً ما عمد الملوك الى طمس آثار من سبقهم وهدم المباني التي شيدوا ، « لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب اكثر المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم ، وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان ، وكما هدم الاطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان ...(١) »

أما الشعر الذي اتخذه العرب في الجاهليـــة سبيلاً لتسجيل مآثرهم فهو يعتمد على الوزن والقافية ، ومن هنا فان نقله الى امة اخرى عسير يقضي على روائه . « والشعر لايستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب . » فقيمته انما تكمن في موسيقاه ، ولو حولت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن » وهكذا ينقد الجاحظ كلا من البنيان والشعر ليصل بعد ذلك الى اعتبار الكتاب الوسيلة الفضلى لتسجيل المآثر وحفظها ونقلها من أمة الى امة ، ومن زمن الى زمن . » وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً .. وقد نقلت هذه الكتب من امة الى امة ، ومن قرن الى قرن ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت الينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها ، فقد صح ان الكتب ابلغ في تقييد المآثر من البنيان والشعر ..(٢) وما ذاك إلا لأن الكتب أقدر الاشكال الثلاثة المشار اليهـــا على حفظ تراث الانسان وتخليد ذكره ، وهذا ما يضع أمامنا ابرز نقطة في غائية الكتاب وهي أنه ذكر . يقول الجاحظ : « كتب الحكماء وما دونت العلماء ، من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والأرفاق، من القرون السابقة والأمم الخالية ، ومن له بقية ،أبقى ذكراً وأرفع قدراً واكثر رداً(٣) » ان (الكتاب ـــ الذكر) احدى الثوابت الأساسية في مفاهيم العرب الادبية ، في اعتقادنا ، وهذا المفهوم يعني ان الكتاب وجود مستمر في

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج١ ص ٧٣ .
(٢) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج١ ، ص : ٧٥ .
(٣) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج١ ، ص : ٧٣ .

التاريخ ، أو تاريخ مستمر ، فهو لايعبر عن مرحلة تاريخية معينة أو يلبي حاجة عصر ما أو فئة انسانية بعينها – شأن الكتاب في زمننا – بقدر ما يعبرعن حقائق انسانية قائمة فوق اطار المكان والزمان (العلم) . ولعل مما يثبت ذلك ان ابن خلدون في القرن الثامن الهجري يشير في مقدمته الى ديمومة كتب التراث في عصره فيقول : « ... وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي وما سوى هذه فتبع لها وفروع عنها ...(١) » .

-٣-

ربما كانت الخصيصة الأولى التي يطالعنا بها مفهوم الكتاب العربي طريقة التنويع في الموضوعات التي يشتمل عليها الكتاب الواحد . فمعظم الكتب التي خلفها العرب تنحو هذا المنحى . ان الكتاب يضم موضوعات عدّة ، قد تتقارب فيما بينها حيناً وقد تتباعد أحياناً أخرى . ولقد كان الكتاب العرب على وعي بذلك بل كانوا يقصدونه قصداً ويسعون اليه سعياً ، ذلك بأن تنوّع الموضوعات هو منهج في كتابة الكتاب ، فالجاحظ يرى الكتاب بستاناً أو روضة ، يقول في هذا المعنى : « وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن ، وروضة تقلّ في حجر ... (٢) » ، وابن قتيبة يرى الكتاب مائدة تضم صنوفاً من الأطعمة وفق شهوات الآكلين بحيث ترضي شتى الأذواق ،ومختلف رغائب القراء . يقول : « وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ...(٣) » ويشرح هذه الفكرة ويوسعها ويبررّها في قوله : « ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم ، ولا على ملوكهم دون سوقتهم ، فوفيت كل فريق منهم قسمه ووفرت عليه سهمه وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزّهاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال ... ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفةوكلمة

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٤٠٨ .
(٢) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٩
(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج١ المقدمة ص ١ ط – ي

معجبة وأخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض أخذ فيها القائلون ، ولأروح بذلك عن القارىء من كدّ الجدّ واتعاب الحق فان الأذن مجاجة والنفس حمضة ...(١) » ؛ وسبب ذلك كله أن الكتاب لايكتب لانسان بعينه ولا يبغي ارضاء فرد بذاته بل يبغي مخاطبة عدد كبير من القراء وايصال المعرفة (العلم) اليهم . والى هذه الفكرة نفسها يشير أبوحيّان التوحيدي في كتابه « البصائر والذخائر » ، ولا نشك في تأثّر التوحيدي في ذلك بمن سبقه من الكتاب ولا سيا الجاحظ – استاذه – وذلك حيث يقول : « ولا عليك أن تستقصي النظر في جميع ماحواه هذا الكتاب لأنه كبستان يجمع أنواع الزهر ، وكبحر يضم على أصناف الدرر ، وكالدهر الذي يأتي بعجائب العبر .. (٢) » .

ذلك كله يقودنا الى الخصيصة الثانية في بنية الكتاب وهي طريقة تقسيم المؤلف الى اجزاء وفصول وأبواب . فالكتاب العربي ، في الأغلب ، يتألف من اجزاء ، وتتألف الاجزاء من فصول أو ابواب . ويعنى كل قسم بموضوع عام واسع تندرج تحته موضوعات شتى او فقر عديدة ، دون أن يخرج ، مع ذلك ، عن طريقة التنويع التي أشرنا اليها فيا سبق . وهذه السمة تكاد تطبع كل الكتب العربية بدءاً من آثار الجاحظ حتى تصانيف عصر الانحطاط ، ولسنا نرى حاجة الى بسط هذه الفكرة وتوسيعها اذ يكفي الرجوع الى فهرست كتاب الحيوان وعيون الاخبار وأدب الكاتب وكتاب المعارف والاغاني والامتاع والمؤانسة والكامل والأمالي ويتيمة الدهر ونهاية الأرب وصبح الاعشى للتثبت من صحة ذلك . وليس الامر مقصوراً على الكتب الادبية وحدها بل يتعداها الى ضروب التأليف الخاص الاخرى كمصنفات الحديث (الشافعي وابن حنبل والبخاري والنووي ..) والتاريخ (الدينوري والطبري والمسعودي وابن‌خلدون..) والفلسفة (ابن سينا والفارابي ..) والتصوف (المحاسبي والسهروردي وابن العربي ..) والفقه والعقائد (الغزالي) والنحو (سيبويه وابن جني وابن فارس ..) والبلاغة (العسكري وابن رشيق والسكاكي ..) وفقه اللغة (عبد الرحمن الهمذاني والثعالبي ..) والنقد الادبي (ابن سلام والاسدي والجرجاني ..) .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج١ المقدمة ص١ ط – ي .

(٢) التوحيدي : البصائر والذخائر ، ص : ٢٨٥ بتحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني – دمشق .

- ٤ -

اما الخصيصة الثالثة ، ولعلها أهم الخصائص من حيث بنية الكتاب العربي في نظرنا ، فتقوم على فكرة التأليف . ان الكتاب العربي أثر مؤلف بالمعنى الحرفي الدقيق للكلمة ، أي أنه حصيلة المحفوظ في الصدور المأخوذ سماعاً عن السلف من جهة ، وحصيلة البحث والتنقيب في آثار السابقين المدونة من جهة ثانية ، فهو بهذا المعنى نقل للكلام المنطوق المسموع كما أنه نقل لما في الكتب ، وفق هدف جديد في غالب الأحيان ، ونقل لمجرد الحفاظ على التراث في أحيان قليلة أخرى ولا سيما في عصر الانحدار . ومن هنا فان كل تأليف هو استعادة للتراث ، وقد تكون هذه الاستعادة خلاقة مبدعة ، وقد تكون مسطحة لا عمق فيها ولا ابداع . وليس غريباً أن نجد بعض المؤلفين يعددون المصادر التي استقوا منها كتبهم كما نرى ذلك واضحاً في مقدمة ابي حيان التوحيدي لكتابه « البصائر والذخائر » حيث يقول : « جمعت ذلك كله في هذه المدة الطويلة مع الشهرة التامة ، والحرص المتضاعف والدأب الشديد ، ولقاء الناس وطي البلاد ، من كتب شتى ، حكيت عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكناني ، وكتبه هي الدر المنثير ، والنور المطير ، وكلامه الخمر الصرف ، والسحر الحلال ، ثم كتاب « النوادر » لأبي عبد الله محمد بن زياد الاعرابي ، ثم كتاب «الكامل» لأبي عبد الله العباس محمد بن يزيد الثمالي ، ثم كتاب « العيون » لأبي عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري ، ثم « مجالسات » ثعلب ، ثم كتاب ابن أبي طاهر الذي وسمه بالمنظوم والمنثور ، ثم كتاب الاوراق » الصولي ، ثم كتاب « الوزراء » لابن عبدوس ، و « الحيوانات » لقدامة ...»(١) »

ويفصل التوحيدي هذه الفكرة ويشرحها في موضع آخر فيتحدث عما يحتويه كتابه من حكم مستقاة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، الى جانب ما أخذه من الكتب الادبية التي سبقت الاشارة اليها ، مضيفاً الى ذلك كله عنصرين آخرين : أولها الحجج العقلية التي أخضع لها ما نقله ودونه ، وثانيها المشاهدة والمعاينة ، واعتقد أن هذا كله يصح اطلاقه أيضاً على كثير من مؤلفات الجاحظ . يقول التوحيدي : « وأنا ضامن لك أنك لا تخلو في دراسة هذه الصحيفة من أمهات الحكم ، وكنوز الفوائد ، أولها وأجلها ما يتضمن كتاب الله تعالى الذي حارت العقول الناصعة في وصفه ، وكلت

(١) التوحيدي : البصائر والذخائر ، ص : ٦ .

الألسن البارعة عن وصفه ، لانه المطمع ظاهره في نفسه ، الممتنع باطنه بنفسه ، الداني بافهامه اياك اليك ، العالي بأسراره وغيوبه عليك ... والثاني سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانها السبيل الواضح ، والنجم اللائح ، والقائد الناصح ، والعلم المنصوب ، والامم المقصود ، والغاية في البيان ، والنهاية في البرهان ... والثالث حجة العقل فان العقل هو الملك المفزوع اليه ، والحكم المرجوع اليه في كل حالة عارضة ، وامر واقع عند حيرة الطالب .. وهو الوصلة بين الله وبين الخلق .. والرابع رأي العين ، وهو يجمع لك بحكم الصورة ، واعتراف الجمهور وشهادة الدهور ، نتيجة التجارب ، وفائدة الاختبار ، وعائدة الاختبار ، واذعان الحس ، واقرار النفس .. هذا سوى أطراف من سياسة العجم وفلسفة اليونانيين ، فان الحكمة ضالة المؤمن ، أين ما وجدها أخذها ، وعند من رآها طلبها ، والحكمة حق ، والحق لا ينسب الى شيء ، بل كل شيء ينسب اليه ... (١) »

كذلك تتجلى فكرة التأليف في مصنف مشهور هو كتاب الأغاني ، اتخذ فيه ابو الفرج الأصبهاني الأصوات المئة منطلقا لتأليف كتاب في الأدب والسير والآثار والأخبار وأيام العرب والقصص والنوادر ... فقد جاء في مقدمة كتاب الأغاني : « ... واعتمد في هذا الباب على ماوجد لشاعره او مغنيه او السبب الذي من أجله قيل الشعر او صنع اللحن ، خبراً يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه ، على اقصر ما امكنه وأبعده مع الحشو والتكثير بما تقل الفائدة فيه . وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ، ولمع تليق به ، وفقر اذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار ، متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية ، والخلفاء في الاسلام ، تجمل بالمتأدبين معرفتها . وتحتاج الأحداث الى دراستها . ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها ، اذ كانت منتخبة من غرر الاخبار ، ومنتقاة من عيونها ، ومأخوذة من مظانها . ومنقولة عن أهل الخبرة بها . . »(٢)

ثم ان فكرة التأليف هذه بكل تلويناتها الفكرية تهدف الى « العلم » أو جماع

(١) التوحيدي : البصائر والذخائر ، ص : ٧ — ٨

(٢) الاصفهاني : الاغاني ، الجزء الاول ، ص : ١ — ٢ ، طبعة الدار .

المعرفة ، وهذه المعرفة ذات سبل عديدة تتضافر لتمد الانسان بالثقافة . والى هذا اشار ابن قتيبة في كتابه « المعارف » إذ قال : « هذا كتاب جمعت فيه من المعارف مايحق على من انعم عليه بشرف المنزلة ، وأخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة ، وفضل بالعلم والبيان على العامة ، ان يأخذ نفسه بتعلمه ، ويروضها على تحفظه ، اذ كان لايستغنى عنه في مجالس الملوك ان جالسهم ، ومحافل الاشراف ان عاشرهم ، وحلق اهل العلم ان ذاكرهم ، فانه قل مجلس عقد على خيرة ، أو أسس لرشد ، أو سلك فيه سبيل المروءة الا وقد يجري فيه سبب من اسباب المعارف : اما في ذكر نبي ، او في ذكر ملك او عالم ، او نسب اوسلف او زمان ، او يوم من أيام العرب ، فيحتاج من حضر الى ان يعرف عين القصة ، ومحل القبيلة ، وزمان الملك ، وحال الرجل المذكور ، وسبب المثل المشهور (١)

ـ ٥ ـ

قلنا ان التأليف كان استعادة للتراث ، ولا بد من أن نشرح هذه الفكرة في شيء من التفصيل . فنحن حين نقرأ هذه المصنفات الكبيرة التي خلفها العرب خلال قرون عديدة نلحظ اول مانلحظ أن النص مشحون بأبيات من الشعر لشعراء متباينين ،ومن عصور مختلفة ، لا يدور الكلام حولها (كما هي الحال في كتابي الكامل والأمالي مثلا) وانما جاء بها المؤلف تأييداً لفكرة او توضيحاً لها او برهاناً على صحتها . وقد استطاعت أبيات القصيدة القديمة بما تتمتع به من حرية نسبية داخل اطار القصيدة من حيث هي كل ، أن تساعد المؤلفين وتمدهم بفيض لا ينضب من الشواهد والأمثلة والحكم ليفيدوا منها في شتى الميادين ، في بحوث النحو واللغة وفي الأدب وجمالياته ، وفي الحكمة والمعرفة وفي العلوم والأخلاق الخ ... ولقد حوت هاتيك المصنفات النثرية زاداً شعرياً ضخماً قد أحسن استخدامه والانتفاع به والاستفادة من تجارب او مواقف أو آراء قديمة في أطر حديثه ، كما كانت تلك الشواهد الشعرية سبيلا لاغناء الموضوعات المعالجة او الأفكار المطروحة فلما خلا منها مصنف ، وقد ملأت هذه الأبيات لا الكتب الأدبية الصرف وحدها بل تعدتها الى غيرها من المصنفات ككتب التاريخ ايضاً ...(٢) .

(١) ابن قتيبة : المعارف ص : ١ ـ ٢ ؛ تحقيق ثروت عكاشه ـ دار المعارف.

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب « الاخبار الطوال » للدينوري ، وكتاب تاريخ الرسل والملوك » للطبري .

وإذا كان الكتاب العربي قد أفاد من الشعر العربي فمن البديهي ان يستفيد كذلك من القرآن الكريم ، لما يتمتع به من مكانة مزدوجة : أدبية ودينية . ولهذا فانا نجد المؤلفين يستعينون بآياته البينات مستشهدين بها كلما وجدوا مجالا للافادة منها ، وقل الأمر نفسه بالنسبة الى الحديث ، فانه مصدر خصب من مصادر الفكر العربي ما اكثر ما استفاد منه المؤلفون .

ونحن ، الى ذلك ، نود أن نشير هنا الى ان الكتاب العربي كان يشمل فنون النثر العربي المعروفة آنذاك ، وليس اثبات ذلك بالامر العسير . اذ نجد فيه عشرات النماذج من كل من الأمثال والخطب والوصايا والرسائل والحكايات والاخبار .. هذا اذا لم نشأ ان نبحث فيه كذلك عن العلوم الاخرى كاللغة والنحو والتاريخ والتراجم والسير والتفسير. وقد لخص التوحيدي في الامتاع والمؤانسة ذلك كله خير تلخيص حين قال يصف ماينبغي ان يتحلى به الكاتب : « لايكون الكاتب كاملا ولا لاسمه مستحقاً ، الا بعد ان ينهض بهذه الاثقال ، ويجمع اليها أصولاً في الفقه مخلوطة بفروعها ، وآيات من القرآن مضمومة الى مسمعه فيها ، وأخباراً كثيرة مختلفة ، في فنون شتى لتكون عدة عند الحاجة اليها ، مع الأمثال السائرة ، والأبيات النادرة ، والفقر البديعة ، والتجارب المعهودة ، والمجالس المشهورة ...(١) » .

-٦-

في الحديث عن الاستطراد نصل الى خصيصة جديدة من خصائص الكتاب العربي. لقد أراد الدكتور شوقي ضيف في كتابه « الفن ومذاهبه في النثر العربي » أن يشخص مقومات الجاحظ الاسلوبية والفكرية فوجدها تنحصر في النقاط التالية : الواقعية والاستطراد والتلوين الصوتي والتلوين العقلي . فدرس طريقة الجاحظ في الاستطراد

(١) من الواضح ان التوحيدي يتحدث في هذا النص عن الكاتب — الموظف . ولا شك في أن قسماً كبيراً من الكتاب الموظفين كانوا يضعون المؤلفات . وان قسماً آخر منهم لم يكن ليتوظف ، الا أن الجميع موظفين ومؤلفين ، كانوا مطالبين بمثل هذه الثقافة الواسعة .

دراسة مفصلة (١) واستشهد برأي المستشرق المعروف كارادوفو الذي يقول : « ان الموضوع عند الجاحظ ليس الا وسيلة للاستطراد . » ، ثم عرض رأي المسعودي في هذا الصدد ، ورأي الجاحظ نفسه . وحاول أخيراً أن يبحث عن الأسباب التي دفعت الجاحظ الى تبني هذه الطريقة فعزاها الى رغبته في دفع الملل والسأم عن القارىء ، والى أن الاوائل قد سارت في كتبها هذه المسيرة ، والى المرض الذي انتابه في أخريات حياته . وعلى أن ماجاء في دراسة شوقي ضيف صحيح جملة وتفصيلا ، الا أن الاستطراد ليس من خصائص أدب الجاحظ وحده بل هو سمة من سمات الكتاب العربي في أغلب الأحيان .

يبدو الاستطراد ، أول وهلة ، ضربا « من الخروج عن الموضوع . يقول شوقي ضيف مثلا » :«... اذ يلاحظ كل من يقرأ في الجاحظ ، حالا » من التشعث في التأليف فهو دائما ينتقل من باب الى باب ومن أثر الى خبر ، ومن شعر الى فلسفة ومن جد الى هزل ، في تشعّب هائل ... » والحقيقة ، فيما نعتقد ، أن الاستطراد هو ، من موضوع الكتاب في الصميم ، فهو مقصود قصداً ، وهو منهج متبع في التأليف ، وتصور الكتاب ، وهو طريقة ، اعتقد الكاتب العربي ، أنها الطريقة المثلى لاستيعاب التراث وحفظه واستعادته والافادة منه . واذا كان المستشرق كارادوفو يعتقد « أن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد » فنحن نرى نقيض رأيه ، أي أن الاستطراد في الكتاب العربي ، من وجهة النظر هذه ، هو الذي يخدم الموضوع ويحيط به ويوفيه حقه وفي الحق فماذا يعني الاستطراد سوى التنقل من موضوع الى آخر ؟ أليس بين هذه الموضوعات كلها وشيجة قربى وهدف بعيد هو تدوين الثقافة والعلم وامداد القارىء بها ؟ ألسنا نجد بين معاني مادة (طرد) في المعاجم تلك الاشارات الى فكرة المتابعة والامتداد والجريان ؟ بل أن بعض المعاجم تعرّف مادة استطرد المولدة على هذا النحو : « ساق كلامه على وجه يلزم منه كلام آخر ، وانتقل من ذاك الى هذا » ، ذلك بأن في الاستطراد دائما عودة الى الموضوع الرئيسي ، وعلى هذا النحو يمكننا ان نفهم جملة المبرّد (رجع الحديث) التي تتكرر في كتاب « الكامل » مرات عديدة . بل لقد شعر المبرّد بذلك فقال يبرر حديثه عن الخوارج ويعلل الاستطراد الظاهر في مؤلفه :

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص : ٦٤ — مكتبة النهضة المصرية .

« وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح المقترح مايفسخ به عزم صاحب الكتاب ويصده عن سنته ويزيله عن طريقه ، » واذا أدركنا ان الموضوع كما فهمه القدماء وعنوه ليس مقصوراً على مشكلة بعينها أوقضية بذاتها وانما كان الموضوع عندهم هو (العلم) بالمعنى الشامل الواسع لهذه الكلمة فهمنا الحاجة الكبرى الى الاستطراد ومدى فائدته ، والدور الكبير الذي يقوم به في خدمة هذا الموضوع وتفتيق جوانبه حتى البعيدة منها ، هكذا شعر الكاتب العربي بأن هناك معلومات وحقائق وأقوالاً هي فوق الزمان والمكان ، فسعى الى جمعها وتدوينها وتقديمها ، ولم يجد حاجة الى بسطهـا في تسلسل ما أو بحسب موضوعاتها لأنها مها تباينت زمناً (١) ومها اختلفت موضوعاً وباباً واتجاهاً ، فلابد أن تفضي في النهاية الى تحقيق الهدف البعيد للكتاب .

هذا ويتخذ الاستطراد ، في معظم الأحيان ، شكلين اثنين : أولهما ايقاف الكلام لرواية نادرة او نكتة أو لسرد حكاية طريفة او حادثة ذات دلالة ، والغاية من ذلك كله صرف الملل عن القارىء وتنشيط ذهنه ، وثانيهما وهو الأهم ، الانتقال من موضوع ما أو بحث في قضية ، الى موضوع مهم آخر او الى بحث أعمق وأدق ، او فكرة أخص وأضيق ، او مشكلة جانبية لا تخلو من قيمة وأهمية ، او لشرح كلمة صعبة او تفسير حكم آية من الآيات وتبيان معناها ، او للتعليق على مثل بتفسيره وذكر الحادثة التي استدعته او لذكر خبر يتعلق ببيت من الشعر اقتضى السياق ايراده لسبب من الأسباب، أو لذكر حدث تاريخي ، والتاريخ حضور دائم ويفبوع ثر بالنسبة الى الكاتب العربي ، وليست الغاية من هذا دفع الملل او السأم بل المضي بالقارىء الى مزيـد من التعمق والتوسع في صفوف المعرفـة وأطرافها ، وتقصّي جوانب الموضوع وتفتيق آفاق جديدة فيه ، وليس من العسير أن نلتمس الشواهد العديدة على ذلك في آثار الجاحظ وابن قتيبة والتوحيدي والأصبهاني وابن عبد ربه ولدى عدد كبير آخر من المؤلفين ،

(١) تثير مشكلة الزمان عند العرب كثيراً من الأسئلة لايتسع المجال هنا لعرضها ولكننا نود أن نشير إشارة عابرة الى أن الذين جمعوا القرآن الكريم لم يروا أن يرتبوه وفق نزول الآيات بل آثروا ترتيبه بحسب طول السور وقصرها .

- ٧ -

أما آخر الخصائص التي نريد أن نتوقف عندها فهي الاسناد ، لما له في يقيننا ، من أهمية بالغة في انشاء الكتاب . والمعروف أن فكرة الإسناد قد طرحت مع تدوين الحديث الشريف ؛ وعن ذلك نجم علم الحديث الذي عني ، فيما عني ، بدراسة الأشخاص الذين نقلت عنهم الأحاديث ، وطريقة انتقالها شفهياً من الرسول الكريم الى الصحابة ، الى التابعين ، وقد تم ذلك في عملية نقد علمية دقيقة تثير الاعجاب بدقتها ومنهجيتها ، وبالنتائج التي توصلت اليها . وعلى ضوء هذه العملية النقدية رفضت أحاديث مدسوسة ووثقت أحاديث أخرى ، مما لا يعنينا بحثه ههنا ، الا أن الدارس للكتاب العربي ، ولا سيما للكتاب التاريخي ، لا بد أن يلحظ مدى تأثير علم الحديث في تدوين كتب التاريخ العربية ، في الفترة الاولى لظهورها ، ولا بد أن يلحظ كذلك اعتمادها على طريقة الاسناد . يقول حسين نصار في صدد حديثه عن عروة بن الزبير أحد أوائل المؤرخين العرب في القرن الاول : « .. ولذلك يكون من الخطأ أن نتهم عروة بتهمة اغفال الأسانيد ، وانما نقول : ان الاسناد أصبح عادة في ذلك الوقت ، ولكنه لم يصبح بعد ضربة لازب على كل مؤلف في التاريخ .. »(١) والى هذا يشير الدكتور عبد العزيز الدوري في دراسته لنشأة علم التاريخ عند العرب فيقول : « لقد وضعت التواريخ المذكورة وفق منهج اهل الحديث في التاريخ الاسلامي ... » ويضيف : « .. من هذا العرض الموجز نرى أن العناية بدراسة الحديث أدت الى الدراسات التاريخية وهو اهتمام بمعرفة « العلم » بالمقابلة « للرأي » في تثبيت حقيقة أو قضية (٢) .

وفي الواقع فان معظم المصنفات تعتمد طريقة الاسناد في سرد المعلومات ويكفي الرجوع الى ما دونه البلاذري وابن قتيبة والطبري للتثبت من هذه الفكرة .

الا ان الاسناد ليس وقفاً على مصنفات الحديث أو التاريخ ، بل انتشرت هذه الطريقة ــ وهذا ما يهمنا هنا ــ في عملية التأليف عامة . ونحن نجد ميسمها في عدد كبير

---

(١) حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي . ص : ١٩٦ ، مكتبة النهضة المصرية .

(٢) د . عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . ص : ٣٢ ، المطبعة الكاثوليكية .

من المصنفات الادبية والنحوية وغيرها (ابن سلام والاصبهاني وابن قتيبة) حتى لقد غدا الاسناد مقومة من مقومات التأليف لجأ اليها الكتاب في غالب الاحيان . « فأبو الفرج الاصبهاني يورد اخباره مسندة ، ثم لايقنع بالاسناد وانما ينتقد الرواة ويبين وجه الخطأ أو التناقض في رواياتهم » (١) وليس تعليل هذه الظاهرة بالامر الصعب ، فقد كان العلم يؤخذ من العلماء شفهياً وذلك بحضور مجالس العلماء والتتلمذ على الائمة ، وكان طبيعياً أن ينسب المؤلف الرأي الذي يدونه الى العالم او المفكر الذي اخذه عنه متسلسلا به الى مصدره البعيد الموثوق ، ومن هنـــا ندرك سبب ازدراء القدماء لمن يحصل ثقافته من الكتب وحـــدها دون الاتصال بالعلماء حتى لقد كانوا يطلقون عليه اسم « الصحفي » أي الذي اخذ من الصحف لا من افواه العلمـاء ، وكانوا يرون أن الفرق بين الرجلين شاسع ، فالكتاب ، مهما يكن شأنه ، فهو على حد تعبير الجاحظ الذي امتدحه طويلاً ناطق اخرس .

ان العرب اذ أثاروا هذه المشكلة ووعوها فقد لمسوا مشكلة من اعمق مشكلات الكتابة التي طرحت وما تزال تطرح في كل حين ، ويمكن صياغتها على هذا النحو : الى أي حد يمكن للكتابة أن تعبر عن الكلام ، والفكر من ورائه ، أي عن الوجود اذا أجيز لنا أن نستعمل التعبير الفلسفي . واذا كانت البلاغة تقوم على مراعاة مقتضى الحال فالى من من القراء يوجه الكتاب اذا ما ارتبط بعصر أو مكان معينين ؟ وهل يستطيع أي انسان ان يستفيد منه ؟

ومع ذلك كله فلا بد من أن ينتقل العلم من السماع والحفظ في الصدور الى التدوين، أي الى أثر تحتفظ به الصحف ، الأمر الذي يهدده بأن يصبح نصاً جامداً قابلا بل محتاجاً الى التفسير والشرح والتأويل . ان التدوين الذي يخدم الفكر ويحفظـه ، كما يبدو أول وهلة ، لا يلبث أن يجمده ، ويجعله موضع تلخيص وتطويل وتذييل وتهميش على نحو ما آل اليه التأليف في عصر الانحدار . ولقـد أشار أفلاطون الى ذلك كله في محاورته (فايدروس) ، ولعل من الخير أن نختتم حديثنا عن الكتاب بهذه الومضات العبقرية التي أجراها أفلاطون على لسان سقراط حول الكتاب . يقول سقراط : « لنلته من ذلك

(١) الدكتور الطاهر احمد مكي : دراسة في مصادر الادب ، ص : ٢٥١ ، دار المعارف .

الى أن كل من يظن أنه قد ترك بالكتابة فناً أو من يظن أنه قد تلقاه معتقداً أن الكتابة تنطوي على تعليم مؤكد واضح فلا شك أن مثل هذا الشخص هو رجل على قدر كبير من السذاجة ؛ وأنه لا بد جاهل بنبوءة آمون اذ يتصور أن البحث المكتوب بالقياس الى من يعرف — هو أكثر من مجرد وسيلة لاسترجاع ما سبق علمه .

.. والكتابة يا فايدروس تلك الصفة العجيبة التي توجد أيضاً في التصوير ، وذلك لأن الصور المرسومة تبدو كما لو كانت كائنات حية ، ولكنها تظل صامتة لو أننا وجهنا اليها سؤالاً ، وكذلك الحال في الكلام المكتوب . انك لتظنه يكاد ينطق كأنما يسري فيه الفكر ولكنك اذا استجوبته بقصد استيضاح أمر ما فانه يكتفي بترديد نفس الشيء ، وهناك أمر آخر هو أن الشيء بعد أن يكتب ينتقل من اليمين الى اليسار بغير مبالاة ، فيساق الى من يفهمونه والى من لا يعنيهم منه شيء على السواء ، وهو فضلاً عن ذلك لا يدري الى من من الناس يتجه أو لا يتجه.ومن جهة أخرى ، حين تتجه الى موضوعه أصوات المعارضة أو حين يحتقر ظلما يصبح في حاجة لمساعدة مؤلفه لأنه لا يستطيع وحده أن يدرأ عن نفسه خطراً ولا يقدر على الدفاع عن نفسه . «ولا يلبث فايدروس أن يصل مع سقراط الى هذه الفكرة فيقول : « أتعني أن حديث من يعلم هو حديث حي ذو نفس ، وان الحديث المكتوب ليس في الواقع الا شبحاً له ؟! (١) » .

٨ —

بعد هذه الالمامة السريعة بمقولة الكتاب في التراث العربي ، ننتقل الى الحديث عن الرسالة . وفي اعتقادنا أن الرسالة تختلف اختلافاً عميقاً يكاد يكون جذرياً عن الكتاب ، وهذا ما سنحاول جلاءه هنا .

ولا بد قبل الحديث عن الرسالة وبنيتها وهدفها من أن نتوقف قليلا عند معنى كلمة رسالة وتلوينات هذه الكلمة والاستعمالات المختلفة التي استعملت بها، فقد يلقي ذلك ضوءاً علمياً على ماهيتها .

---

(١) افلاطون : فايدروس ص : ١٢٥ ترجمة الدكتورة اميرة حلمي مطر — دار المعارف .

يشير ابن منظور في « اللسان »(١) الى أن الرسالة هي الرسول . ونستطيع اذا نحن تأملنا هذه الاشارة التي أوردها ابن منظور في شرحه المسهب للمادة أن ندرك أن الرسالة . تعني ، أول ما تعني ، أنها كلام يوجه الى شخص غائب وبعيد في المكان معاً . الا أنه ، وهذه اول مفارقة بين الكتاب والرسالة ، يعيش في الزمن الذي يعيش فيه كاتب الرسالة وموجهها ، وأن السبيل الوحيد للاتصال به ونقل الفكرة او المعاني التي يراد نقلها اليه انما يتم عن طريق الرسول أو الرسالة . وفي هذا ما يشير الى أن الانسان كان يقوم بهذه المهمة شفهياً اول الأمر أو قبل انتشار الكتابة ، نحن اذاً أمام ظاهرة تتعلق بالكلام، فاذا تم نقله شفهياً كان ناقله رسولاً ، واذا ما نقل كتابياً كانت الرسالة، وذلك ما يمكن أن تدل عليه كلمة ابن منظور . والى هذا المعنى يشير احمد زكي صفوت في كتابه « جمهرة رسائل العرب » فيقول : « ان جمهرة العرب في ذلك العصر (العصر الجاهلى) كانت متبدية ، فلم تكن الكتابة فيهم فاشية ، ولذا كانوا يعتمدون في تراسلهم على المشافهة . فيبعثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتخبونهم لابلاغها ، وكانوا يحتفظون بآثارهم الادبية فيستظهرونها في الصدور . . أما أهل الحاضرة منهم فقد ألمّوا بالحضارة بعض الالمام ، وكانوا يمارسون الكتابة ، ويتبادلون الرسائل المكتوبة ، ولكنهم لتقادم العهد ، لم يؤثر عنهم الا رسائل قلائل معدودة ... »(٢) .

لقد احتاج العرب ، كما احتاج غيرهم ، في القديم والحديث الى هذه الوسيلة الثقافية لأنها تلبي حاجة ملحة في صلة الأفراد بعضهم ببعض ، وصلة المجتمعات بالمجتمعات الأخرى ، ومن هنا فان المظهر العملي الآني المباشر هو اول ما يميز الرسالة في رأينا وليس الكتاب كذلك . ولا بد من أن نشير هنا الى أن الرساله كانت اسبق من الكتاب الى الظهور(٣) ، عند العرب وعند غيرهم من الامم على الأرجح ، فقد انتهى

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة ر س ل .

(٢) احمد صفوت : جمهرة رسائل العرب جـ ١ .

(٣) نجد بعض المصنفات تطلق اسم الكتاب على الرسالة ، ولعلهم يعنون بذلك الكتابة على نحو مطلق . انظر رسائل البلغاء لكرد علي حيث يورد كتاب ابن المقفع للثقفي في السلامة ص : ١٣٨ نقلاً عن كتاب « اختيار المنثور والمنظوم » .والتوحيدي يورد في (البصائر والذخائر) كتباً الى ابن الزيات وابن خاقان والحسن بن وهب بمعنى الرسالة . ص : ٢٧٢ — ٢٧٩ .

الينا عدد من الرسائل التي كتبت (او نقلت) في العصر الجاهلي، ومن رسائل الرسول العربي والخلفاء الراشدين ورسائل الأمويين ، في وقت لم يكن الكتاب – بالمعنى الدقيق للكلمة – قد ظهر .

ولو أننا عمدنا الى دراسة بعض النماذج من هذه الرسائل في تلك الفترة المتقدمة فلسوف نجد فيها عدداً من ملامح الرسالة وخصائصها التي تطورت خلال العصور ولكنها ظلت محافظة على ماهيتها ، وان كانت قد أفسحت المجال لظهور ضروب جديدة من الرسائل سنشير اليها في خلال البحث .

– ٩ –

تقوم ماهية الرسالة ، في غالبية أشكالها ، على سعيها لاقامة صلة ما بين فرد وآخر ، أو بين فرد ومجموعة من الاشخاص أو فئة من فئات المجتمع. وهؤلاء الاشخاص متزامنون كما أشرنا الى ذلك فيما سبق . وتنطلق الرسالة من حادثة معينة من سياق الزمن والتاريخ هي التي تستدعيها ، ولولا هذه الحادثة لما كانت الرسالة : طلب شيء ، أو اصدار أمر ، أو رغبة في الوصول الى هدف ما ، وليس الكتاب كذلك . وعلى ضوء هذا يمكن أن تنتظم في سلك واحد كل الرسائل التي اصطلح على تسميتها بالرسائل الديوانية (او الرسائل الرسمية اذا استعملنا تعبيراً اكثر حداثة) ولا شك في أن طبيعة المجتمع – أي مجتمع – أو طبيعة مرحلة تاريخية معينة لابد ان تقتضي ظهور مجموعة رسائل من هذا النوع ، هي نتاج هذه المرحلة الراهنة . وفي هذه النقطة يتجلى وجه من وجوه الاختلاف بين الكتاب والرسالة .

لقد استدعت الدعوة النبوية مثلاً ظهور عدد من الرسائل ، وكانت هذه الرسائل الوسيلة الثقافية الحضارية التي اتصل بها الرسول الكريم بشتى الأشخاص والأمصار، داعياً الملوك الى الدخول في الاسلام . وهي الوسيلة التي وصلت بين الخلفاء وولاتهم وقضاتهم (رسالة عمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري في القضاء على سبيل المثال) ورؤساء جيوشهم الخ.. وحسبنا أن نستشهد في هذا المجال بهاتين الرسالتين اللتين ارسلهما الرسول الكريم أولاهما الى المقوقس وثانيتهما الى النجاشي . « فقد بعث صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عظيم القبط سنة ست ، وبعث معه كتاباً يدعوه الى

الاسلام فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم القبط . و « يا اهـل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. » (١) أما الرسالة الثانية فموجهة الى النجاشي ملك الحبشة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سـلم أنت ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد ان عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته التي القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فاذا جاءك فاقرهم ودع التجبر ، واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى » (٢) .

ان هاتين الرسالتين لتفتحانا عن كثير من الرسائل الأخرى الشبيهة بها ، بـل نستطيع أن نقول ان الرسائل الرسمية التي تقوم على نقل فكرة محددة الى شخص أو أشخاص ما ، قد وجدت حدود بنيانها في أي من هاتين الرسالتين ، ولبست تخرج بقية رسائل الرسول الكريم أو الخلفاء الراشدين أو غيرهم عن هذا الاطار . فلكل من الرسائل التي ظهرت في ذلك الحين هدف محدد تسعى الى ايصاله ، وموضوع واحد تتناوله، وهناك أخيراً الاعتماد على صيغة المخاطب في الكلام .

ولقد ظلت الحاجة ماسة الى هـذا الضرب من الرسائل في زمن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من الأمويين والعباسيين والاندلسيين وغيرهم .

ونسارع الى التأكيد أن هذه الرسائل رغم أنها قد تطوّرت خلال العصور تطوّراً

---

(١) أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ج ١ ص : ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٦ ، ويشير حسين نصار في (نشأة الكتابة الفنية) الى ان كتاب الرسول الى المقوقس قد وجده المستشرق الفرنسي بارتلمي في كنيسة قرب اخميم ، كما وجد المستشرق الانكليزي دلوب الكتاب الموجه الى النجاشي . ص : ٣٥ .

كبيراً ، اذ اغتنت مفرداتها . وتنوعت أساليبها ، وتعقّدت جملها ، واعتمدت على معطيات جمالية وابداعية كثيرة مما لانود بسطه هنا ، فقد ظلّت محتفظة بماهيتها وهدفها كما ظلّت محافظة على أسلوب المخاطبة على وحدة الموضوع ، وذلك ما يميزها بالدرجة الأولى من الكتاب .

واذا نحن عدنا الى دراسة بعض النماذج من الرسائل التي خلفها عبد الحميد الكاتب ، وقد برز اسمه في العصر الأموي على أنه من ألمع كتّاب الرسائل في ذلك العصر ان لم نقل في التراث النثري كله ، وجدنا أن رسائل عبد الحميد ، رغم كل الابداع البياني الذي تتسم به كتابته وجملته ، قد ظلت أمينة على مفهوم الرسالة محافظة عليه .

ولنأخذ على سبيل المثال رسالته في نصيحة ولي العهد ، وهي الرسالة التي أرسلها الى عبد الله بن مروان حين وجه الى محاربة الضحاك الخارجي ، اننا لانلمس فيها خصائص أسلوبه وحسب ، بـل هي نموذج لفن الرسالة الديوانية التي لم تتغيّر ماهيتها في عصور الازدهار والانحدار على حد سواء . فهذه الرسالة تتناول موضوعاً واحداً ، ومع أنها تعالجه هنا في اسهاب شديد يصل الى ما يقارب أربعين صفحة ، وتتناول مختلف جوانبه وتفتّق آفاقاً كثيرة فيه تدل على غنى فكري مرموق الا أنها لا تخرج أبداً عن اطار الرسالة المرسوم ، فهي تتناول موضوعاً واحداً محدداً وتفصّل فيه القول ، ففي هذه الرسالة يبدأ عبد الحميد الكاتب بمقدمة يبيّن فيها غرض الرسالة ، وما يتعلق به ؛ ثم يقسم الرسالة الى قسمين كبيرين يشرح في الأول منها الآداب والأخلاق التي يجب ان يتحلّى بها وليّ العهد في سلوكه العـام ، ويتناول في القسم الثاني سياسة ولي العهد في الجيش وتنظيمه . ثم ان القسم الأول ذاته ينقسم الى قسمين يعالج الأول منها آداب ولي العهد وعاداته ، ويعالج الثاني آدابه في حاشيته وآداب الحاشية ذاتها ، وكذلك يقسم القسم الثاني الى جزأين : الأول في سياسة الجيش العامة ، والثاني في تنظيمه . (١)

وقل الأمر نفسه في سائر رسائله كرسالته في الشطرنج ورسالته الى الكتّاب (٢) فالرسالة الأولى تتركز كلها في محاربة هذه اللعبة التي انتشرت بين الناس فصرفتهم عن

---

(١) محمد كرد علي : رسائل البلغاء ، رسالة عبد الحميد الكاتب في نصيحة ولي العهد . ص : ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢١ — ٢٢٣ .

الدين والدنيا ، وهي ترسم لعامل الخليفة مضار لعبة الشطرنج وتوعز اليه باعلان ذلك على الملأ وتحدد العقوبات التي ينبغي أن ينفذها في الآخذين بها . أما رسالته الى الكتّاب التي اعتبرت دستوراً لمهنة الكتابة فانها تبسط وتوضح للكاتب المعارف والعلوم والفنون التي يجب أن يمارسها ويتقنها ويأخذ نفسه بها ، وترسم له الأخلاق والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها .

ولسنا نرى حاجة الى عرض المزيد من الرسائل الرسميّة هذه . فان لها جميعاً ، طويلة كانت أم قصيرة ، وعلى مختلف العصور . خصائص واحدة وماهية واحدة ، بغض النظر عن بنيان الجملة الذي اختلف لدى الكتاب خلال العصور ، وهذا أمر طبيعي .

— ١٠ —

ننتقل بعد هذا الى ضرب آخر من الرسائل هو الرسائل الاخوانيّة (أو الرسائل الخاصة) . وتشترك هذه الرسائل مع الرسائل الديوانيّة في خصائصها كافة ، ولكنّها تتمتع بخصيصة أخرى جديدة لا نجدها في الرسائل الرسميّة تلك ونعني بها الاعتماد على النغم العاطفي وعلى النبرة الذاتية الشخصية . وفي هذه النقطة يتجلّى الاختلاف بين هذين النوعين من الرسائل ، كما يتجلّى ، من جهة أخرى ، الاختلاف بين الرسالة والكتاب .

ان الرسالة الشخصيّة هي رسالة موجّهة الى أخ أو قريب أو صديق بل قد توجّه الى عدّو ، وما رأيناه فيما سبق من أمر الرسالة الرسميّة التي قد توجّه الى طائفة من الناس نجد نقيضه هنا في الرسالة الشخصية ، ولابدّ أن ترتبط هذه الرسالة بحادثة معينة هي التي تستدعيها ، حادثة شخصيّة داخلة في اطار الزمن ، وكما أن الحادثة العامة قد أوجدت الرسالة الرسمية فقد أوجدت الحادثة الذاتية الرسالة الشخصية ، وليس كذلك شأن الكتاب الذي فصّلنا القول في تجاوزه اطار الزمن الذي يظهر فيه .

ولعلّ أقدم مثال على هذا الضرب من الرسائل وأوضحه وأشهره تلك الرسالة التي أرسلها الرسول الكريم الى معاذ بن جبل يعزّيه في ابن مات له ، وقد جاء فيها :

« من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل :

« سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو .

« أما بعد ، فعظم الله الأجر لك ، وألهمك الصبر ، ورزقنا واياك الشكر . ثم ان أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنيّة ، وعواريه المستودعة ، يمتع بها الى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم . ثم افترض علينا الشكر اذا أعطى ، والصبر اذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله السنيّة ، وعواريه المستودعة ، متعك بـه في غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير ، الصلاة والرحمة والهدى ، ان صبرت واحتسبت . فلا تجمعنّ عليك يامعاذ خصلتين : أن يحبط جزعك صبرك ، فتندم على مافاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك ، قد أطعت ربك وتنجزّت موعوده ، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه . واعلم أن الجزع لا يردّ ميتاً ، ولا يدفع حزناً ، فأحسن الجزاء ، وتنجزّ الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بكّ ، فكأن قد (١) » .

ومن الواضح أن أبرز ما يميز هـذه الرسالة قبل كل شيء هـو النبرة الحميمية التي تسعى الى مشاركة انسان ما في مصابه ، وحمله على الصبر والتجلدّ أمام هـذا المصاب ، مستعينة على ذلك بتأملات في الحياة والموت ، وايمان بالله وحكمته الفائقة ، والى ذلك كله ففيها رقة وحنو وايمان وصدق في العاطفة وفي التعبير عنها ، والغاية من ذلك هو التخفيف من وقع المصاب وشدة الألم . وهذه النبرة الحميمية الصادقة ستطالعنا في غالبية الرسائل الشخصية التي ظهرت في العصور التالية .

واذا كنا قد رأينا اسهام عبد الحميد الكاتب في تطوير الرسائل الرسمية حتى لقد ازدهرت على يده أيما ازدهار ، فقد ظهرت براعة هذا الكاتب المبدع في الرسائل الشخصية على نحو جلي أخّاذ . والأمثلة على ذلك كثيرة في أدبه ، وسيظهر الاختلاف واضحاً بين رسائل عبدالحميد الرسمية ورسائله الشخصية . ففي الرسالة التي بعث بها الى أخيه يعرّفه فيها بمولوده الجديد نلمح هذه الحميميّة ونستشف الصدق في التعبير عن الفرح والبهجة بهذا المولود الذي رزقه ، والاشادة بجمال الطفولة وعذوبتها . يقول عبد الحميد الكاتب : « أما بعد ، فاني ما أتعرّف من مواهب الله نعمة خصصت بزيتها وأصفيت بخصيصتها كانت أسرّ لي من هبة الله لي ولداً سميته فلاناً ، وأملت ببقائه بعدي حياة ذكرى ، وحسن خلافة في حرمتي واشراكه اياي في دعائه ، شافعاً لي الى ربه عند خلواته في صلاته وحجّه ، وكل موطن من مواطن طاعته . فاذا نظرت الى شخصه

---

(١) أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، ج ١ ، ص : ٦٥ .

تحرّك به وجدي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أنســة الولد ، وتولت عني وحشة الوحدة ، فانا به جذل في مغيبي ومشهدي ، أحاول مسّ جسده بيدي في الظلم ، وتارة أعانقه وأرشــفه ، ليس يعدله عندي عظيات الفوائد ، ولا منفسات الرغائب ، سرني به واهبه لي على حين حاجتي ، فشدّ به أزري ، وحمّلني من شكره فيه ما قــد آدني بثقل حمل النعم السالفة إلي به ، المقرونة سرّاؤها في العجب بتارات مايدركني به، من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا اياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه (١)».

كذلك تتجلى العاطفة الحادة الحزينةوالنبرة الشخصيّةالصادقة والعواطفالمستعرة في رسالة شخصيّة أخرى نالت شهرة واسعة في تاريخ الأدب أرسلها عبد الحميد الكاتب الى أهله وهو منهزم مع مروان. وقد عبّر فيها عن شوقه الى أهله ، وشكواه من تقلّب حال الدنيا ، وخوفه ممّا يخبّئه له المستقبل (٢) .

ولابدّ من أن نتوقف ههنا عند رسالة أخرى من رسائل عبد الحميد لما لها من أهمية خاصة في دراسة هذا اللون من الرسائل ، وسوف تفتح أمامنا آفاقاً وجوانب جديدة في دراسة الرسالة الشخصيّة الاخوانيّة ، وستضع أيدينا على ملمح خاص من ملامحها . هذه الرسالة كتبها عبد الحميد الى الخليفة يصف له فيها رحلة صيد . يقول عبد الحميد بعد مقدّمة قصيرة : « . . . . واني أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجنا الىالصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضوارى ، أكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساماً ، وأحسنها ألواناً ، وأحدها أطرافاً ، وأطولها أعضاء ، قد ثقفّت بحسن الأدب ، وعوّدت شدة الطلب ، وسبرت أعلام المواقف ، وخبرت المجاثم ، مجبولة على ما عودّت ، ومقصورة على ما أدّبت ، ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهـة ، من الشهرة الموصوفة بالنجابة ،والجرى والصلابة ، فلم نزل بأخفض سير ، وأثقف طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً ، قربت منه الأرض ، وزهر البقل ، وسكن القتام ، من مثارالسنابك، ومتشعبات الأعاصير ، مهل أن سرنا غلوات ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت من السحاب مسفرة ،فتلألأت الأشجار ، وضحك النوّار ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظراً أحسن حسناً ، ولا مرموقاً أشبه شكلاً ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة

---

(١) محمد كرد علي : رسائل البلغاء ص : ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص : ٢٢١ .

الرياض ،والخيل تمرح بنا نشاطاً وتجتذبنا أعنتها انبساطاً . ثم لم نلبث أن علتناضبابة تقصر طرف الناظر ،وتخفي سبل السلام ، تعشانا تارة ، وتنكشف أخرى ، ونحن بأرض دمثة التراب ، أشبة الأطراف ، مغدقة الفجاج ، مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدّانا المسير الى غاية دونها مألف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكلّ حرّة جونة متفرّقون، فرجع بنا العود على البدء ، وقد انجلت الضبابة ، وامتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برعلة من ظباء ، وخلفة آرام يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسّنا ، فلم نعج الاّ والضواري لاحمة لهن من بعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضواري مقاودها ، فأمرت بارسالها على الثقة بحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها فمرّت تحفّ حفيف الريح عند هبوبها ، تسفّ الأرض سفاً ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، الخ . . . (١) »

ولنا أن نتساءل بعد قراءة هذه الرسالة ما الجديد فيها ؟ وما الذي يعطيها هذه الأهمية الخاصة التي أشرت اليها قبل قليل ؟ ان هذه الرسالة ، الى أنها رسالة شخصية فيها كل مزايا الرسالة الشخصية . قد استطاعت أن تدخل الى النثر عنصراً جديداً هو عنصر الوصف الذي كان الشعر العربي حتى ذلك الحين يستأثر به . ولا بدّ أن يتذكّر قارىء هذه الرسالة الشعر الجاهلي والشعر الأموي ومشاهد القنص فيهما ، والطبيعة الحية والحيوانات الرائعة فيهما التي طالما تغنّى بها الشعراء في قصائدهم ومطوّلاتهم — زهير ولبيد والنابغة والاخطل مثلاً ، فعبد الحميد في هذه الرسالة يصف الحيوانات التي اتخذوها للصيد وما تمتاز به من قوة ومهارة ودربة ، والخيول التي كانت معهم . ويتحدّث عن الارض كيف انتعشت بعد سقوط المطر ، والشمس التي طلعت فخلعت على الازهار والطبيعة لألأ مبهجاً ، والسحب التي عادت فغطّت وجه السماء ، وينتقل بعد ذلك الى وصف الصيد وصفاً دقيقاً يقوم على التفصيل والاطناب في التعبير .

أن هذا كله يقودنا الى أن نلحظ توسّع اطار الرسالة وخروجها على مهمتهاأولية كانت تقوم بها وهي ايجاد صلة بين الأشخاص ، الى حيز الكتابة المبدعة التي تعتمدالخيال

(١) أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ج ٢ ، ص : ٥٤٤ .

المبدع الصور وتسعى الى الوصف وتبسط القول في موضوعات لم تكن يوماً موضوعاتها الخاصة بها . ولقد كان طه حسين ، كبير نقاد العرب ، أول من أشار الى ذلك في صدد حديثه عن النثر العربي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وقصر حديثه على رسالة التربيع والتدوير للجاحظ على أنها نموذج النثر الفني الذي زاحم الشعر العربي موضوعاته وتفوق في ذلك تفوقاً كبيراً ، وذلك حين اتخذ الجاحظ منه أداة للهجاء فأظهر مقدرة وبراعة لا يصل اليها أفضل شعراء الهجاء . يقول طه حسين : « أما في آخر القرن الثاني وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها وأصبح بعد هذا فن ترف وهو يقوم مقام الشعر في ارضاء الشعور .

وبعد أن كان المديح والهجاء والرثاء أموراً لا تتجاوز الشعر طمع فيها الكتاب، فمدحوا وهجوا وعاتبوا ووصفوا فأكثروا من الوصف ، ومن وصف أشياء لم يكن الشعر يعرض لها .

ثم عندما تناولوا هذه الفنون التي كانت في أول الأمر مقصورة على الشعراء بسطوها بسطاً يفوق ما كان مألوفاً في الشعر . وهذا طبيعي مفهوم لأن النثر أيسر وأبسط ، وهو أقدر وأوسع للمعاني ، فيستطيع الكاتب اذا عرض لفن أو لمسألة أن يتناولها من جميع وجوهها ، دون أن يحول بينه وبين الاتجاه فيما يريد وزن أو قافية او شرط من هذه الشروط التي تقيد الشعراء . ونجد هذا واضحاً عندما تقرأ الرسائل الكثيرة التي صدرت عن كتاب القرن الثالث وبنوع خاص عن الجاحظ . فالجاحظ قد تناول في كتبه أغلب الفنون التي تناولها الشعراء ، وتفوق عليهم ، وأتى بما لم يوفق الشعراء في جميع عصورهم الى أن يؤدوه . ويكفي جداً أن تنظروا في رسالة التربيع والتدوير التي يهجو بها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب . فستجدون هذه الرسالة طويلة تبلغ نحو خمسين ومئة صفحة وهي من أولها الى آخرها هجاء . وهجاء لم يقصد فيه الجاحظ الى الجد وانما قصد الى الهزل ...(١) .

وينبغي ان نشير هنا الى ان عبد الحميد الكاتب (أوائل القرن الثاني) لاالجاحظ كان أسبق الكتاب الى تطوير النثر الفني على هذا النحو وجعله أداة طيعة لكثير من الموضوعات من جهة ، وأن تطوير النثر الفني وتوسيع أفق موضوعاته انما كان عن طريق الرسالة وحدها ، والرسالة الشخصية على وجه الدقة .

---

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص : ٨٧ — ٨٨ طبعة الصاوي.

لقد تسربت فنون الشعر الى النثر اذن على نحو لايحتاج الى دليل بعدما سبق ، وأصبح فن الرسالة الشخصية يستجيب لهذه الموضوعات الجديدة استجابة رائعة ، ويستجيب لهذه الفنون الشعرية الوافدة اليه مما لم يكن له بها عهد ، وقد تحدث طه حسين حديثاً مسهباً عن رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، وحللها فذكر مواطن الهجاء فيها والطرائق التي اتبعها الجاحظ فيها من وصف تهكمي لشكل المهجو الى حديث عن معايبه الى اسئلة ساخرة طرحها عليه وهو يعرف انه عاجز عن الاجابة عنهـا . كما اشار الى الثقافة الغنية التي رفدته في ذلك كله (١) .

ولو أن الأمر اقتصرعلى رسالة فيالوصف لعبد الحميد وأخرى في الهجاء لكنا أمام ظاهرة فردية طارئة ، الا ان الرسالة الشخصية قد تعددت جوانبهاوتنوعت الموضوعات التي تعالجها . وما دمنا في صدد الحديث عن الهجاء فلا بد أن نذكر رسالة أخرى بالغة الأهمية هي « مثالب الوزيرين » عرض فيها أبوحيان التوحيدي بنبرة شاكية حاقدة متألمة أخلاق الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد ، ولقد كتب أبوحيان هذه الرسالة بعد ان قصد كلاً من هذين الوزيرين مؤملاً عنده الغنى والطمأنينة راجيـاً منه الرفد والمساعدة على رقة حاله ، ولكنه لم يلق في بابها الا الازدراء والاحتقار فصنف هـذه الرسالة الطويلة التي تقع فيما يقارب ثلاث مئة صفحة تتبع فيها عيوبها . ودون ما التقطه من أحاديثها وسلوكها وآرائها وأبرز ذلك كله على نحو يكشف عما انطوت عليه نفس هذين الوزيرين من معايب وعنجهية وجهل وتفاصح ، وقد مكنه مكثه الطويل لديها من ان يلتقط صورة دقيقة لها ولما يجري في مجالسها . وتسيطر على الرسالة كلها نبرة شخصية فيها ألم وحقد وتحامل وفيها تظلم ونقمة ، ورغبة في فضح زيف هـذين الوزيرين . فلسنا في هذه الرسالة أمام دراسة موضوعية لسيرتها ولا لأدبها بل نحن أمام سلسلة متصلة من المثالب التي تدين شخصيتها ، ومع ان هذه الرسالة طويلة جداً فانها تظل قريبة من ماهية الرسالة . وذلك بأسلوبها الشخصي والنبرة الذاتية والتقيد بموضوع

(١) رسالة التربيع والتدوير بتحقيق شارل بيلا ــ منشورات المعهد الفرنسي بدمشق ، وطه حسين : من حديث الشعر والنثر ص : ٨٨ ومابليها . وشوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص : ٧١ ، ونحن لانرى رأي الدكتور ضيف في الحاحه على وجود الاستطراد في هذه الرسالة ، لأن الرسالة برمتها تدور حول موضوع واحدوتتخذ هذا الموضوع وجوهاً متعددة وجوانب شتى .

واحد (١) . ومن هنا فان طول الأثر ليس خصيصة تحدد ماهيته وتميز مابين الكتاب والرسالة كما قد يتبادر الى الذهن أول وهلة ، فقد يكون الأثر كبيراً وينضوي في فن الرسالة وقد يحدث العكس .

وثمة مثال ثالث نشير اليه في هذا المجال هو رسالة في الهجاء لاتخلو من طرافة ورشاقة هي رسالة ابن زيدون الهزلية التي كتبها على لسان ولادة ساخراً فيها من ابن عبدوس ، منافسه في حبها . ويظهر أثر رسالة التربيع للجاحظ واضحاً في هذه الرسالة اذ يتتبع ابن زيدون عيوب منافسه ويشخصها ويسخر منها بأسلوب تهكمي قاس . يقول له مثلا : « أيها المصاب بعقله المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ... » الى ان يقول : « وبطليموس سوى الأسطرلاب بتدبيرك ، وصور الكرة على تقديرك ، وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ، وكلاهما قلدك في العلاج ، وسألك عن المزاج ، واستوصفك تركيب الأعضاء ، واستشارك في الداء والدواء ... »

* * *

في هذا النوع من الرسائل التي زاحمت فنون الشعر ـ وماأكثرها ـ تطالعنا رسائل اخرى عالجت موضوع الرثاء ، ولعل أولها وأشهرها رسالة الرسول الكريم التي سبقت الاشارة اليها . ونود ان ننوه هنا برسالتين اثنتين ظهرتا في العصر العباسي أولاهما للجاحظ والثانية لأبي العلاء المعري في تعزية أبي علي بن أبي الرجال في ولده أبي الأزهر (٢) .

وسنتوقف هنيهة عند رسالة الجاحظ لأنها في اعتقادنا من أجمل الرسائل التي كتبت في ذلك العصر وأروعها وأعمقها تعبيراً وأشدها قدرة على الوصف والتصوير . فهذه

(١) ابو حيان التوحيدي : مثالب الوزيرين . تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني دار الفكر ـ دمشق .

(٢) نشر هذه الرسالة الدكتور احسان عباس ـ دار الفكر العربي .

الرسالة(١) صفحات رائعة في الرثاء جاءت على شكل صورة مفصلة لشاب مات في عنفوان الشباب ، وقد صور الجاحظ فيها الموت تصويراً واقعياً حسياً دقيقاً على طريقته . وهو يبدأ رسالته هذه بالاعتذار الى أحد اصدقائه أنه تأخر في الكتابة اليه ، وما فعل ذلك اغفالا لحق صديقه بل لتكاثر المصائب وتضافر الاحزان واشتدادها عليه ، ويقدر أن صديقه قد علم بهذا النبأ ولذلك فهو راغب في تعريف كنه خبره .

وينتقل بعد هذا ليتحدث عن مرض الشاب الذي اشتد في أيامه الأخيرة ثم لم تلبث صحته ان تحسنت حتى ظن أنه قد نجا . يقول الجاحظ : « وقد كنت عاينت شكوه ، وفارقته عليه في غرة شهر رمضان ، ثم تزيد في جهد العلة وفي حدتها ، وكان اليأس منه والخوف عليه ، أقوى من الرجاء له والطمع في سلامته . ثم انحدرت العلة ، وأطمع في الافاقة ، وتزيد في الاطماع ، وتحلل السقم وشدة المرض ، واستبشر مؤملوه العافية له ببرئه . فلم يزل يتزيد في صلاح الحال ، ورجوع القوى ، حتى اذا أكل ما اشتهى وركب ومشى ، وخرج الى البستان ، وثابت نفوسنا من الاشفاق ، وزال عنه القلق والحذار ، وعاوده الأمل والاغترار ، وقال لي في بعض مناجاته ، واستجلابه العافية ، واستلذاذه معاودة الصحة : « اخالني قد نجوت ، وأراني قد أقلبت » .

واذا كانت صحة الشاب قد تحسنت فما ذلك الا الى حين ، فما هي مظاهر الضعف تعاوده ، وقواه الواهية تخونه ، ويصور الجاحظ ذلك تصويراً بارعاً فيصف ضعفه وهزاله ثم يقدم لنا صورة معبرة عن اللحظات الاخيرة من حياته حين فاجأه الموت وعاجله ، كما يصف اضطراب جوارحه وشخوص بصره ، وغيابه عن الوعي ، وصفاً يضع امامنا بدقة كبيرة لوحة مفصلة للنزع والموت تخلو من كل تصور خيالي ، وتعتمد على نقل التفصيلات نقلاً أميناً ينبض بالحركة ويشف عن الألم والعطف والرثاء . يقول : « .. وظل يومه ذلك على حاله من الصلاح . فلما اصبح دعا بسواكه ، فاستن به ، فبينا هو يمر بالسواك على ثغره أنكرت امه ضعف يده ، فقالت : « مالك ؟ » فقال : ماأدري!

(١) لم تنشر هذه الرسالة في مجموعات رسائل الجاحظ المعروفة ، وانما عثر عليها وحققها ونشرها الدكتور طه الحاجري في مجلة (الكاتب المصري) القاهرية ــ المجلد الثالث ــ العدد التاسع يونيه ١٩٤٦ .

اني لمنكر نفسي : بادروني بالنزول » فبودر به. فلما صار على الدرج منحدراً على قدميه، عن له الموت مطلاً ، وطرقه ما كان يهرب منه طويلا ، وفاجأه الذي راغ منه مجتهداً ، وبغته ما لم يجد عنه موئلاً . فسقط سقطة لم تكن بعدهـا اقالة ، فشخص لها بصره ، واضطربت جوارحه ، واحتمل الى قرار منزله على تلك الحالة الهائلة . لا يسمع الدعاء ولا يحفل بالبكاء . ولا يرد الجواب ، ولا يعبأ بالأحباب .. وهو في ذلك مشغول بجهد نفسه ، وكرب غيره ، ونزعه وشدة نفسه . والموت يقبضه ويبسطه ، كالثوب عندالطي والنشر ، صريعاً مستسلماً أسيراً منجدلاً ، قد خذله الولد والوالد ، والحميم والصديق ، فأكثر ما عندهم الحسرة والتلهف ، والاستكانة والنشيج . فمكث يومه ذلك ، ثم حم حمى مدفيه ، وفاظ في آخرها ، وورد حيث وعد ، وزهق البـاطل ، فعجوا وضجوا ، وهتفوا وولولوا . جهد لعمرك قليل الرد .. »

ويبلغ الجاحظ ذروة فنه في الوصف وذلك حين يعرض في لوحات قوية موجزة متتالية صور غسله ودفنه وبكاء أمه عليه ، ونسائه وحزن ابنته ، ومشهد أبيه المسن في اضطرابه وأمله ودموعه وارتعاد يديه ، وينتقل بعدها ليصف لوعة ابنه وأسى ندماه ومؤمليه ، ثم يصف جمهرة مشيعيه وحزن الناس على شبابه وأخلاقه الرفيعة ، ثم يمضي بنا ليصف الصلاة عليـه في المسجد وينتهي الى تصوير دفنه فيقول : « ثم نضد عليه اللبن ، وسدت خلاله، وأهيل من جوانبه التراب ، بعين الشفيق ، ومحنة الواد ، وحسرة الصديق ، ومحضر الوامق ، ثم لم يلبثوا أن ودعوه وانصرفوا » .

أما نهاية الرسالة فيديرها الجاحظ حول فكرتين ، تتناول الأولى شمائل المتوفى ومكارمه وسمو أخلاقه وعلو مكانته فينفوس الناس والحزن العميق الذي خلفه موته فينفسه ونفوس أصدقائه وأقربائه وعارفيه . وأما الثانية فدعوة الى الصـبر على نوائب الدهر ومكاره الأيام والاتعاظ بالموت والرجوع الى أمر الله . ثم يفصل الكلام عن الموت الذي سيحل بالناس كافة تأخر موعده أم تقدم فيقول مخاطباً « صديقه الذي أرسل اليه هـذه الرسالة : يا أبا محمد أصلحك الله ففيم التربص والانتظار ، وعلام الفرجة ؟ انما الدنيا كأهل دار مق نفر أولهم تلاحقوا ، فلم يبق بها أنيس . أفما تعلم أن الركب وقوف : من أتتـه دابته ارتحل ، غير أن الاياب الى الله !

بهذا البيان المشرق والجملة الفنية بدلالتها ، القوية بمفرداتها ، والقدرة على تتبـع الجزئيات موضوع الوصف ، والانتقال من الحادثة الى بعدها الانساني والفكري يعالج

الجاحظ هذا الموضوع ويظهر فيه تفوقاً كبيراً على الشعر . وهذا التفوق انما يعود الى موهبة الجاحظ وأصالته من جهة والى طواعية النثر من جهة أخرى . وقد تم ذلك كله في اطار الرسالة دون أن يطرأ أي تغيير على ماهيتها العميقة .

على هذا النحو استطاع النثر العربي ، من خلال فن الرسالة ، أن يخطو خطوات بعيدة في نقل الأفكار والتأملات والمشاعر حتى أن شاعراً كابن زيدون قد عمد الى فن الرسالة ليعبر عن مشاعره وذلك في رسالته الجدية التي كتبها وهو في السجن يستعطف بها أبا الحزم جهوراً كي يطلق وثاقه ويعيد اليه حريته ، ويسيطر على الرسالة انفعال حاد عنيف وعاطفة قوية ، وتكشف عن اضطراب عميق وقلق ممض . وفي هـذه الرسالة يحاول ابن زيدون أن يتنصل مما اتهم به ويتقرب الى أبي الحزم مستعطفاً مرة ثائراً مرة اخرى متملقاً حيناً مستغفراً حيناً آخر .

من هذا كله نرى أن الرسالة الشخصية الذاتية قد توسع أفقها وتعددت الميادين التي ولجتها ، وبلغت مستوى فنياً رفيعاً ، حتى لقد اتخذ ابو حيان التوحيدي منها اداة للتعبير عن مشاعره الصوفية . وما كتابه « الاشارات الالهية »(١) الا مجموعة ضخمة من الرسائل التي تتلو الواحدة الاخرى ، وتعبر كلها عن تجربته الروحية وغربته وألمه مما لا يمكن تفصيله ههنا .

— ١١ —

وهناك ، في نهاية المطاف ، نوع اخر من الرسائل ليست رسائل ديوانية، وليست بالرسائل الشخصية ، وسنحاول أن نتوقف عند هذا النوع وقفة موجزة . مع أنها تحتاج ، في اعتقادنا ، الى بحث مفصل مستفيض .

هذه الرسائل يمكن أن نسميها (الرسالة البحث)(٢) ، واذا كانت بعض هذه

(١) أبو حيان التوحيدي: الاشارات الالهية بتحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوي القاهرة ١٩٥٠ .

(٢) مازال هذه الكلمة تستعمل اليوم بهذا المعنى ايضاً ، فيقال (رسالة جامعية للحصول على شهادة الدكتوراه أو اطروحة) .

الرسائل توجه الى شخص بعينه فان غالبيتها تتخذ شكل بحث عـام جديد مبتكر في موضوع واحد محدد . وهي من هـذه الناحية شبيهة بفن أدبي جديد ظهر في العصر الحديث هو فن المقالة(١) . وهي على أية حال تكاد تخلو خلواً تاماً من النبرة الشخصية والعاطفة الذاتية ، وقد يتساءل الدارس لماذا نميز هذا النوع من الرسالة من الكتاب فلا نعتبرها كتاباً ؟ ألأنها صغيرة الحجم والكتاب ضخم كبير ؟ الحق ان صغر هـذه الرسائل أو ضخامتها لا علاقة لها بطبيعتهـا وما هيتها . فكثير منهـا يعدل المصنفات الكبيرة المعروفة ، وقد يجد المرء أول وهلة بعضاً من وجوه الشبه بينها وبين الكتاب . الا أن هناك فرقاً يظل قائماً في نظرنا بين الكتاب في التراث العربي (كما درسناه فيما سبق) وبين هذا النوع من الرسائل. وقوام هذا الفرق يكمن في أن هذه الرسائل تعالج موضوعاً واحداً محدداً فليست تسعى الى الاحاطة والشمول، بل ان معظم الخصائص التي عرفناها للكتاب نكاد نفتقد هنا ، فهي ليست مقسمة الى فصول وأبواب ، ولا تعتمد على عنصر الاستطراد ، وليس فيها استعادة التراث العربي ، واذا ما عمد كاتبها الى ايراد بعض الشواهد والأخبار من التراث فلكي يؤيد فكرته ويبقى في كل حين ضمن اطارها المحدد ، ومن الطبيعي بعد هذا أن نفتقد فيها عنصر الاسناد لأنها من قريحة مؤلفها نفسه ، فهي بكلمة موجزة ، تعتمد على الابتكار اكثر من اعتمادها على التأليف . وهذا كله يجعلنا نميزها من الكتاب من جهة ومن الرسائل التي عرضناها قبل قليل من جهة ثانية .

ولايضاح هذه الفكرة سنضرب مثالين من رسالتين مختلفتين موضوعاً وأسلوباً ، ظهرتا في عصرين متباينين ، تعود الأولى الى العصر الأموي ، وتعود الثانية الى العصر العباسي . أما الرسالة الأولى فقد كتبها الحسن البصري الى عبد الله بن مروان – عن طريق الحجاج – يعرفه فيها برأيه في القدر ويفند آراء خصومه ويدعم كلامه بالحجج والأدلة والبراهين . يقول مثلا : « فان ما ينهى الله عنه فليس منه ، لأنه لا يرضى ما يسخطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : « ولا يرضى لعباده الكفر » ولو كان الكفر من

(١) يقول جمال الدين القفطي في كتابه (تراجم الحكماء) عن جماعة اخوان الصفاء : « هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الاولى ، ورتبوه مقالات .. »

قضائه وقدره لرضي عن عمله ، ولو كان الامر كما قال المخطئون لما كان لمتقدم حمد لما عمل ولا على متأخر لوم ...(١) »

ومن الجلي أن هذه الرسالة تعرض فكرة أو قضية وتدرسها وتناقشها(٢)، وهي تحمل وجهة نظر صاحبها ، الا انها في الوقت نفسه تبتعد عن المشاعر الاخوانية الذاتية الخاصة كما تبتعد عن الصفة الرسمية ، ذلك بأن لها طبيعة خاصة بها ، وموضوعاً محدداً تتجلى فيه آراء كاتبها ومواقفه ، وحين يبتعد الموضوع ههنا عن الاطار الشخصي فانه يتخذ طابعاً يميل به نحو العام دون أن يخرج مع ذلك عن ماهية فن الرسالة .

وأما الرسالة الثانيـــة فمصنف التوحيدي الكبير عن الصداقة والصديق ، وقد يتبادر الى الذهن اول الأمر أننا بازاء كتاب إلا أن التوحيدي نفسه يسارع الى وصف أثره بأنه رسالة ويشرح غايته من تأليفها فيقول : « سمع مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة والعشرة ، والمؤاخاة ، والألفة ، وما يلحق بها من الرعاية ، والحفاظ والوفاء ، والمساعدة والنصيحة ، والبذل والمؤاساة ، والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وعفى أثره عند العام والخاص ، وسئلت اثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة ، وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها في المعاد والمعاش ..(٣) .

ان أبرز ما يميز هذا النوع من الرسائل أنها تدور حول موضوع واحد ، يعالجه الكاتب بطريقته الخاصة ، وقد تحمل هذه الطريقة بعض تأثيرات التأليف المعروفة من حشد الحكايات والاقوال والأمثال والشواهد الشعرية ، الا أن مؤلف الرسالة لا يخرج على نطاق البحث الذي أخذ نفسه بمعالجته .

(١) احمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ج٢ ، ص ٢٦٨ .

(٢) يسمي الدكتور حسين نصار هذا الضرب من الرسائل بالرسائل الجدلية ، ونحن نرى أن هذه التسمية ضيقة لاتتسع لكل الرسائل التي أدرجناها في اطارها، ونميل الى تسميتها (الرسالة — البحث) لأنها تشمل كما سنرى آثاراً عديدة جداً ليست غالبيتها بذات طابع جدلي ، انظر حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية ص : ١١٢ .

(٣) التوحيدي : رسالة الصداقة والصديق ص١ ، بتحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني — دار الفكر بدمشق .

ولقد ظهرت في التراث العربي مئات الرسائل التي تعالج بحثاً بعينه ، ومن الطبيعي أن تتعدد البحوث وأن تتعدد بالتالي هذه الرسائل حتى ليعجز الانسان عن الإحاطة بها . فما أكثر الرسائل التي عالجت شؤوناً أدبية ، ونفسية ، ونقدية ، ودينية . فالجاحظ مثلا قد خصص عدداً من رسائله لبحث المشاعر الانسانية ، فهو يتحدث في رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) عن كل من العداوة والحسد مظهراً خصائصها والفروق بينها ، محللا سلوك من يضمرون العداوة وتصرفات من يبطنون الحسد . كما يتحدث عن كتمان السر وحفظ اللسان في رسالة تحمل هذا العنوان(١) . ويدرس في رسالة أخرى بالغة الرفاهة والعمق تعلق الانسان بوطنه ويسعى الى تفسير هذا الشعور العميق القائم فينفس الانسان (رسالة الحنين الى الأوطان(٢)). كذلك يدرس التوحيدي بوحي من تجربته ومعاناته ، موضوع الصداقة وفقدانها في رسالته التي أشرنا اليها . وللتوحيدي رسالة اخرى ذات اهمية خاصة بحث فيها في فن الكتابة والخطوط وأنواعها وقد أتاح له عمله في مهنته الوراقة أن يعي كثيراً من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع(٣) . ولنذكر في هذا الصدد (الرسالة العذراء) لابن المدبر التي أدارها حول البيان وموازين البلاغة . والرسائل الكثيرة التي عرضت لموضوع اعجاز القرآن (٤) .

فاذا انتقلنا الى الفلسفة وجدنا عشرات الرسائل الفلسفية التي عنيت كل منها بمعالجةموضوع خاص كرسالة المنقذ من الضلال ورسالة أيها الولد للغزالي . ورسالة حي بن يقظان لابن طفيل . أما المثال الواضح البارز للرسائل الفلسفية العلمية فنجده في الموسوعة الكبرى التي وضعها اخوان الصفاء . كذلك نجد في التراث العربي عدداً كبيراً من الرسائل الصوفية كرسالة الحياة للتوحيدي ورسالة الطير للغزالي ، ورسائل السهروردي ، ورسائل ابن سبعين والرسالة القشيرية وكثيراً غيرها .

ان هذه الرسائل التي أشرنا الى بعضها ههنا انما تقوم بنيتها على دراسة موضوع

(١) مجموع رسائل الجاحظ . تحقيق طه الحاجري وبول كراوس ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هرون ـ القاهرة .

(٣) رسائل ابي حيان التوحيدي تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ـ دار مجلة الثقافة ـ دمشق .

(٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن لرماني والخطابي والجرجاني . تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف .

مستقل كامل ومعالجته وفق طريقة الكاتب الخاصة وأسلوبه ، وكثيراً ما تعتمد على ضمير المخاطبة في صياغتها .

-١٢-

قلت في مستهل هذه الدراسة أنها لا تعدو مجموعة من التأملات حول مقولتين أساسيتين في التراث العربي هما مقولتا الكتاب والرسالة . وقد حاولت أن أسجل أثناء الدراسة أبرز الخصائص التي بدا لي أن الكتاب العربي كان يتصف بها ، وما من شك في أن الكتاب العربي الحديث يختلف اختلافاً واضحاً عن الكتاب العربي القديم (فقد نحا كتابنا في العصر الراهن منحى الكتاب الغربي الحديث) . ثم درست الرسالة باعتبارها احدى بُنى الكتابة الأساسية في التراث العربي . وسعيت أن أظهر وجوه الاختلاف بينها وبين الكتاب . وفصلت القول في صنوف الرسائل التي ظهرت في التراث العربي ملبية حاجة الفكر الى التعبير ونقل الأفكار وايصالها الى الآخرين . وقد لمس الجاحظ ببصيرته العميقة هذه الحاجة فقال في احدى رسائله : « وأحب الناس أن ينقل عنهم ، ونقشوا خواطرهم في الصخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل (١) .

ولست أزعم بعد هذا أني بلغت في هذه الدراسة ما أريد ، فهذه المحاولة كلها لاتعدو أن تكون بداية متواضعة لقراءة تراثنا القديم قراءة جديدة واستعادته واقامة علاقة معه ، علاقة لا غنى عنها لأي بعث حقيقي لحياتنا الفكرية والأدبية .

(١) مجموع رسائل الجاحظ . ص : ٤٠ .

الكتاب العربي (١) في أقطار المغرب

واقع ومستقبل

الدكتور شكري فيصل

القسم الاول :

يتفتح المغرب العربي من جديد على ذاته ، وتتعرف جمهرته الكبرى الى وجودها الأصيل بعد أن حاول الاستعمار في فترات الاحتلال تجاوز هذا الوجود الأصيل على أنحاء مختلفة ، تفتيت هـذا الوجود ؛ أوطمسه وتغييبه ، أو تشويهه في محاولة تحقيق الانصراف عنه ، أومحاصرة مؤسساته أو تجميد قيمه ، أو تلطيخ مظاهره ، أوابتداع وجود جديد الكثرة الكاثرة من عناصره مزيفة أو مصطنعة .

(١) أحب أن أقول في البداية ان ادارة المجلة حين تفضلت فاستكتبتني هذا المقال اقترحت أن يكون عنوانه : أزمة الكتاب العربي في أقطار المغرب : واقع ومستقبل .

=

وقد كان من سبيله الى ذلك ان يباعد بين هؤلاء الناس وبين لغتهم الثقافية ، العربية ، وان يصرفهم عنها ، وان يزرع في نفوسهم – كما يزرع في حياتهم ومؤسساتهم – لغة أخرى غريبة ، ثم يأخذهم بتعلمها ، ثم يأخذهم باستعمالها ، ثم تكون هي اللغة التي لا لغة غيرها ولا لغة حولها .

ولتوطين اللغة في النفوس ولتوطينها في المؤسسات كان هنالك دائماً هاتان الاداتان :

أ – المدرسة بكل مايتصل بالمدرسة من مواد ومناهج وكتب .

ب – الكتاب بوصفه أداة الثقافة وسبيل المعرفة .

٢ – ولن نتحدث هنا عن المدرسة ، وانما نريد الى الكتاب .. فهو أظهر الطريق وأقواها في نشر الثقافة وفي تعميقها ، وبخاصة قبل أن تكون هذه الوسائل المستحدثة التي شاركت أتم مشاركة في التنمية الثقافية ، أردت : الاذاعة المسموعة ، والاذاعة المرئية (الراديو والتلفزيون) .

لقد كانت اقطار المغرب بعض مراكز الكتاب العربي : تحقيقه ونشره ان كان من آثار المتقدمين ، وتأليفه وطباعته ان كان من صنع المحدثين .. وفي تونس وفي المغرب، وفي فاس من المغرب بخاصة طبعت مئات من الكتب .ولاتزال مجموعة الكتب التي طبعت في فاس طباعة حجرية تؤلف ركناً من أركان المكتبة العربية ، على ندرة هذه الكتب في هذه الأيام والحاجة الملحة الى اعادة طبعها .

= وقد آثرت ان اتجاوز الكلمة الاولى « أزمة » لأني أحس أن بعض الألفاظ قد اشتد عليها الطلب وزاد استهلاكها حتى كادت تفقد معانيها . ان « التأزم » يوشـك أن يكون طابعاً في تصوراتنا وعلى اقلامنا ، في حياتنا منه قدر،ثم نصطنع نحن منه اقداراً.. فاذا جئنا نواجه « الأزمة » الحقيقية لم نجد اللفظة التي تصلح للتعبير ، وتفي بالواقع ، واختلطت عندنا الأزمات بالقضايا ، وأصبح كل شيء ازمة ، وغابت الأزمة الكبرى في غمار المصطلح المهترىء .

هذا الى اني اجد شيئاً من التناقض النفسي بين ان انطلق من الازمة – التي قد تكون جزءاً من الحاضر – وبين ان انتهي الى المستقبل ، فالمستقبل في تصورنا وتمنياتنا ، يجب أن يتجاوز هذه الازمات ليكون حياة عادية .. ذلك تفاؤلنا الذي نعيش به ونعيش عليه ، على كل مايقابلنا ، ولهذا أحب أن أعتذر للم التحرير عن هذا التجاوز .

وحتى في الجزائر حيث بدأ الاستعمار مبكراً واتخذ بعد ذلك شكله الاستيطاني الرهيب ، كانت هنالك في قسنطينة في الشرق وفي الجزائر العاصمة في الوسط وحتى في الجنوب ، طائفة من المطبوعات .. لقد ظل القنديل الأخضر يضيء ، ويتراقص لهبه الضعيف في وجه العواصف .. لم يكن هنالك زيت ، ولكن كان هنالك قوة هـذا الدفع وبقايا من ارادات وقدرات ، وعزائم ايمان وضمائر حية تمثل الأصالة تعاونت كلهـا لتظل الراية في الجزائر خفاقة مرتفعة على كثرة الرايات الأجنبية الـتي ارتفعت في كل مكان .

ولعل من ظواهر هـذا الحرص على طبـاعة الكتاب العربي وعلى تأليفـه في المغـرب ان نلاحظ ان هنالك بعض الناشرين المغـاربة الذين وفدوا على المغـرب والذين تابعوا الاهتمام بصناعـة الكتاب .. كان منهم مثـلاً الناشر المعروف في سوق الفحامين في القاهرة : محمد الساسي ، الذي طبع عديداً من الكتب أتذكر منها كتاب الأغاني في احدى طبعتيه القديمتين الكاملتين وهي الـتي عرفت بعد بإسم طبعة الساسي (١) .

ذلك كلـه الى عشرات الظواهر الأخرى يضع المغرب في مكانه الطبيعي من الكتاب العربي اسهاماً في تأليفه ونشره وتحقيقه وتسويقه في المغرب ، وفي خارج المغرب وبعيداً عنه .

٣ — ثم لما اشتدت وطأة الاستعمار ، وبخاصة في أوائل هذا القرن ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها وقبيل أن تنشأ الحركات الاستقلالية وتنمو ، تضاءل الكتابالعربي المغربي نتيجة هذه المطاردة الملحة له وللثقافة العربية بعامة..والاحاديثالشخصيةالكثيرة التي لاتزال ترن في اذني مع الاخوان المغاربة في المغرب والجزائر تكون للكتاب العربي صورة المادة الممنوعةالمحرمة التي تتعاون الاجهزة الحكومية جميعاً على مكافحتها .. وكان المغاربة والمثقفون الذين يقرأون العربية ، يبدون وكأنهم حين يتداولون الكتاب العربي

(١) ومنها المدونة في الفقه المالكي ، ستة عشر جزءاً ، والأمالي عن طبعة بولاق بعد ان اضاف اليه التنبيه ، والمبسوط للسرخسي والبخلاء للجاحظ وكان من هؤلاء الناشرين المغاربة التازي الذي طبع شرح صحيح الترمذي في ثلاثة عشر جزءاً وطبـع كتباً أخرى من كتب المالكية .

مهربي اسلحة .. وكدت أقـــول : مهربي مواد مخدرة ، لولا أن الاستعمار كان لايخشى المواد المخدرة كما يخشى الكتاب والسلاح .

ولهذا اتخذ الكتاب العربي (والمجلة العربية) كل حيلة حتى ينجو من شر المراقبة وينفلت من قسوة الحصار . وأدى هذا – على نحو عكسي – الى نوع من انتشاره على نطاق واسع .. كانت النسخة الواحدة تتناقل من يد الى يد وتهاجر من بلد الى بلد ولاتكاد تدخل مكتبة حتى تخرج منها الى غيرها في حركة حية متدفقة .

٤ – والظروف الاستعمارية التي حاربت الكتاب كانت في تناقضاتها تتيح له أحياناً فرصة انتشار .، ذلك أنه كان هنالك أمام الكتاب العربي فرصتان في أفقين من آفاق المغرب ،

الفرصة الاولى : كانت في الأفق الاقصى : في المغرب

الفرصة الثانية : كانت في الافق الادنى في تونس

أ – اما عن الفرصة الاولى فقد أتاحها هذا الخلاف الذي كان في بعض الفترات، قبل الحرب العالمية وخلالها ، بين السياستين الفرنسية والاسبانية .. ان هـذا الخلاف العكس في المغرب الذي كان تحت الحماية الفرنسية والمغرب الذي كان تحت الحمـاية الاسبانية .. فاذا سياستان متخالفتان ومتناقضتان نحو العربية والكتاب العربي ، فعلى حين كان الأمر في المنطقة الفرنسية على نحو ما وصفنا تضييقاً ومطاردة ، كان في المنطقة الخيلفية (حيث الاسبان) هذا التودّد للعرب عن طريق الثقافةالعربية .

فقد سمح ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، لعدد كثير من الطلاب أن يدرسوا في القاهرة بل لقد أنشىء آنذاك بيت اسمه بيت المغرب لم يقتصر على طلبة المنطقة الخليفية وانما كان يتيح فرصاً اخرى لبعض طلاب المغرب كله .. ولقد التقى فيه عديد كبير من طلاب الدراسات العليا والمعاهد والثانويات ، وأحسب أن بين جدرانه كان كثير من صور هذا التعارف والتعاهد بين الشباب العربي الذي كان يفد الى القاهرة من المغرب وبين الشباب العربي الذي كان يفد اليها من المشرق ، مما لم يئن بعد أوان الحديث عنه .

وتجاوز الامر البعثات والطلبة الى نشاط ثقافي من لون اخر قام به بيت المغرب أيضاً .. فقد دعا الى سلسلة من المحاضرات لا أزال أذكر بعضاً منها في السنوات ٣٩ – ٤٢ ، وقام بنشر بعض الكتب المتعلقة بتراث المغرب وأشـرف على ذلك بعض أجلاء

الاساتذة المصريين وتولت نشره أحياناً لجنة التأليف والترجمة والنشر ، من مثل أزهار الرياض للمقري ، والحلل السندسية للامير شكيب ارسلان ، وابن خلدون الذي بدىء بجزئين منه ثم انقطع العمل فيه .

ان هذا الاتجاه فتح أمام الكتاب العربي والثقافة العربية طريقاً الى المغرب الاقصى عن طريق المنطقة الخليفية كان من أثره على الاقل انه نقض هذا الحصار الذي أقامته السياسة الفرنسية او أحدث فيه بعض الثغرات .

فاذا ذكرنا بعد ذلك صلابة المغاربة في استمساكهم بعربيتهم وحرصهم على الكتاب العربي ، واصالة تجربتهم الثقافية في طبع الكتاب ونشره ، واذا نحن قدرنا ما كان للقرويين من عظيم الاثر اكتملت عندنا جوانب من الصورة التي نعني برسمها ، أو برسم خطوطها .

ب ـ وأما عن الفرصة الثانية في الأفق الادنى من المغرب ، في تونس ، فقد كان موقعها الجغرافي واقترابها من المشرق وجدودها مع ليبيا واتصال هذه الحدود مع القاهرة كان ذلك يضع تونس في موضع متميز من هذا النحو يجعلها اقدر على الاتصال بالكتاب العربي ، وتداوله .

ولكن هذا لم يكن كل شيء فالاستعمار الفرنسي في تونس كان مضطراً الى شيء من ارخاء قبضته ، وكان لوجود النظام الملكي (الباي) أثر لاشك ، وكان لجامع « الزيتونة » من التأثير مالا يوصف اذ كان معتصم التونسيين ، وكانت الحركة الثقافية في الزيتونة والصادقية من أضخم الحركات الثقافية التي غذت الحركة السياسية في شمال المغرب .

واجدني مضطراً هنا الى ان استطرد منوهاً بأثر الزيتونة « تونس » والقرويين « المغرب » وان هذا الاثر لاينزل من الدراسات الاجتماعية والفكرية منزلته . اننا احيانا كثيرة ننسى اشد الاشياء التصاقاً بنا .

إن لنا أن نتصور بعد هذا كله أن أقطار المغرب كانت بالقياس الى الكتاب العربي في وضع يشبه أن يكون حصاراً . ولكن هذا الحصار كان يتخلخل أحياناً هنا

وهناك . وعبر هذا التخلخل كانت تهب على المغرب أرواح تمكن له أن يتنفس في طريق الاصالة والذاتية(١) .

٥ — ولست أحب أن اتحدث بعد عن الحرب الداخلية التي لقيها الكتاب العربي داخل حدود أقطار المغرب بعد أن وصفت الحرب التي أحاطت به من حدوده ولا المظاهر التي اتخذتها والاشكال التي تمثلت بها .. ان ذلك يتصل بدراسة الاستعمار نفسه ومحاولاته في القضاء على الشخصية المغربية بهذين الوجهين المتكاملين والمتوازيين : الوجه العربي ، والوجه الاسلامي .

وحسبي أن أقول ان الانسان يستطيع أن يرصد في هذه العملية التخريبية ثلاثة أوجه :

١ — مطاردة الكتاب العربي على نحو ماوصفت .

٢ — تحريف الحروف العربيـــة الباقية في طريقة كتابتها . فقد أصبح الحرف العربي في أقطار الشمال الافريقي وفي الجزائر بخـــاصة وفي بعض اللوحات في الادارات الرسمية وعلامات الطرق واسماء الشوارع شديد البعد عن قاعدته الاصيلة في الكتابة شديد الانحراف عن مساره الطبيعي ، بل أوشك أن يكون رسماً آخر لايكاد يلتقي مع الرسم العربي في اشكاله كلها إلا في مجال التشويه .

٣ — تحريف الحروف العربية في طريقة نطقها . فقد كان حرف العين مثلا ينقلب ألفاً في الترجمة الى الفرنسية ، ثم ينقلب مرة جديدة الى ألف في الترجمة العربية المحرفة ، فيتباعد ما بين الاصل والترجمة ، والترجمة الجديدة هذا التباعد المضلل .

---

(١) كان هنالك مجال للحديث عن فرصة ثالثة للكتاب العربي تنفتح أمامه مع قوافل الحجيج ، على قدر ما يكون من السماح لهؤلاء الحجاج أو التضييق عليهم .. فقد كان الكتاب العربي أغلى ما يحمله هؤلاء الحجيج إذ يعودون وكان أول ما يحرصون عليه . إن شواهد ذلك لاتزال تعيش قصصاً وذكريات على السنة الناس في اقطار المغرب ، وأنا أكتفي بهذه الاشارة اليها تسجيلاً لهذا المصدر الشفوي الذي يوشك أن ينقرض ، الا أن يكتبه بعض الناس فيها يكتبون من مذكراتهم او يسجلون من اخبار رحلاتهم ، أو يجمعون من ابناء وطنهم .

القسم الثاني :

اذا تجاوزنا فترات الثورات والمقاومة - وهي ، في الحق ، فترات متصلة وثورات لا تكاد تنقطع الواحدة حتى تبدأ الاخرى - وأخذنا ننظر الى الكتاب العربي بعد استقلال أقطار المغرب فماذا نجد ؟..

كان عمل الاستعمار ، وفي الحدود الثقافية خاصة ، قد ترك آثاراً عميقة .. كان حفر على الوجه الثقافي العربي أخاديده وتركت جروحه ندوبا .. بل لعله كان رسم مساره على كثير من الألسنة . بعض هذه الالسنة كانت قادرة على أن تتحدث العربية والفرنسية معاً ، في طلاقة وقدرة .. ولكن بعضها كان قد شد الى الفرنسية . وما من نكران في أن كثرة من المثقفين كانت في ثقافتها مرتبطة باللسان الفرنسي .

واذا تركنا المثقفين الى الذين كانوا يسيرون في طريق الثقافة كانت الفرنسية غالبة أيضاً على ما يقرؤون . كانت هناك القصة الخفيفة والكتاب المبسط ، ولكن كانت هناك الصحيفة اليومية التي يمسك بها الانسان كل يوم ، والصحيفة اليومية وسط مُعقد جداً ، مؤثر جداً .. ومهما يكن حظ القارىء من اللغة الاجنبية فان الصحيفة اليومية كانت تقدم له ما يتناسب مع هذا الحظ ، من المقالة المكثفة لذوي الحظوظ القوية الى الحديث عن الرياضة وصيغ الاعلانات والعناوين الكبرى لذوي الحظوظ الضعيفة .

٢ - وعلى ذلك فقد بدأ الصراع من جديد،في غير الظروف السابقة ، بين الكتاب العربي والكتاب الفرنسي . كانت ملامح الاستقلال قد بدأت في بعض الاقطار ، واتجهت اقطار الى الثورة ، وانتشرت مبادىء ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فكان لابد لذلك كله من ان يضع الصراع في وضع جديد .

وكذلك أخذ أصحاب الدكاكين الصغيرة التي بقيت تتعامل بالكتاب العربي طريقهم الى القاهرة والى غير القاهرة من أقطار الشرق ، وتنفس العالم في جو جديد لم تظفر أقطار المغرب الا بالقليل منه ، ولكن هذا القليل أثار الكتاب العربي فيها أثار .

ولعلي هنا أن أكون جديراً بذكر ما عرف باسم المراكز الثقافية في كثير من بلدان العالم الثالث لقد اتخذ الفكر الغربي بعض طريقه عبر هذه المراكز وكان لهذه المراكز خططها واتصالاتها وأساليبها في الحرص على اشاعة الكتاب ، وكانت لها قدرة رائعة على وضعه في متناول كل انسان ، حسب ثقافته وحسب سنه .. وكانت تضعه في يده عن طريق الإعارة ،

وكانت تستخدم بعض المكتبات لتضعه في يده عن طريق الشراء .. ومثلت هذه المراكز أبرز وجوه العمل في الجانب الثقافي .. هذا اذا تجاوزنا الضغط المباشر في مجالات أخرى كمجالات التعليم .

ومن المؤكد أن مهمة المراكز الثقافية هذه كانت المحافظة على ثقافة اصحابها في مثل مستواها أو فوق مستواها ، عن أي طريق مذللة او صعبة .

ومن الواضح أنه لم يكن هنالك مراكز عربية تقابل هذا المد الجديد .. لم يكن هنالك الا لهذا العدد القليل من الكتبيين او بائعي الكتب ، وكان اكثرهم على ضعف مادي عجيب ، وكانت قيود النقد تحول بين هؤلاء الباعة وبين أن يحققوا ما يطمعون اليه من تمهيد الطريق أمام الكتاب العربي .

ومن الانصاف أن نذكر ما فعلته مصر هنا . فقد لجأت الى تأسيس مراكز ثقافية عربية واحتملت من ذلك ما هو فوق طاقتها .. أليس من المؤسف أن أقول إن بعض هذه المراكز في بعض هذه‌العواصم قد أغلق ؟..ومالي وللأسباب؟.. ولكني على كل حال لا بد ان أشيد بمركز ثقافي أنشأته العراق في الرباط وكان له فضل وكان له أثر .

٣ ــ مؤكد اذن أن الصراع في هذه المرحلة لم يكن متكافئاً : الكتاب العربي تمده روح من الأصالة تبقي على حرمته في النفس وتبعث الشوق اليه والرغبة فيه .. والكتاب الآخر الفرنسي تستدعيه الظروف السابقة على الاستقلال وتساعد عليه وتمد في آفاقه المراكز الثقافية .

اني لا أزال أذكر ذلك كأنه يجري أمامي الساعة .. كنت في واحدة من هذه المدن ، وكان الحرف العربي والكتاب العربي والضمير العربي هو الذي يشغل كياني كله : قلبي وعقلي ، ذهني وشعوري ، وكان العمل له يملأ وقتي كله دراسة وتدريساً .. وحدث أن زرت مركزاً من هذه المراكز الثقافية غير العربية ، فسمعت حديثاً في القاعة بين المدير وبين أحد الموظفين ، الموظف يعرض على المدير فقدان عدد من الكتب المعروضة، ولكن المدير لا يثور ولا يغضب ولا يفتح محضر تحقيق ولا يستدعي هيئة تفتيش ولا يبعث بعشرات الرسائل الى المرجع الذي يرجع اليه والى المرجع الذي لا يرجع اليه ، وانما يبتسم ابتسامة عريضة ، القدر من الذكاء الذي يتخللها على مثل القدر من السرور الذي يحفها .. قال المدير للموظف : ولكننا هنا من أجل أن نفقد هذه الكتب لا من أجل أن نحتفظ بها . وانصرف المدير مرشداً وانصرف الموظف راشداً .

تلك صورة من صور هـذا الصراع غير المتكافىء في ساحة الكتاب .. وكان لا بد من أن ننتظر سنوات حتى نشهد بعض التطور . لقد حدث هذا التطور بفضل مبادرات فردية او مؤسسات عامية في بعض الأقطار ، وحدث بفضل المبادرة الحكومية في أقطار أخرى ، ولا يزال يتأرجح في أقطار ثالثة .

القسم الثالث :

ماذا نفعل الآن .. أو ماذا يجب أن يفعل الكتاب العربي ؟

ليست القضية على هذا النحو أو ذاك من البساطة .. فالكتاب وحـده ليس له وجود مستقل ، ان وجوده مرتبط بحركة التعليم ، مرتبط بحركة التعريب ، مرتبط بمدى ما يكون من اتجاهات الثقافة نفسها .

ونحن لا نملك أن نتحدث الآن عن اتجاهات الثقافة .. لا نملك ذلك أو ليس لنا الخيار فيه في مجلة تخصص عددها للكتاب العربي . ولذلك لا بد من تجاوز ذلك ، على أهميته وضرورته وأصالة الحديث فيه .

فماذا نملك أن نقول ، في نطـاق هذا الاحتراس ، اذا مضينـا نتحدث عن الكتاب العربي ؟.

٢ ــ من الخير أن لا ننصب هنا كراسي للوعظ نخاطب بها أشقاءنا في المغرب العربي ، ولا أن نطلق الشعارات ثم نستريح الى ظلالها الوارفة ، ولا نقول لهم افعلوا أو لا تفعلوا .. للآخرين أن يفعلوا ما يشاؤون ، فقد يكونون أدرى بوقعهم ، وقد نقبل على الامر بوحي من عواطفنا على حين لا تكفي عواطفنا لتمهيد الطريق وفهم المشكلة .. لندع اخوانـنا بوحي يمضون على النحو الذي يشاؤون في ارادة حرة ، ولنفكر نحن في الذي يجب أن نفعل .

٣ ــ ان ملاحظاتي التالية ليست وليدة التأمل النظري والاستغراق الفكري قدر ما كانت وليدة الواقع . لقد عشت المشكلة المشكلة كلها ، على حد تعبيرنا المعاصر ، الكتاب وما وراء الكتاب خمس سنوات في قطر وفي آخر .. كان ذلك مسوغ وجودي في سنوات ، مؤكد أن وجود الانسان العربي بعيداً عن رسالة يقوم بها ، أقصد يمارسها، في صورتها الكاملة : الجهاد ــ كان وجوداً كاذباً..ولذلك فأنا أتحدث أو أحب أن أتحدث بعيداً عن سمات الواعظين المحدثـين ، بعيداً عن سمات الذين يبتعثون الكلام من تحت أظافرهم .

١ – هل الكتاب العربي في حركة نحو المغرب عملية تجارية ؟

٢ – هل الكتاب العربي في حركة نحو المغرب عملية فكرية مقصودة على نحو معين دون غيره ؟

أن نوعية الاجابة على هذين السؤالين هي التي تمكن للكتاب العربي ان ينهض برسالته طليقاً ، وهي كذلك التي تحد منه وتتيح له طريق الانتكاس .

لو كان الكتاب العربي وحده في أقطار المغرب لكان في وسع هذا الحديث أن يتخذ وجهة أخرى .. لو لم يكن في أقطار المغرب هذه التركة الأجنبية (أياً كان وصفها) على الألسنة وفي بعض العقول لكان للموضوع مسار آخر .. ولكن معالجة مستقبل الكتاب العربي في المغرب مرتبطة بهذا الواقع الذي تحدثنا عنه : الواقع الذي نسجه عمل دائب في مطاردة الحرف العربي خلال قرن ، في بعض البلاد . وقرن وبعض القرن في أخرى .

٤ – وفي تجربتي ، لا أقول في رأيي ، أن هناك أمرين في حركة الكتاب العربي لابد من مراعاتها ، هما :

أ – تجاوز الطمع التجاري .

ب – تجاوز التبشير الفكري المقصود .

أ – في تجاوز الطمع التجاري يحسن أن نلاحظ الأمر من وجوه مختلفات :

هنالك في البداية الكتاب الأجنبي في صورته الشعبية . ان رخص أسعاره، بالقياس الى قيمته المعنوية ، يؤلف حاجزاً صلداً في طريق الكتاب العربي عند المثقفين ، وأقصد بخاصة عند مزدوجي الثقافة الذين يؤلفون كثرة المثقفين .

ولكن ليس هذا هو الذي أعنيه بالطمع التجاري ، فتلك قضية مادية واضحة ، قد لانملك أن نتحكم فيها وان كان لابد من النظر اليها وأن نرى أنها وجه من وجوه الموضوع حين نريد للكتاب العربي الانتشار .

ولكن الذي أعنيه اذ أتحدث عن الطمع هذا الطمع الذي يصل الى حدود الغش ويوشك أن ينقلب جريمة .

١ – هنالك في نطاق الكتاب المؤلف ، دور من دور النشر في بعض العواصم

تحاول بكل طرق الاغراء والخداع أن تبيع كميات كبرى من كتبها التي أهملت هنا في المشرق اهمالاً تاماً وتجاوزها الزمن .

اني لا أحب أن أتحدث عن دور بأعيانها وكتب بأسمائها . ولكنني أريد أن أقول إن ذلك يؤلف أكبر عائق في طريق الكتاب العربي لأنه ينزع الثقة من نفوس القائمين على الأمر في هذا البلد أو ذاك لا تجاه مؤسسة بعينها بل تجاه الكتاب نفسه .

ان الأمر هنا ليس حراً أوليس متروكاً للغلبة التجارية ، ولم يعد في الدنيا من يتطاول ليقنع بأن عملية توزيع الكتاب وبيعه عملية تجارية خالصة .. ان آثار هذا النوع من التعامل آثار سيئة لا تمحوها سنون وقد رأيت من ذلك أمثلة صارخة وشواهد مثيرة .

٢ - هناك دور نشر أخرى تقدم على هذا الخداع في الكتاب المترجم . ونحن ننسى هنا ان الذين نقدم لهم هذه الأعمال أشد اتقاناً منا لهذه اللغة الأجنبية أو تلك .. أو أنهم قادرون على قراءة هذه الآثار في الترجمات التي يحسنونها اذا كانوا لا يستطيعون قراءتها في اللغة الأصلية التي كتبت بها .. انه يكون من الحمق هنا ان نقدم التمر الى الهجريين فهؤلاء الهجريون يحسنون مذاق التمر وتمييز جيده من رديئه .. لقد حملت الى المغرب العربي ترجمات ضعيفة وسيئة أفسدت الثقة بالمطبوعة العربية وصرفت عنها الأنظار وأعطت خصومها حجة بأيديهم يشهرونها كالسيف كلما كان حديث عن العربية والتعريب .

٣ - وراء الكتاب المؤلف والكتاب المترجم يأتي الكتاب المحقق . وهنا يتسع لذلك باب الخداع والغش . أترى يضيق القارىء ان أنا حدثته بهذا المثال ؟ اني أجدني يسبق بعضي بعضا الى المثال لأنه يغنيني عن كل شرح :

كتاب « البيان والتبيين » من كتب الجاحظ المعروفة وهو من أبرز كتب النثر العربي ، وحين نريد أن نعرف هؤلاء الذين يتفتحون على أصالتهم ، على نثر العرب في لغتهم العربية فانه لا غنى لنا عن أن نضع هذا الكتاب بين أيديهم ،

ولقد طبع الكتاب مرات كان أدقها هذه الطبعة القيمة التي قام بتحقيقها الأستاذ عبد السلام هارون والتي قربت الكتاب الى المثقفين العرب جميعاً ومهدت الطريق لصلتهم بالجاحظ .

هذا الكتاب يطبع في عاصمة عربية على نحو جديد ، يكتب على غلافه أنه تحقيق فلان ، وتحت اسم فلان هذا سطران أو ثلاثة من الألقاب (ألقاب حقوقية لا علاقة لها بالدراسة الأدبية ومن يدري هل هنالك حقاً شخص له هذا الاسم ؟) .. ويضع له هذا (الغلاف) مقدمة مشكولة شكلاً كاملاً – ودعك من قيمتها – تستغرق صفحات ..فاذا نظرت ما بعد المقدمة راعك ان تجد ان الكتاب مسرود سرداً ، من غير فاصلة ولا شكلة ولا هامش ولاحاشية، ولا بداية مقطع ولا بداية سطر .. كأن هناك طالباً ذنّبه استاذه فأكرهه على كتابة الكتاب كله عقاباً على ما اقترف .

حين وصل الكتاب الى واحـدة من عواصم المغرب كان من حق المثقفين الذين يريدون أن يستأنفوا حياتهم الثقافية العربية أن يشتروه ، وكان على طلاب الجامعة الذين يقبلون على الدراسات العربية – وأثقال من المتاعب تجتذبهم الى وراء – أن يشتروه .. وكان عليهم جميعاً أن يصابوا بخيبة أمل شنيعة لأن الكتاب – على هذا النحو من الطباعة – لا يقرأ ، واذا قرىء لا يفهم ، واذا فهم لا يستفاد منه .

أي ضمير يسمح لأصحابه أن يفعلوا ذلك بكتاب بعد أن مر الكتاب بتجارب من الطبع مدة قرن من الزمن حتى انتهى أخيراً الى الصورة التي اكتمل فيها في طبعة الاستاذ هارون .. أي ضمير يسمح بهذا التشويه الا أن يكون ضمير تخريب ؟.. وكيف نحارب الذين يضعون كأساً من الماء في قدر من حليب والذين يغشون هذه المادة او تلك المواد الغذائية ثم لا نحارب الذين يغشون جيلاً بأكمله او يشوهون تاريخاً بتمامه .

هل أحتاج أن أؤكد للقارىء أن كثيرين من الطلاب في الجامعة قد صدموا .. قالوا لي : انظر هذا هو الكتاب الآخر باللغة الأجنبية في الأقسام الاخرى .. كيف تراه هناك يعملون فيه ويفيدون منه وكيف تراه هنا ؟ كيف نعمل فيه ونفيد منه ؟

ان الأمثلة فوق أن يتسع لها الحديث ، والطمع التجاري هنا ليس شراً شخصياً بقدر ما هو افساد وتشويه . ان الكتاب العربي هو وجه الثقافة العربية الذي يطالعه اولئك الذين غاب عنهم هذا الوجه وفرض عليهم أن يتباعدوا عنه . يجب أن يكون هذا الوجه نظيفاً ، ونخطىء حين ندع الأمر فوضى ، فالوجوه القذرة تطرد الوجوه النظيفة ولو كان شيء من سلطان لفرضنا على الكتاب العربي كل مظاهر التجويد وحقائقه قبل أن يغادر المشرق سفيراً للمغرب ، وقبل أن يبعث للاجيال الفروع علامة من علامات الأجيال الأصول ..

ب ــ تجاوز التبشير الفكري المقصود

وتلك قضية اخرى ليست دون القضية الأولى . ان الفكر في بعض هذه الاقطار قد وجد ذاته بعد سلسلة من المعاناة الأليمة ، وقطع أصحابه اليه مراحـــل من الممارسة القاسية . وبعض هذه الأقطار عرف أنواعاً من التنظيمات في فترة مبكرة لم يكن الشرق على معرفة بها .. ثم هي هذه الاقطار جميعاً كان لها، بحكم الصلات اللغوية ، لقاءات بالفكر السياسي والمذاهب المعاصرة .. وانتهت من ذلك كله الى أن اتخذت لها سمتاً ووجهـــة .. وأياً كانت الوجهة والسمت فانها ارتضته وأقامت حياتها وخططها ووجودها المتكامل على أساس منه .

الفكر هنا اذن استوى على نحو معين ، من خلال تجارب معينة ، وغالباً ما كان ذلك باللغة الدخيلة .

فاذا جاء الكتاب العربي يدخل هذه الأقطار بعد انقطاع فمعنى ذلك أنه يحمل لغة جديدة تريد أن تأخذ طريق المؤالفة ، وفكراً جديداً يريد أن يكون له الانتشار .

هذا الفكر ــ اللغة يحسن ، ان لم أقل يجب ، ان لايصادم الأفكار الأساسية التي استقامت عند أصحابها لا في منهجه ولا في حقائقه .

أقول : « لا في منهجـــه » لأن الفكر في أقطار المغرب شديد المنهجية ، آثار « الديكارتية » الدقيقة تطبعه وتتحكم فيه على نحو رائع عنـــد الكثرة من الكتاب .. تغادره الفضفضة الواسعة التي لاهدف عندها والتي تنمو عندنا في المشرق ، ويستقر على كثير من التنظيم والايجاز .

وأقول : « ولا في خصائصه » لأن هذه الخصائص اكتست هالات من القدسية ، الدم زكاها ، ولهب النار طهرها ، والثورات قامت لها وعليها ، فاستقرت في أفكار الناس وحياتهم تعاليم شهداء .

ووراء هذه الخصائص تاريخ عريق عميق الجذور ، مفهوم على نحو معين ، يغذي هذه الخصائص .

ووراء التجارب والمعاناة وطرائق التفكير والتاريخ واقع ماثل .واقع ، مجرد الخطيئة الصغيرة المقصودة فيفهمه وتجاوزه، قد تثير على الكتاب العربي رياحاً عاصفة .

٢ ــ ان القضية هنا ليست قضية اللغة مطلقة ، ولكنها قضية الفكر الذي وراء اللغة ومعها ، وقضية الروح التي تتخلل هذه اللغة وهذا الفكر .. والذين يحبون لغتهم

العربية ويريدون لها أن تنبعث من جديد على الألسنة وان تشرق في العقول في هذه البيئات التي اكرهت على الانكماش فيها يحسن بهم — أن لم أقل يجب مرة اخرى — أن لايعنوا بشيء غير اللغة .. اللغة وحدها مصفاة من كل ما يفسد عليها حركتها أو يعوق تقدمهـا .

وقد يسأل سائل أو يهمس قارىء ، ولكن من الذي يتولى ذلك وكيف يتولاه ؟ كيف نتحكم في مناهج الكتاب العربي وكيف نتحكم في خصائصه قبل ان نصدره للناس؟ ولكنه لن يعدم ان يجد الجواب مرتين ، وليأخذ بأيها شاء .

إنه ليجده مرة على هذا النحو من القياس البسيط حين يعود الى الواقع في أقرب صوره فيرى ان ليس هنالك أمة لاتتحكم في « مواصفات » المواد التي تصدرها والتي تحمل اسمها .

وانه ليجده مرة أخرى على هذا النحو من التأمل البسيط حين يعود الى نفسه في أصفى صورها فيرى ان الذي يحقق ذلك إنما هو الضمير العربي ، حيث يكون هـذا الضمير وحده هو الوسيلة وهو الهدف : مناقشاتنا تتصفى عبره ، واهدافنا تنبع منه أو تتلاقى عنده .

* * *

وبعد ، فقد تحدثت عن الكتاب العربي الذي هو في طريقه الى المغرب .. ولكني لم اتحدث عن الكتاب العربي الذي تنبته أرض المغرب ، ان ذلك يؤلف الوجـه الآخر للقضية ، ولن تكتمل قضية تفهم من وجه واحد .. إن حق هـذا الكتاب المغربي على المشارقة عظيم عظيم ، وان علي ان أعالجه .. ولكني أنظر فأرى ان المقال قـد طال ، وآمل ان أعود لاستئناف ما أقطع منه الآن في فرصة قريبة ان شاء الله .

أزمة الكتاب العربي في أقطار المغرب

واقع ومستقبل

عبد الكريم غلاب

من الطبيعي ان تدرس ازمة الكتاب العربي في الوطن العربي جميعه، ذلك ان الكتاب ـ منطقياً ـ متصل بالفكر وبالمستوى الثقافي والحضاري لوطن متكامل ثقافياً وفكرياً وحضارياً، مرتبط لغوياً وجنسياً ودينياً وتاريخياً، متحد في أهدافه ومستقبله ومصيره. ولذلك فصورة أزمة الكتاب في وطن كهـذا لا يمكن ان تكون الا واحدة، ولا يمكن ان تدرس الا بصفة متكاملة.

غير ان أزمة الوطن العربي لا يمكن الا أن تنعكس على أزمة الكتاب العربي. ما يزال هذا الوطن ممزقاً فكرياً وثقافياً وايديولوجياً وربما حضارياً، وما يزال يبتعد عن تاريخه المشترك: التاريخ الحضاري والفكري على الأخص، وما يزال يتباعد في أهدافه ويسير نحو مصير مختلف تدعم اختلافه الانتماءات الفكرية والثقافية المختلفة التي تتعدى التأثر والاستفادة الى الانتماء والتعبد

من أقصى اليمين الى أقصى اليسار . ثم يزيد في هذا الاختلاف أنظمة الحكم المتباعدة التي لا تقترب من الوحدة — حتى الثقافيةمنها — بقدر ما تبتعد ، فتمزق الوحدة عن طريق تباين مناهج التعليم وأنظمته وعن طريق الاختلافات المذهبية والسياسية التي تبلغ من العنف حد قطع العلاقات ، أو تحريم الكتاب والصحيفة ؛ او الامتناع عن المشاركةحتى في مؤتمرات الأدباءومهرجانات الشعر .

ثم إن ظلال الأزمة القائمة تزيد انعكاساً على أزمة الكتاب حينما تعامله هذه الحكومة او تلك بحذر فتراقبه لتمنعه كما تمنع المخدرات الوافدة ، او حينما تعامله كبضاعة تجارية تخضع لكل قوانين التبادل التجاري وتحويل العملة وتقنين الصادرات والواردات .

كل تلك مظاهر لازمات جانبية ، ولكنها خطيرة ، يجتازها الكتاب العربي في الوطن العربي جميعه . وهي نفسها تنعكس على اقليم عربي بشكل يختلف عنها في اقليم آخر ، ولذلك فهي تفرض أن نناقشها في كل قطر من أقطار الوطن العربي لنخلص في النهاية بالعوامل المشتركة والعوامل الخاصة لازمة الكتاب العربي في الوطن العربي جميعه .

وأول مظهر من مظاهر ازمة الكتاب العربي في اقطار المغرب يأتي من التعليم الذي كانت لغته الفرنسية في كل من تونس والجزائر والمغرب باستثناء شمال المغرب الذي كانت لغة التعليم فيه الاسبانية . ورغم ان التعليم العربي الذي ناضلت في استمراره كلية القرويين في فاس وفروعها في مختلف انحاء المغرب، جامع الزيتونة في تونس ، ورغم الجهود التي بذلها التعليم الحر الذي أشرف عليه حزب الاستقلال في المغرب على عهد الحماية وجمعية العلماء المسلمين بالجزائر على عهد الاحتلال ، رغم ذلك فقد ظل خريجو التعليم الفرنسي يكونون الاغلبية الساحقة من القراء في المغرب العربي حتى على عهد الاستقلال .

وقد عانى هؤلاء القراء من مركب نقص ، فهم يتحدثون العربية في المنزل والشارع ويقرأون بها قراءة سطحية ، ولكنهم غير قادرين على القراءة الجادة الا باللغة الفرنسية ، وبالتالي فهم غير قادرين على الكتابة الا باللغة الفرنسية . ونتيجة للشعور بالنقص ، وربما للاحساس الذي يترسب في اللاشعور بعقدة الذنب ، فهم لا يكتبون بالفرنسية لأنها غير لغتهم ، ولا يحسون وهم يكتبون بها انهم يكتبون لشعبهم ، ولذلك لا يكتبون وقد ينصرفون عن القراءة تحت وطأة العقدة نفسها فلا يقرأون حتى بالفرنسية كما هي وضعية معظم المثقفين بالفرنسية .

كانت النتيجة أن القارئين من جيل ماقبل الاستقلال وجيل مابعد الاستقلال هم في غالبيهم

الذين ناضلوا في سبيل تكوين انفسهم بالعربية او باللغتين معاً ، وان الكتاب الذين ناضلوا ليتحرروا من مركب النقص وعقدة الذنب فكتبوا بالفرنسية وهم قلة . او الذين ناضلوا في وجه كل هذه الصعوبات فكتبوا بالعربية، وهم قــلة ، ولكنهم على كل حال هم الذين يمارسون فنون القول باللغة العربية في اقطار المغرب الثلاثة .

مهما يكن نضال هؤلاء واولئك فانــه لا ينقذ الكتاب من الأزمة التي يسببها واقع التعليم الذي ما زال مستمراً على أساس أن الفرنسية هي لغـة التلقين للمواد العلميـة والانسانية وان العربية تدرس كلغة لا تتيح لتلاميذ المدارس وطلبة الجامعات الا أن يعرفوها كلغة أدبيــة ، أما حينما يفكرون في العـلم او الرياضيات او الفلـسفـة او السياسة فليس أمامهم الا الفرنسية لأنهـا اللغة التي طوعت ذهنهم للتفكير بها سنوات وسنوات .

نحن اذن أمام أزمة مزدوجة يعانيــها الكتاب :

— أزمة انتاج .
— أزمة استهلاك .

والسبب الاساسي فيها معاً هو التعليم الذي لم يتخلص بعد من لعنة التخطيط الاستعماري.

والظاهرة الثانية نتيجة لهذه اللعنة نفسها أن التعليم مازال يستمد فلسفته من التوجيه الفرنسي الذي كان يعتمد على حشو الذاكرة بكثير من المعلومات دون أن تترك للفكر حرية التفتح على الآفاق الواسعة ونتيجـة لذلك فالتلميذ والطالب لا يجد الوقت ليتحرر من هيمنة الفصل والاستاذ والكتاب المدرسي ليتجول بفكره في آفــاق أخرى كقارىء حر . والأستاذ لا يتمكن — نتيجة لضغط البرامج — من أن يوجه طلابه ليقرأوا ولا أن يفتح أعينهم على الكتب الجديدة حتى في المادة التي يدرسها معهم . ومن ثم ينعدم التوجيه نحو القراءة الحرة وتضعف حاسة القراءة عنــدهم . ويكون الضحيـة هو الكتاب .

تستوي في ذلك اقطار المغرب جميعـاً لأن التعليم عندها استمد أسسه من التوجيه الفرنسي . ولم تقف هــذه الأقطار رغم الاستقلال وقفة مراجعة واعادة النظر في الأسس التي يقوم عليها التعليم لتحــدث التغيير الضروري في الأسس الفلسفية للتعليم وفي توجهه وبرامجه وهياكله ولغته ، وانما كان الاستمرار هو الحـل الأسهل . نفس السياسة التي اتبعت في الميدان الاقتصادي وفي السياسة الخارجيـة وربما في السياسة الداخلية كذلك على اختلاف غير عميق بين الجزائر والمغرب وتونس .

فرنسة التعليم وتوجيه عاملان خطيران من عوامل أزمة الكتــاب العربي ، وتزداد

خطورتها تناقها بالعامل الثالث ـ وهو العامل الأول في الاهمية : الأمية .

من نافلة القول أن نتحدث عن التقصير الذي اصطبغ بـه عهد الاستعمار في تعليم المواطنين ، رغم أن ميزانية التعليم (التي يدفعها المواطن) لم تكن تقل عن ٢٠٪ من الميزانية العامة . فقد كانت جميعها تصرف على تعليم أبناء الجالية الفرنسية ، وتصرف بسخـاء ، لأن الأستاذ الفرنسي كان يكلف الدولة ثلاثة اضعاف مايكلف الدولة الفرنسية حينما يعمل في فرنسا . كانت الأمية المنتشرة المتزايدة هي النتيجة الطبيعيـة لاستغلال ولاحتقـار الانسان العربي في المغـرب ، ونتيجة خوف من أن يتعلم هذا الانسان فيصبح مصدر خطر .

ما تزال ظلال هذه الاميـة منتشرة في المنطقة المغربية من الوطن العربي ، الاجيال التي تكونت فيعهد الاستعمار ما تزال الامية متحكمة فيها . والاجيال التي تكونت على عهد الاستقلال لم تتحرر من بقايا السياسة الاستعماريةالمتوغلةفي انظمةالتعليم وأساليبه. فهو تعليم للنخبة ، وبلغة غـير اللغة الام ، ويعتمـد على الاف من الاساتذة الاجانب الذين يمتصون الميزانية مهما تكن ضخمـة ، ويعتمد التوجيه الكلاسيكي الفرنسي الذي لا يفتح الافق السريع للعمل امام المتعـلم ، ولذلك لا تجـد الاجيال المتصاعدة الحماس الكافي للتعلم ، وهو يقف عاجزاً عن ان يستغرق كل الاطفال الذين يبلغون سن التعليم فتضاف الاجيال المتعاقبة سنة بعد سنة الى قوافل الاميين . وهكذا لم يكن في امكان هذه الاقطار ان تنتصر على الاميـة بالنسبة للاجيال الماضية ، بل لم يصبح في امكانهـا ان تعلم الاجيال الصاعدة في السنوات الست عشرة التي مرت على استقلال المغرب وتونس والسنوات العشـر التي مرت على استقلال الجزائر . وأصبحنا امام ارقام مهولة تنشرها الامم المتحدة عن الامية في العـالم العربي . ويتصدر المغرب قائمـة الاميين ٨٩٪ ولا تنافسـه او تفوقه الا السعودية التي تبلغ الامية فيها ٩٧٪ وتأتي بعده الجزائر التي تبلغ الامية فيها ٨١٪ ثم تونس التي تبلغ ٦٨،٧٪ .

مع هذه الامية الطاغية لايمكن ان ننتظر ازدهاراً للكتاب في مناخ يختنق بالعوامل المتعددة الاخرى :

في مقدمتها ـ وهذا هو العامل الرابع ـ ان الكتاب العربي لايكاد يستجيب لاهتمامات القارىء الذي يعاني من المشاكل الاساسيـة مالايجد ظلالها في كثير مما يكتب الكاتبون . مشاكل الحرية والعيش الكريم هي خلاصة اهتمامات القارىء العربي لايختلف المشرقي منه عن المغربي .

القارىء ـ كالمشاهـد بالنسبة المسرح والسينما والتلفزيون وكالمستمع بالنسبة

للاذاعة — يتجاوب مع الانتاج الادبي والفني والسياسي الذي يتصل بمشاكله التي يعايشها يومياً : مشكلة الحرية ، مشكلة الكرامة في التعليم والصحة والخبز والعمل ، مشكلة الصراع بينه كممثل للطبقة المسحوقة وبين عالم تسوده الفيودالية والاقطاع والاستغلال واحتكار النفوذ ، مشكلة الارض المحتلة والمنهوبة ، والمدينة المزيفة ، والقرية البئيسة ، مشكلة الاستعمار الذي تمتد ظلاله الكثيبة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، والذي يحاصر الوطن العربي من الخليج الى المحيط . تلك بعض اهتمامات القارىء العربي .

فهل يعكسها الكتاب في المغرب العربي ، على قلة ما ينشر منه ؟

اذا كانت القصة والرواية والشعر قد استطاعت ان تتخطى عتبة الاتباعية والرومانسية التقليدية لتعيش مع الشعب في اهتماماته فان الدراسة ما تزال — في اغلبها — ترزح تحت ثقل الماضي وتحت ثقل الاجترار وتكرار النظريات ، وبذلك طبع الكتاب بالجمود والتخلف عن آفاق العصر واهتمام القارىء .

ثم ان الجانب الفني في الانتاج الابداعي — القصصي والشعري — مازال يحجب الكتاب عن جمهور القراء . فالذين لا ينتمون بالآداب من خريجي الكليات الادبية ، والاقسام الادبية الصرف من هذه الكليات على الاخص لا يقرأون القصة والشعر . وبذلك يتضاءل قراء الكتاب الذي يعكس اهتمام القارىء ، ويجد نفسه في عمق الازمة .

والعامل الخامس الذي يعطي لازمة الكتاب مظهرها الحقيقي ناتج عن الاوضاع السياسية والاقتصادية التي ماتزال تعيش عليها أقطار المغرب العربي ، وهي أوضاع عامة في الوطن العربي جميعه .

الكتاب في كل قطر يعتبر بضاعة محلية داخلية . وعلى هذا الاساس ماتزال سوقه محدودة . ولكي نتبين خطورة هذه السوق المحدودة نقوم بجولة في ممكنات الحصول على زبناء السوق . ولنبدأ بتونس . سكانها لا يصلون خمسة ملايين (٤،٠٩ م أخر احصاء) القراء منهم (غير الاميين) ٣١٠٣٪ ولا تسعفنا الاحصائيات لمعرفة مستوى القارىء الفكري ومستواه المادي والاجتماعي حتى نستطيع ان نقدر عدد الذين يستطيعون ان يكونوا زبناء لسوق الكتاب التونسي (مع الاعتذار لاستعمال هذا الوصف) . ولو قدر لنا ان نعرف هذه المستويات لخرجنا بنتيجة حتمية هي ان قارىء الكتاب محدود جداً سواء بحثنا عنه بين المستويات الفكرية او بين المستويات الاقتصادية والاجتماعية . والنتيجة ان الكتاب التونسي المطبوع في تونس ليس له من الزبناء إلا عدد محدود جداً .

ويمثل هذه النتيجة (مع فارق نسبة الامية) تخرج من عملية مماثلة عن الجزائر (وسكانها لايتعدون أربعة عشر مليونا والقراء - غير الاميين - فيها لايتعدون ١٩٪) وعن المغرب (وسكانه لايتجاوزون ستة عشر مليونا والقراء - غير الاميين - فيه لايتجاوزون ١١٪) .

هناك اذن نضوب في سوق الكتاب بالمغرب العربي ناتجة عن قلة القراء ، فكيف يعامل الكتاب مع هذه النسبة المزرية من القراء معاملة البضاعة المحلية ، فلا تتبادل هذه الاقطار الكتاب الا في حدود ضيقة ، ولا يكاد يُقرأ كاتب جزائري أو مغربي أو تونسي في غير قطره - أو قُل اقليمه - الا على قلة .

هذه الاقليمية الضيقة - وهي اقليمية نجدها في الوطن العربي جميعه - لها مظهر اقتصادي ومظهر فكري .

المظهر الاقتصادي يتجلى في معاملة الكتاب كأي بضاعة تجارية يخضع لقيود التصدير والاستيراد والدفع ، ويتحكم فيه المسؤولون عن التجارة الخارجية وعن العملة الاجنبية كما تتحكم فيه السوق بكل حسناتها ومساوئها . وبذلك يحاصر الكتاب في اقليمه الضيق وفي الظروف غير المواتية التي شرحنا .

أما المظهر الفكري فهو الشعور الذي يترسب من الاقليمية الضيقة في نفوس القارئين نتيجة لضآلة ما يصلهم من كتب الأقاليم الاخرى ونتيجة لتحكم القطرية والاقليمية على حساب الوحدة والقومية ، وبذلك لايكاد يقرأ القارىء إلا الكاتب من قطره .

وهذه محاصرة اخرى للكتاب العربي .

من الاقليمية الضيقة في المغرب العربي الى الاقليمية الضيقة في الوطن العربي . مازلنا نسمع - رغم ربع قرن من دعوى الجامعة العربية والوحدة العربية - عن الكتاب المصري والكتاب اللبناني والكتاب السوري او المغربي . هذا الاسم أو الوصف يترجم حقيقة واقعية خطيرة ، وهي ان الكتاب اقليمه الخاص به فلا يطبع في مصر مثلا - وهي السباقة في ميدان الطباعة والنشر والتوزيع - الا كتب المؤلفين المصريين ، ولا يطبع في المغرب ولا يطبع في سورية أو تونس إلا كتب المؤلفين الاقليميين . نستثني من ذلك لبنان التي بدأت تحطم هذه القيود بنشاطها الطيب في ميدان النشر والتوزيع ، ولو أنه لايكاد يشمل المغرب العربي برعايته نتيجة عقدة تجارية اخرى هي عقدة المؤلف المشهور . ونتيجة للقيود النقدية وقيود التجارة الخارجية لايكاد يجد القارىء في السوق الا الكتب المحلية ، ونتيجة للجهل بالمثقفين والادباء والكتاب خارج القطر لايكاد يقرأ الكتاب إلا في حيه .

ومن أجل ذلك لايصل الكتاب المغربي الى أي قطر من أقطار العربية .

وهذه محاصرة اخرى تكاد تكتم انفاس الكتاب في المغرب العربي .

مشكلة النشر والتوزيع تكون جانباً مها من ازمة الكتاب . لم يصبح النشر بعد عملية تجارية نافقة في المغرب العربي . لم تتكون حتى الآن دار للنشر في المغرب ، وباستثناء « دار الكتاب » و « دار الفكر المغربي » اللتين نشرتا كتباً محدودة لاتستعصي على العد ، وباستثناء الكتب المدرسية التي تجد لها سوقاً رابحة وناشرين كثيرين فان النشر في المغرب يكاد يكون منعدماً . يقدم بعض الكتاب على نشر مؤلفاتهم ، ولكن صلتهم بالنشر تنتهي عند التجربة الاولى .

وفي الجزائر لايكاد الامر يختلف ، وقد أسست الحكومة اخيراً داراً للنشر — او هي أممتها — ولم تنشر حتى الآن الا بعض الكتب بالفرنسية .

وفي تونس أسست الحكومة الدار التونسية للنشر التي تبذل جهوداً مشكورة في نشر الانتاج التونسي وكتب التراث ، ولكن عملها ما يزال في حدود ضيقة لان ممكناتها المادية محدودة، وعملها كقطاع عام يعوق المبادرات الفردية ، لأن المؤلفين يعتمدون عليها ولو انتظروا دورهم في النشر شهوراً وسنوات. ولم تنشأ بجانبها حتى الآن دار خاصة للنشر تتحرر مما قد يكون في القطاع العام من قيود وبطء ناتج عن روتينية الادارة وبيروقراطيتها . ومع ذلك فان الدار التونسية خطت بالكتاب التونسي خطوة مهمة الى الامام لم يخطها الكتاب في المغرب أو الجزائر .

ومشكلة النشر مرتبطة حتماً بمشكلة التوزيع . وهذه مرتبطة بالقيود التجارية والنقدية . ولكن القيد الثقيل هو ان توزيع الكتاب قطرياً في المغرب العربي مايزال يخضع للتجارة البدائية . لايبحث الكتاب عن قارىء بمقدار ماينتظر قارئاً يبحث عنه . ومن أجل ذلك لاتبذل المكتبات الا جهد التاجر العادي فتضع الكتب على الرفوف في انتظار الزبناء . والمغامر الذي يطبع كتابا من كتبه عليه ان يطوف الاسواق في كل مدينة يبحث فيها عن مكتبة يرجوها ان تستضيف نسخاً من كتابه على ذمة البيع ..

كانت توجد في أقطار المغرب الثلاثة مؤسسات محلية لتوزيع الصحف والمجلات والكتب (الفرنسية والتي تطبع في فرنسا طبعاً) تابعة لمؤسسة « هاشيت » الفرنسية وقد ظلت تحتكر استيراد الكتاب الفرنسي وتوزيعه حتى استعاضت عنها تونس بمؤسسة للتوزيع تابعة للدولة تحتكر الأدوات القرطاسية والمدرسية الى جانب الصحف والكتب . ولكنها اذا كانت قد نجحت في

القرطاسيات والصحف لان أرباحها مضمونة فقد فشلت في الكتاب ، والكتاب العربي بخاصة ، لانه في حاجة الى مجهود أكبر ، وأرباحه غير مضمونة .

وأممت الجزائر حديثاً هذه المؤسسة ،وهي تحتكر توزيع الكتاب ، ولكن جهودها لم تثمر حتى الآن .

أما في المغرب، فقد « مغربت» الحكومة المؤسسة الفرنسية لان التأميم لايدخل في حساب النظم الليبرالية ، وتشارك الحكومة في رأسمالها الى جانب بعض الخواص (من نوع خاص) ولكن طابعها لم يتغير ، فهي توزع الصحف والكتب الفرنسية ، اما الكتب العربية سواء طبعت في المغرب او الخارج فهي لاتوزعها الا في حدود ضيقة وباهمال كبير. بالاضافة الى انها تقتضي عمولةمرتفعة.

وهكذا يمر الكتاب بأزمة اخرى من ازمات الاختناق ، وهي من اخطر الازمات التي تضع الكتاب ، الذي ينفذ من كل مشاكله، في عنق الزجاجة فلا يصل الى يد القارىء منه إلا من تخطى عقبة التوزيع .

وقليل من الكتب من يتخطاها .

كل تلك المشاكل تجعل المطبوع من الكتاب الذي ينفذ من كل هذه المراقيل لا يكاد يصل ثلاثة آلاف نسخة ولا يعدو طبعة واحدة . وقليلة هي الكتب التي أعيد طبعها . ثلاثة آلاف نسخة من كتاب كتب بلغة يتكلمها مائة وعشرون مليوناً من البشر . هذه الحقيقة تعتبر إدانة خطيرة للثقافة العربية وللوطن العربي ، خاصة اذا عرفنا أن الكتاب الفرنسي أو الانكليزي مثلاً لا يعتمد أساساً على قرائه من الفرنسيين أو الانكليز بقدر ما يعتمد على القارئين بالفرنسية او الانجليزية في مختلف انحاء العالم، ولا يكاد يصدر في باريس او لندن او نيويورك حتى تصل نسخه الى نيودلهي او كرانشي او استراليا أو جنوب افريقياوالى هانوي أو كوناكري ، أو دكار أو الرباط أو كندا .

انها حقيقة تدين الفكر العربي حقاً ، ولكنها قبل ذلك تدين الحكومات العربية التي ما تزال تخرج الكتاب من نطاق مسؤولياتها فلاتبحث مشاكله ولاتحل أزماته ان لم تكن تزيد في تعقيد هذه الأزمات وفي مضاعفة المشاكل ،

والكتاب الذي يتخبط في كل هذه الأزمات ، وفي الأزمة التي هي خلاصتها جميعاً : قلة القراء ، يواجه الازمة — النتيجة ، أعني غلاء الطباعة . فان كتاباً يطبع منه الفان او ثلاثة يكلف أضعاف ما يكلف كتاب تطبع منه عشرات الآلاف ، وبذلك يرتفع سعر انتاجه واستهلاكه على السواء . يضاف الى ذلك غلاء الورق والطباعة في المغرب العربي بما لا يقل عن

ضعف سعرهما في لبنان مثلا . ومستوى معيشة الطبقة القارئة في هذه البلاد لا يتحمل هذا السعر مع أرباح الناشرين والموزعين .

لم نشر فيما تحدثنا عنه حتى الآن الى أرباح الكاتبين . واعتقد أن القارىء يدرك من حديثنا هذا أن الكاتب بالعربية في المغرب العربي لا يكاد يفكر في اي تعويض عن انتاجه، ان لم يكن الكثيرون قد أصيبوا بخسارات مادية ضخمة نتيجة شجاعتهم في طبع كتبهم على نفقتهم ، وليس من مصلحة الكتاب في شيء الا يحصل الكاتب على اي تعويض مادي عن عمل يستغرق اعداده شهوراً وربما سنوات .

ويزيد الغبن وضوحاً ان الحكومات في هذه البلاد لا تعنى بتشجيع الكتاب ، فلا تقتني وزارات الثقافة او ما يعادلها من المصالح الحكومية أية كمية من الكتب المطبوعة ولو على نفقة مؤلفها . وقد سن اتحاد كتاب المغرب سنة طيبة هي أن يقتني كمية محدودة من ست كتب يختارها كل سنة من الكتب التي تطبع على نفقة مؤلفها كمساهمة منه في توزيع الكتاب وفي نفقاته .

ذلك عن واقع الكتاب .

أما عن المستقبل فليس في امكاننا أن نرسم صورة واضحة عنه الا من خلال الصورة التي يمكن أن نأخذها من مستقبل التعليم ، ومستقبل المستوى الاقتصادي والاجتماعي لكل قطر ، ومستقبل الحرية في هذه البلاد جميعها ، ثم — وهذا في الدرجة الاولى — مستقبل العلاقات بين مشرق الوطن العربي ومغربه وتحطيم الحواجز الاقتصادية والتجارية والنقدية وحواجز النقل وغلاء البريد بين الاقطار العربية جميعها .

نحن نؤمن بالمستقبل ، لأن الشعوب التي ركدت طويلا تحت تأثير التخلف والاستعمار قد أخذت ترفع رأسها وتنهض من كبوتها . وقد دأبت الحركات الوطنية على العمل لتعريب التعليم حتى تصبح العربية لغة الفكر فتخرج الكاتب والقارىء العربي من عقدتها . واذا كانت قد انتصرت في الجزائر فقررت الحكومة تعريب التعليم تدريجياً في هذه البلاد فما تزال تصطدم بالافكار الرجعية في كل من المغرب وتونس التي تؤمن بأن لغة التلقين في المواد العلمية يجب أن تظل الفرنسية . ولكن فكرة التعريب تنتصر ، واعتقد أن التجربة الجزائرية ستعجل بالانتصار في المغرب وتونس .

والافواج الزاحفة من شباب هذه البلاد ستدعو الى تعميم التعليم ، لأن الشباب أخذ المبادرة فأخذ يطرق ابواب مصيره بأيد قوية . ولن يترك هذا المصير تعبث به مصالح العابثين .

واذا ما انتصرت فكرة الشعب العربي في تحطيم الحواجز بين هذه الاقطار المغربية وبينها وبين الاقطار العربية الاخرى فسيتجول الكاتب العربي بلا جواز ، لايتعثر في حدود ولا تقف في وجهه حواجز التجارة والنقد ، ولا رقابة الحاكمين هنا وهناك . عند ذلك سيزدهر الكتاب كتابة وقراءة ، لا في هذه الديار فحسب ، ولكن في كل دار من ديار العرب .

ومع ذلك فلن يزدهر الكتاب الا بتنظيم سوقه عن طريق التوزيع المشترك ودور النشر العربية التي تتخلص من فكرة الاقليمية الضيقة فلا تنشر الكتاب لانه ينتمي لقطر معين ، ثم هي ترجو أن تقرأ منشوراتها في الاقطار العربية جميعها .

أكون صادقاً اذا قلت ان الخطوة يجب أن تأتي من أقطار المشرق العربي فعندها من التجربة والممارسة ما يجعل القدوة تأتي منها .

وما نزال نأمل في تؤسس دار قومية للنشر على مستوى الوطن العربي لا على مستوى القطر الواحد ، تساهم فيها كل الاقطار ، وتكون لها فروع في مختلف الأقطار ، تدرس موضوع التوزيع والنشر والتعريف بالكتاب دراسة علمية لا على اساس تجاري فحسب ، ولكن كذلك على اساس ثقافي تستهدف صالح الكتاب الى جانب مصالح الارباح .

ليس المهم هو تفاصيل هذا الاقتراح ، فالتفاصيل تدرس في حينها ، ولكن المهم هو الاساس الذي يقوم عليه تعاون وثيق بين مختلف اقطار الوطن العربي لانقاذ الكتاب من ازمته الخانقة وبالتالي انقاذ الثقافة العربية من التخلف الذي يدعمه تخلف الكتاب العربي .

هل تقوم بهذه الخطوة الحكومات او المثقفون انفسهم ؟

لا مجال لغير التعاون القائم على الثقة بين الطرفين لصالح الكتاب وصالح الفكر العربي .

عسى أن تكون السنة الدولية للكتاب باعثاً للمثقفين العرب على ان يضعوا اللبنة الاولى في طريق هذا التعاون . وعسى أن ينتهي المثقفون الى اتجاه عملي يصادق عليه مؤتمر الأدباء العرب الذي سينعقد في بداية السنة القادمة في تونس .

الرباط (المغرب)

الكتاب الجامعي

دراسة أعدّها الأساتذة :

أحمد القادري : مدير الدراسات التربوية العامة بوزارة التعليم العالي
شحادة الخوري : مدير الترجمة والنشر بوزارة التعليم العالي
ناظم كالاس : مدير الكتب والمطبوعات بجامعة دمشق

الحديث عن الكتاب مفيد وممتع في كل آن ، ذلك أن الكتاب وعاء المعرفة ووسيلة العلم وأداة التثقف ، يحمل ثمرات القرائح ونتاج العقول عبر المكان والزمان . من جيل الى جيل ، ومن بلد الى آخر ، يصقل النفوس ويغني الأفهام ، وينير البصائر يكشف ما كان خافياً ، ويذلل ما كان عسيراً ، ويصل الناس ببعضهم مهما تباعد الزمن ونأت الدار فيلتقون خير لقاء ويحققون مايصبون اليه من أمنية ورجاء .

ولعل هذا الحديث يكون أكثر إمتاعاً وفائدة خلال هذه السنة الجارية التي أسمتها منظمة اليونسكو « السنة الدولية للكتاب » رغبة منها في لفت الانظار ، في العالم بأسره، الى أهمية الكتاب ودوره في إغناء العقول ورفد المجتمعات البشرية بعوامل التطور والرقي والنماء .

والحديث عن الكتاب فسيح الأرجاء متشعب الأنحاء يستطيع الدارس أن يتناول موضوعه جملة أو أن يعالجه من زاوية معينة : الكتاب والطفل ، الكتاب والمدرسة ، الكتاب والثقافة ، وكيف نقرأ الكتاب ، وكيف نصنعه مادة وشكلاً ونعالجه انتاجاً واستهلاكاً ... كل هذه وغيرها كثير موضوعات يصح بحثها ، في كل وقت ، وعلى الأخص خلال هذه السنة .

ولكننا أحببنا أن نفرد هذه الدراسة للكتاب الجامعي . أداة التعليم والتعلم معاً في مرحلة من عمر الفتى أو الفتاة هي أهم مراحل العمر في كسب المعرفة والإعداد للحياة . وقصدنا أن تكون هذه الدراسة جامعة تتناول قضية الكتاب الجامعي من نواح متعددة نواحي الثقافة والتشريع والتطبيق ، وبذلك كيا تكون متكاملة ومفيدة قدر الطاقة . ولقد قلنا دراسة ولم نقل بحثاً ، لأن الدراسة أكثر شمولاً من البحث . فاذا كان البحث في مجال التربية يعتمد المنطق الاستقرائي ويستند في معطياته الى البيانات والتحقيقات والاحصاءات، فان الدراسة الى جانب استنادها الى هذه الأمور تعتمد التفكير التأملي الذي يفيد من مختلف الملاحظات والتجارب العملية ويستهدف حل مشكلة أو مشكلات عدة . ولعل هذه الدراسة التي ستلم بالجانب التقاني التربوي في الكتاب الجامعي ثم تدرس واقعه . في جامعاتنا في المرحلتين: مرحلة ماقبل التأميم ومرحلة التأميم، ستوضح قضية الكتاب الجامعي ايضاحاً كافياً وتنير الطريق بالتالي أمام التشريعات التي قد تصدر في المستقبل لسد الثغرات القائمة والنهوض بالكتاب الجامعي الى المستوى المطلوب .

ومما يزيد موضوع الكتاب أهمية أن طريقة كسب المعرفة في المرحلة الجامعية تتجه أكثر فأكثر الى الأخذ بطريقة التعلم بدلاً من طريقة التعليم . والتعليم هو : نقل المعرفة المباشر من المعلم الى المتعلم ، وبذلك يكون المتعلم منفعلاً آخذاً معتمداً على ذاكرته في استيعاب وحفظ مايلقى عليه أو يقدم اليه ، في حين أن التعلم هو التحصيل الشخصي بطريقة البحث والتحليل والمقارنة ، وبذلك يكون المتعلم في موقف ايجابي فعّال يسعى لقنص مايحتاج اليه من بطون الكتب معتمداً على تفكير ناشط وذهن متوقد سواء تفرد بالتعلم أو تلقى

مساعدة ما من المدرسين . فاذا توفر الطالب الجامعي الكتاب الجيد مادة واتساعاً فإن ذلك يساعده على سلوك طريق التعلم . ومما يزيده اهمية ايضاً توسع ميادين العلم وتشعب فروعه وتزايد أعداد الطلاب تزايداً ملحوظاً في كل سنة .

وسنتناول مشكلات الكتاب الجامعي من الناحية الثقافية وننتقل بعدها الى الناحيتين التشريعية والتطبيقية .

آ ــ نوعية الكتاب الجامعي :

نقصد بنوعية الكتاب ناحية الإجمال والتفصيل فيه وكيفية معالجة مادته العلمية : ايجازاً او توسعاً . ومن هذه الزاوية يمكننا أن نجد ثلاثة انواع من الكتب :

١ ــ الكتاب الوجيز . ٢ ــ الكتاب الوسيط . ٣ ــ الكتاب الموسع .

ونقصد بالكتاب الوجيز ذلك الكتاب الذي يشتمل على معلومات اساسية مكثفة في علم من العلوم ، دون شرح وافاضة في التفاصيل . وهذا النوع من الكتب مايزال شائعاً ومعتمداً في كثير من الجامعات في العالم ، وإن كانت بعض النظم التربوية لاتقره الى وجانبه عادة كتب موسعة في موضوعه ، يرجع اليها الطلاب للاستفادة من المعلومات والتوسع في المعرفة .

والكتاب الوسيط هو الكتاب الذي لا يكتفي بخلاصة مركزة في علم ما ، بل يتضمن بعض التفصيلات ويتطرق الى الاسس التي تقوم عليها النظريات والى منشئها وعلاقة كل بحث بالأبحاث الأخرى لبيان الترابط بين أجزاء العالم الواحد .

وأما الكتاب الموسع فهو ذلك الكتاب الجامع لتفاصيل العلم مع إسهاب في الشرح وربط النظر بالعمل والجزء بالكل ، والإلمام بالعلم الذي يشتمل عليه منذ نشأته حتى تاريخ طبعه .

وبعد فأين يقع كتابنا الجامعي من هذه الأنواع الثلاثة ؟

ليس من السهل إصدار حكم عام شامل على كتبنا الجامعية من هذه الزاوية في مختلف المواد ، إلا أننا نعتقد أن القسم الأكبر منها هو من النوع الوسيط الذي يشتمل على معلومات مفصلة دون ان يصل مستوى الكتب الموسعة . وفي اعتقادنا أن مثل هذه الأنواع من الكتب الجامعية ملائم للتعليم الجامعي في بلادنا في الوقت الحاضر وسيبقى

ملائماً للمستقبل القريب مادام التعليم لدينا لم يتحول من تعليم مباشر الى تعلم ، ولم تهيأ الأسباب اللازمة لتعويد الطالب طرق الكشف والتطبيق والبحث بمقدار كاف ، وما دام هذا الطالب لا يتقن إحدى اللغات الأجنبية إتقاناً يمكنه في العودة الى المراجع الموسعة باحدى هذه اللغات ليحصل منها على ما ينقصه أو يستجلي ما غمض عليه .

ب — الكتاب الجامعي والتوسع العلمي :

اتسع العلم في السنوات الأخيرة وتشعب ، بسرعة مذهلة ، وكان لهذا الاتساع والتشعب آثار وانعكاسات مهمة على الكتاب الجامعي . وبغية اعطاء مثال على اتساع العلم ، نلقي نظرة على علم الكيمياء :

في سنة ١٧٣٢ أصدر العالم الهولندي بورهاف كتابه « المرجع في الكيمياء »وقد اشتمل في (١٤٣٣) صفحة على كل ما كان يعرفه العلم في الكيمياء حتى ذلك الوقت. وفي سنة (١٨٢٥) أصدر العالم السويدي بغراريلوس مرجعاً مشابهاً في مدينة درسدن فاذا بهذا المرجع الذي يضم معلومات تلك الحقبة عبارة عن (٨) مجلدات تقع في(٤١٥٠) صفحة ، أما في وقتنا الحاضر فان المعلومات الكيميائية قد نشرت في مراجع ضخمة بلغ عدد صفحاتها مئات الألوف من الصفحات .

إن هذا التوسع في المعارف الانسانية لا بد أن ينعكس على المناهج والكتب الجامعية ، وهذا يستدعي أن تلحق هذه المناهج والكتب بالتطورات الجارية والا بقيت هذه المناهج والكتب متخلفة مقصرة عن استيعاب الحقائق العلمية المستجدة .

فكيف نعالج هذه الواقعة التي تطالعنا في جميع العلوم ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة بين علم واخر ؟.

ان تحديث الكتاب الجامعي ضرورة ملحة . ولكن كيف يجب أن يتم ذلك ؟ هل يعدل أو يطبع كل سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات؟ اذا صح ان يستعمل الكتاب الجامعي ثلاث سنوات متتالية مع ملاحظات يبديها مدرس المادة عند اللزوم ويمليها على الطلاب تتمم ما ينقص الكتاب من معلومات جديدة ، فانه لا بد ولا مفر من اعادة طبعه في السنة الرابعة بعد مراجعة مادته العلمية في ضوء ما استجد من ابحاث ودراسات . وهناك وسيلة ثانية الى جانب قيام مدرس المادة باعطاء ملاحظاته حول الأمور المستجدة في العلم ، هي ارشاد الطالب الى المراجع العلمية الأجنبية من كتب أو مجلات حديثة .

ولكن هذا الاجراء يتطلب معرفة الطالب لغة أجنبية معرفـة تمكنه من فهم الابحاث العلمية بهذه اللغة فهماً صحيحاً ، وقلة هم طلابنا الذين في مقدورهم ذلك .

حـ – الانتقال من التعليم الى التعلم في الجامعة :

ان الكتاب وسيلة نقل المعرفة وتداولها . ولكن ما مهمة الكتاب ؟ وهل هو حامل المعرفة ام المرشد اليها ؟ ان التعليم التقليدي يجعل من الكتاب وعاء العلم والتعلم يتم بحفظ ما يشتمل عليه والكتاب في هذه الحال يخاطب الذاكرة اكثر ممـا يخاطب العقل ويوحي بالتقليد والاتباع اكثر مما يوحي بالتجديد والابتكار . ولكن التعليم الحديث يتجه الى جعل الكتاب الطريق الى العلم والمعرفة لا وعاء للعلم . ان كتاب التاريخ يجب ألا ينقـل الى القارىء معلومات ووقائع تاريخيـة فحسب بل ان يثير في الطالب الرغبـة في البحث التاريخي ويدله على طريقة البحث ومراجعه .

إن الهدف من الكتاب يؤثر في اسلوبه ، فبقدر ما يعنى الكتـــاب بأسلوب انشاء المعرفة وبتكوين الفكر العلمي والحس النقدي ، وبقدر ما يدل على المراجع ويبين اهمية كل مرجع وميزته وبقدر مايعرض من مسائل وتطبيقات وتدريبات على اصول البحث ، يقترب من كونه كتاب تعلم لا كتاب تعليم ، كتاباً حديثاً في هدفه واسلوبه لا كتاباً تقليدياً .

د – الكتاب الجامعي واللغة العربية :

كانت إحدى ركائز التعليم العالي منذ نشأته في القطر العربي السوري استخدام اللغة العربية أداة تعبير وتأليف ، سواء أكان ذلك في ميدان العلوم الانسانية أم في مجال العلوم الاساسية والمحضة ، وكان استعمال اللغة العربية في تأليف كتب الطب ثم الهندسة فالعلوم اكبر انجاز ثقافي قامت به الجامعة السورية . إنها محاولة ناجحة لاستيعاب الفكر والثقافة الغربيين في هذا العصر ، مثلما استوعبت هذه اللغة الفكر والثقافة لدى الاغريق والفرس والسريان والقبط بعد الفتوح الاسلامية . وعلى الرغم من بعض مظاهر التردد التي بدت فترة بعد اخرى ، مايزال التدريس بالعربية سائداً بل قد أثبت بما لايقبل الشك أن لغتنا بما تتصف به من الخصائص التي تدل على المرونة والخصوبة قادرة على أن تبقى حية بل أن تخلو خلود الدهر . وفي هذا المجال نذكر أن الدولة العثمانية عندما عزمت على ترجمة كتب الطب الى اللغة التركية لم تتمكن من وضع مصطلحات بهذه اللغة فوضعتها باللغة العربية مفيدة من تجربتي قصر العيني في مصر والجامعة الامريكية في بيروت اللذين سبقا الى

وضع كتب طبية باللغة العربيـــة . وعندما أراد الأطباء العرب في سورية وضع كتب طبية باللغة العربية استعانوا بما وجدوه في كتب الطب التركية من مصطلحات علمية باللغة العربية . وهكذا بدأت حركة نقل المفاهيم والمدلولات من اللغات الاجنبيـــة الى اللغة العربية في الطب أولاً ، ثم اتسعت الدائرة حتى شملت العلوم الاخرى .

إن تأليف الكتب العلمية باللغة العربية امر خطير من شأنه أن يبعث اللغة من جمودها ويبث فيها النشاط والحركة ويدفعها الى صف اللغات الحية في هـــذا العصر ، كما أن من شأنه ألا يبقي العلم حكراً للقلة التي تتقن اللغات الاجنبية بل يجعله ميسوراً لابناء الشعب كافة ، ويساعد على تحقيق ديموقراطية التعليم .

ولقد دلت الأبحاث النفسية التربوية على ان العلم يكون أرسخ في الأذهان عندما يدرس باللغة الأم ، وأن القدرة على المحاكمة العقلية والتذكر تكون اقوى عندما تتم باللغة التي تعلمها الطالب في اسرته منذ نعومة أظفاره .

وانطلاقاً من المبدأ الذي اختطه قطرنا العربي السوري في سعيه لتعريب العلم ، قامت كوبا في السنوات الاخيرة بترجمة الكتب المراجع ولا سيما في مجال العلوم الى اللغة الاسبانية باذلة من أجل ذلك اموالا باهظة كانت بأمس الحاجة اليها ، عاملة على فك الحصار الثقافي مثلما تعمل على فك الحصار الاقتصادي وذلك كيا تظفر بالتحرر الكامل .

ان تجربة سورية العربية في هذا الميدان قمينة بأن ترسخ وتدعم ، وبأن تعم الاقطار العربية كافة .

هـ — الكتاب الجامعي والمراجع :

اذا كان الكتاب الجامعي الذي يقدم المعارف الاساسية ينبغي له أن يكون باللغـة العربية ، فذلك لايغني عن المراجع المكتوبة باللغة الأجنبية. ان جهداً يجب ان يبذل لنقل الكتب الموسعة التي تصلح مراجع من اللغات الاجنبية الى اللغة العربيـــة . ولكن توسع الاختصاصي في ميدان علمه لايمكن توفيره عن طريق الترجمة وحدها لأن أبحاث العلم ومكتشفاته تتلاحق يوماً بعد يوم وليس في طاقة حركة الترجمة مها بذل من أجلها أن ترفد القارىء العربي بكل ما تقدمه المراكز العلمية في العالم من أبحاث ودراسات ومؤلفات .

ولذلك لابد للمتعلم العربي من أن يتقن لغة اجنبية تكون وسيلته للاطلاع على كل جديد سواء أكان مقيماً في بلده أم في دراسة علمية او اطلاعية في الخارج .

وليست هذه حالنا نحن العرب وشعوب آسية وافريقية بل هي حال الشعوب المتقدمة علمياً . فان الدراسات العليا في فرنسا مثلا تتطلب من دارس العلوم معرفة لغة اجنبية أخرى ليتمكن من قراءة المراجع المتقدمة بهذه اللغة .

واذا كانت اللغة الأجنبية ضرورة في هذا العصر لملاحقة الجديد في الأبحاث العلمية فلا ينفي ذلك ضرورة نقل الكتب المراجع من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية .

وقد خطت وزارة التعليم العالي خطوات في هذا المضمار بترجمة مجموعة جيدة من المراجع في الكيمياء والكيمياء الفيزيائية والرياضيات والفيزياء والهندسة .. وفي ذلك تيسير المعرفة للطالب الجامعي والمتخرج والمدرس ولكل راغب في التعلم .

ويوم تعتمد جميع الجامعات في الوطن العربي اللغة العربية لغة تدرس يكون ذلك عنوان الاستقلال الثقافي ، وعندها ستكثر الكتب الموسعة المؤلفة والمترجمة بهذه اللغة لمساهمة جميع الأقطار العربية في هذا العمل . هذه خطوات يجب أن تتم وستتم حتماً في أحد الأيام المقبلة ولكن ذلك كله لايعفي كل عالم أو مثقف من معرفة احدى اللغات الأجنبية الحية .

و – الكتاب الجامعي والمناهج التدريسية :

ان العلاقة وثيقة بين الكتاب الجامعي والمناهج التدريسية اذ أن المنهاج يجد تفصيله في الكتاب ويأخذ أبعاده العلمية والتربوية فيه ولكن مامدى التوافق بين الكتب والمناهج في جامعاتنا ؟ ليست المناهج مفصلة الى حد تقييد المؤلف بل هي خطوط عريضة موجهة وتمكن المدرس في اختصاصه وتعمقه في مادته نظرياً وعملياً يؤثر تأثيراً ايجابياً في صنع الكتاب مضموناً وأسلوباً .

وكثيراً مايكون المؤلف متأثراً بالكتاب الذي تعلم فيه أثناء دراسته أو تخصصه وبالموضوع الذي عالجه في الاطروحة التي أعدها لنيل الشهادة .

صحيح أن حرية التعليم الجامعي تترك للمدرس المؤلف فسحة من الاختيار والتصرف في تأليف الكتاب الملائم للمادة الدراسية المكلف بها ولكن من الضرورة بمكان أن يكون ثمة توافق بين الكتاب والمنهاج في نطاق معين .

اننا نعتقد أن التوافق بين الكتاب والمنهاج في جامعاتنا متفاوت بين كتاب

وآخر . وقد يكون هذا التوافق في كتب العلوم الإنسانية أقل منه في كتب العلوم الأخرى ، وقد يختلف مداه بين كتاب وآخر في الفرع نفسه ، انما ننصح باعداد دراسة حول هذه النقطة تكون منطلقاً لوضع أسس ومعايير ترشد الى ايجاد توافق مقبول بين المنهاج والكتاب .

هذا ونشير الى اهتمام برز في المؤلفات الجامعية الحديثة ولا سيما في كتب الفلسفة والأدب والتربية وهو عدم الاكتفاء بالتحدث عن الفلاسفة والأدباء والمربين وشرح أفكارهم بل ايراد بعض النصوص التي كتبوها كما تكون هذه النصوص ناطقة بذاتها بما يراد شرحه والتحدث عنه .

ان كتابنا الجامعي يجب ان يغتني بتجارب الكتب في الجامعات الاجنبية المتقدمة ويقبس منها كل مفيد كما يكون قادراً على تلبية حاجة الانسان العربي في هذا العصر .

ز — الكتاب الجامعي والامتحان :

في نظام تعليمي قائم على نقل المعرفة وبالتالي تذكرها أكثر من قيامه على التدريب الفكري والعملي في بناء المعرفة ، يكون الكتاب بالشكل الذي هو عليه الآن هو السائد . أما عندما يصبح التعليم هادفاً الى تكوين التفكير في المادة ، فان الكتاب يأخذ عندئذ الشكل الذي نراه في محاورات افلاطون وفي كثير من كتب التربية حيث تصبح مادة الكتاب مادة حوار بين المؤلف والقارىء .

وما دامت المرحلة الجامعية الحالية لم تحقق أهداف التربية كلها ، فان الكتاب سيبقى محتفظاً بهذا الشكل التقليدي . ولكن عندما تتوضح أهداف الامتحان ويصبح المدرس قادراً على معرفة مايريد أن يقيسه عند الطالب والانتقال من قياس التذكر الى قياس القدرات والمهارات ، فانه لابد للكتاب الجامعي من أن يتطور في هذا الاتجاه . ان الكتاب بشكله الحالي الذي يخاطب الذاكرة ويقود الامتحان في هذا الاتجاه ، اتجاه الحفظ ، لايعطي المردود المنتظر من حيث اتاحة الفرصة لتفتح العقل وخلق متعلمين قادرين على البحث وبناء المعرفة .

ان تطور التعليم الجامعي من شكله الحالي القائم على عرض المعرفة الى الشكل

القائم على منطقية المعرفة ، لابد أن يطور الكتاب الجامعي ، وعندها لايتطور الكتاب وحده بل تتطور معه أساليب الامتحان وطرق التقويم .

وننتقل الى الناحية التشريعية من البحث ، وفي هذا المجال نستطيع أن نميز بين فترتين مختلفتين في حياة الكتاب في جامعاتنا أولاهما فترة ما قبل التأميم والثانية فترة ما بعد التأميم .

الفترة الأولى بدأت مع بداية نشوء التعليم العالي في قطرنا والشروع بوضع كتب بين أيدي الطلاب واستمرت حتى صدور المرسوم التشريعي رقم / ١٦٨ / تاريخ ٢١/ ٩ / ١٩٦٣ . وبهذه المناسبة لا يسعنا الا أن نذكر بالإكبار والاعجاب وبالثناء والتقدير جهود هؤلاء الرواد الأوائل الذين مهدوا للتعليم العالي والتأليف له في فترة الحكم الفيصلي القصير والمضطرب ، ثم في عهد الانتداب الفرنسي البغيض . وعلى الرغم من الصعوبات التي اعترضت سبيلهم والمشاق التي كان عليهم أن يتحملوها ، وقلة الوسائل المساعدة والامكانات المتاحة ، أرسوا التعليم الجامعي على أسس متينة وتركوا مؤلفات محينة بالمديح والاطراء ، يتبدى فيها الجهد والنصب ، وإعمال الفكر وإجهاد النفس .

وحسبهم أنهم علموا وكتبوا شتى العلوم والمعارف باللغة العربية الفصحى، وتصدوا لعملية التعريب الشاقة ، في وقت أحجم فيهم أمثالهم في الأقطار العربية الأخرى عن مثل هذه المهمة . وعلى الأساس الذي أرسوه ارتفع البناء شامخاً ، وتتالت المؤلفات بعدهم وسارت القافلة في نجاح ، ولكن أسماء هؤلاء الرواد ظلت منارات هادية في الطريق الطويل الشاق .

وبعد أن اتسعت الجامعة في دمشق وتعددت كلياتها وأقسامها وتزايدت أعداد الطلاب فيها ، وقامت جامعة حلب ، كان لا بد من أن يواجه التعليم العالي مشكلات جمة ناجمة عن البون الذي يفصل بين الشكل الذي يتصوره الطامحون الى الأفضل والراغبون في الأكمل والشكل الذي تفرضه الامكانات المتاحة، المادية والمعنوية . ومن هذه المشكلات التي عرضت مشكلة الكتاب الجامعي .

ان الكتاب الجامعي كان في هذه الفترة متروكاً أمره الى أعضاء الهيئة التدريسية فالمدرس هو الذي يؤلف الكتاب ، وفق ما يراه ملائماً للمنهاج ، ويقوم بطباعته في مطبعة جامعة دمشق او في أية مطبعة أخرى ثم يبيعه الى الطلاب بالسعر الذي يقرره .

ان جهوداً صادقة قد بذلت في التأليف في هذه الحقبة ، وظهرت كتب جامعية قيمة الى جانب كتب قد لا تكون في المستوى المطلوب ، ولكن نجم عن ذلك ظهور تفاوت بين كتب كلية ما وكتب كلية أخرى من حيث توفرها او سعرها . فالكلية التي يكثر عدد طلابها كان المدرسون فيها يقبلون على تأليف الكتب ويجنون من مبيعها مبالغ طائلة في حين أن الكليات التي يقل عدد طلابها كانت تفتقر الى كتب حيناً وتعاني من ارتفاع سعر الكتاب حيناً آخر . ولم تكن ثمة ضابط لتوافق الكتاب مع المنهاج وتوافقه مع الحصص المخصصة لتدريس المادة ، كما لم يكن ثمة ما يضمن توفر الكتاب بين ايدي الطلاب في الوقت المناسب اذ قد تنجز طباعة الكتاب في الشهر الأخير من السنة الدراسية او يباع الكتاب فسائل خلال فترات زمنية متعاقبة وفي كل الحالات كان الكتاب يباع بسعر بأعلى مما يستحق ، مما كان يثقل كاهل الطلاب ولا سيما الفقراء منهم .

فالمشكلة اذن كانت تتناول توافر الكتاب وحجمه وسعره وتوقيت صدوره ، بالاضافة الى أنه كان ملتصقاً بصاحبه ، يستعمل ما دام مؤلفه مدرساً ، فان نقل او سافر أو ترك تدريس المادة لأي سبب كان ، اعتبر الكتاب لاغياً في انتظار أن يؤلف المدرس الجديد كتاباً جديداً .

ونتيجة ذلك ظهرت حاجة ملحة لتنظيم أمور الكتاب الجامعي بهدف توفيره للطلاب والعمل على تحسين مضمونه وبيعه بسعر مقبول ، ونفي الصفة التجارية عنه .

وفي سبيل ذلك صدر المرسوم التشريعي رقم / ١٦٨ / تاريخ ١٩٦٣/٩/٢١ متضمناً المبادىء التالية :

لا يجوز تدريس كتاب في كليات الجامعة ومعاهدها وبيعه للطلاب الا بناء على قرار من مجلس الجامعة مستند الى اقتراح من مجلس الكلية او المعهد ورأي القسم المختص . ويلزم كل من يقوم بالتدريس بتقديم آمال للطلاب أو تأليف كتب جامعية لم تكون المرجع الاساسي لدراستهم الى جانب المراجع العامة الأخرى ، باستثناء الكتب الأجنبية المقررة في مناهج التدريس — ولن يقوم بالتدريس الخيار بين الاكتفاء بالأمالي أو تأليف كتاب جامعي إلا أنه يجوز لمجلس الجامعة لمقتضيات المصلحة تكليف أعضاء الهيئة التدريسية بتأليف الكتب الجامعية وعدم الاكتفاء بالأمالي مراعياً الاختصاص فيمن يكلفهم وتحديد المهل الزمنية اللازمة للتأليف .

٢ — تطبع الأمالي والكتب الجامعية من قبل مديرية تنشأ في الجامعة وتدعى مديرية

الكتاب والمطبوعات وتباع للطلاب من قبلها بسعر التكلفة الذي يحدده مجلس الجامعة ، ويدخل في حساب تقدير الاسعار نسبة مئوية لتغطية أثمان الأمالي والكتب الموزعة على فقراء الطلاب بأسعار مخفضة او بالمجان .

٣ – يمنح مؤلف الكتاب الجامعي جائزة مالية لقاء حقوق التأليف والطبع تقدر بحسب الجهد وبحسب تكاليف التأليف والإعداد ، ويلزم المؤلفون بتصحيح مسودات مؤلفاتهم وأماليهم وتقوم بتقدير جوائز التأليف لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء ينتخبهم الوزير لمدة سنة قابلة للتجديد من بين اعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر والمكتبات الجامعية .

٤ – يقرر الكتاب الجامعي لمدة ثلاث سنوات مبدئياً ويجوز زيادة هذه المدة سنة بعد سنة بناء على اقتراح مجلس الكلية وموافقة مجلس الجامعة . وفي حال الاضطرار لتعديل بعض ابحاث الكتاب خلال فترة السنوات الثلاث يصدر التعديل بملاحق مطبوعة او أمال مكتوبة .

٥ – منحت كل من جامعة دمشق وحلب مبلغاً من المال يحدد في ميزانيتها كرأسمال دائم للكتب الجامعية على أن يفتح لذلك حساب خاص منفصل عن حسابات نفقات الادارة العامة . وتتألف وارداته من اثمان الكتب الجامعية والأمالي والاعانات الحكومية والبلدية والاهلية والهبات وتتألف نفقاته من جوائز التأليف وثمن الورق واجور الطبع والتغليف وتعويضات الموظفين وسائر النفقات المتعلقة بالكتب الجامعية .

٦ – لايجوز لأي كان بما فيه المؤلفون طبع كتاب من الكتب الجامعية المؤممة او نشره او بيعه او عرضه للبيع بصورة مخالفة لأحكام هذا المرسوم التشريعي ويعاقب المخالفون بعقوبات حددها المرسوم التشريعي .

وقد صدر تعديل واحد للمرسوم المذكور وذلك بالمرسوم التشريعي رقم / ٣٣١/ تاريخ ٢٣ / ١٢ / ١٩٦٩ :

تناول التعديل المادة / ١٤/ منه المتعلقة باهداء الكتب التي تصدرها الجامعة. فالنسبة التي يسمح لرئاسة الجامعة باهدائها الى المؤسسات العلمية والمكتبات العامة الحكومية والبلدية والمراكز الثقافية ، وإلى الحكومات والمؤسسات الثقافية العربية والأجنبية هي ٥ ٪ من مجموع النسخ المطبوعة من كل كتاب ، فأضيف الى ذلك انه يسمح لرئاسة الجامعة بعد مرور ثلاث سنوات على طباعة الكتاب أن تهدي عدداً آخر من النسخ على ألا تتجاوز

نسبة الكتب المهداة في كل الحالات ١٠٪ من مجموع النسخ المطبوعة من كل كتاب .

٢ – وكذلك سمح لمديرية الكتب والمطبوعات وبعد موافقة رئاسة الجامعة ببيع الكتب الجامعية المؤمنة تلبية لطلبات تقوم بها المؤسسات والمراكز العلمية والثقافية والعلماء والباحثون في داخل القطر وخارجه بالأسعار التي حددها مجلس الجامعة لبيع الطلاب وبعد ضمان حاجة الطلاب منها خلال المدة المقررة لتدريسها .

كذلك سمح لمديرية الكتب والمطبوعات ، بعد موافقة رئاسة الجامعة ، ببيع الفائض المتراكم من الكتاب للمؤسسات والمكتبات التجارية بالسعر الذي يحدده مجلس الجامعة شريطة:أن يكون قد مضى على طباعتها ثلاث سنوات على الاقل وان تكون قد انتهت مدة اعتمادها كتباً جامعية وبقرار لهذه المؤسسات والمكتبات التجارية بيع هذه الكتب بالسعر الذي تقرره والطريقة التي تراها مناسبة .

وتنفيذاً لهذا التشريع وتفصيلاً لأحكامه أصدر المجلس الاعلى للجامعات قراراً برقم (٥٥) تاريخ ١٩٦٧/٨/٦ ثم عدله بقراره رقم (١٣٠) تاريخ (١١ و ١٢) ايلول عام ١٩٦٨ ثم صدرت له تعديلات اخرى وأهم مواد هذا القرار وتعديلاته :

١ – لايقرر لعضو هيئة التدريس منفرداً أو مشتركاً مع غيره اكثر من كتاب جامعي واحد في كل سنتين وتحسب مدة السنتين من تاريخ قرار مجلس الجامعة القاضي بتقرير آخر كتاب للمؤلف كتاباً جامعياً .

٢ – لايجوز أن يعتبر الكتاب كتاباً جامعياً إلا إذا مضى على تدريس المؤلف المادة موضوع الكتاب ثلاث سنوات على الأقل .

٣ – تقدر جائزة الكتاب اعتماداً على عدد كلمات الكتاب للمؤلف وعدد الساعات المخصصة للمقرر وفق قواعد يعددها القرار . وتعتبر الجائزة التي يمنحها مؤلف الكتاب الجامعي لقاء جهود التأليف والطبعة الاولى التي تنجزها مديرية الكتب والمطبوعات .

٤ – لاتعاد طباعة الكتاب الجامعي إلا بقرار يصدر عن مجلس الجامعة بناء على موافقة مجلس الكلية واقتراح مجلس القسم المختص ، ولا يجوز إعادة طبعه الا بعدادخال المؤلف تعديلات عليه ؛ ويعطى المؤلف لقاء التعديلات التي يدخلها جائزة تتراوح بين ١٠ – ٥٠٪ من أصل الجائزة التي تستحق للكتاب اعتبر جديداً . وفي هذه الحالة يقرر الكتاب معدلاً صالحاً للتدريس لمدة ثلاث سنوات .

هذا وبعد انقضاء مايقرب من عشر سنوات على هذه التجربة يحق لنا أن ندرس النتائج التي أدت اليها ونقدر ما اذا كانت قد حققت أو لم تحقق الاهداف التي رمى المشرع الى تحقيقها . وفي هذا المجال نلاحظ مايلي :

١ – ان اخضاع الكتاب الجامعي لفترة تجريبية مدتها ثلاث سنوات يدرس خلالها بصفة أصلية تعدل كل سنة ، ثم اخضاع طبعه أو اعادة طبعه لموافقة من مجلس القسم فمجلس الكلية ثم مجلس الجامعة ، ذلك كله يشكل ضابطاً معنوياً كبيراً يحمل المؤلف على العناية والتدقيق والفحص والمراجعة . وقد ساعد ذلك على تحسين مادة الكتاب والتقريب بين مضمونه وبين المناهج المقررة . ثم ان اشتراط التعديل عندإعادة الطبع يحفز المؤلف الى مراجعة ماجد في مجالات العلم والاختصاص لإدخال التعديل المطلوب على كتابه .

٢ – ان صدور الكتاب في الوقت المناسب ، أي في مطلع العام الجامعي ، لايتحقق دائماً ، فقد يتأخر الى ماقبل الامتحان بقليل وأحياناً يتأخر أكثر من ذلك لأسباب مختلفة يكون منها أحياناً وصول الكتاب الى مديرية الكتب والمطبوعات متأخراً أو وصوله اليها وهو غير مُعَدّ الطبع لنقص في مادته أو في رسومه وأشكاله وصوره ومنها تعديله خلال الطبع أو التأخر في تصحيح مسوداته ، الا أن السبب الرئيسي هو أن اعتبار الأملية كتاباً جامعياً والموافقة على الطبع لايقرران الا بعد انتهاء السنوات الثلاث المحددة لتدريس الأملية وكذلك الأمر في طباعة الكتاب معدلاً ، اذ لاتتم الموافقة على ذلك الا في نهاية السنوات الثلاث التي درس خلالها . وهكذا تدفع الأملية أو الكتاب المعدل الى الطباعة في مطلع السنة الدراسية التي تلي العام الثالث لتدريس الأملية أو الكتاب ، وتنقضي أشهر في طباعة الكتاب وتجليده فلا يصل الى أيدي الطلاب الا في الفترة الأخيرة من السنة الدراسية ، اذا جرت الامور دون صعوبات طارئة .

وفي الامكان تفادي هذا التأخر بتقرير طبع الاملية أو الكتاب المعدل في نهاية السنة الثانية لتدريسها على ألا يدرس الكتاب المطبوع أو المعاد طبعه الا بعد مرور السنوات الثلاث ، وذلك كيما يستفاد من السنة الثالثة من مدة تدريس الاملية أو الكتاب لعملية الطباعة .

٣ – ان سعر الكتاب الجامعي مايزال في الغالب مرتفعاً على الرغم من ان المرسوم

التشريعي رقم (١٦٨) قد نص على بيعه بسعر التكلفة . ويعود السبب في ارتفاع سعر الكتاب الى العوامل التالية :

ا – ادخال مكافأة التأليف وثمن النسخ المعـدة للاهداء او التوزيع المجاني على فقراء الطلاب وحصة المؤلف في التكلفة الفعلية للكتاب ، الى جانب ثمن الورق والكرتون والرواسم ونفقات الطباعة والتجليد والاخراج .

ب – تضمين النفقات الادارية : تعويضات الموظفين والمستخدمين واجور العمال في كلفة الكتاب ، وتقدر نسبة هذه النفقات بـ ٤٥٪ من التكلفة الفعلية .

حـ – قلة عدد النسخ المطبوعة والمعدة للبيع . ذلك ان هـذا العدد يحدد بعدد الطلاب الذين ينتظر ان يدرسوا الكتاب خلال السنوات الثلاث المقررة له ؛ وهؤلاء عددهم قليل في الكليات العلمية ، مما يجعل سعر الكتاب في هذه الكليات مرتفعاً . امـا في كليات العلوم الانسانية التي تحتوي على اعداد كبيرة من الطلاب فان سعر الكتاب منخفض لأن تكلفة النسخة الواحدة تقل كلما ازداد عدد النسخ المطبوعة من الكتاب .

ومن الجدير بالذكر ان عدد الكتب الجامعية التي طبعت في العامـين الدراسيين ٧٠ – ١٩٧١ و ٧١ – ١٩٧٢ بلغ ٧٧ كتاباً نسخها ٨٧٦٨٠ نسخة ، منها ٣٠ كتاباً طبعت للمرة الأولى بنسخ عددها ٣٤٤٥٠ و ٤٧ كتاباً اعيد طبعهـا بنسخ مقدارها (٥٣٢٣٠) نسخة .

ونثبت فيمايلي جدولاً يتضمن توزيع هذه الكتب حسب الكليات في جامعة دمشق،

الكتب المطبوعة
للعامين ٧٠ / ٧١ – ٧٢/٧١
حسب الكليات في جامعة دمشق

الكلية	حديث		قديم		المجموع	
	عدد الكتب	عدد النسخ	عدد الكتب	عدد النسخ	عدد الكتب	عدد النسخ
الآداب	٢	١٥٠٠	١	٥٠٠٠	٣	٦٥٠٠
التجارة	٢	٦٥٠٠	٥	٤٨٠٠	٧	١١٣٠٠
التربية	—	—	١	١٢٥٠	١	١٢٥٠
الحقوق	١	٣٠٠٠	٣	٩٥٠٠	٤	١٢٥٠٠
الزراعة	٦	٦٣٠٠	١	٢٠٠٠	٧	٨٣٠٠
الشريعة	—	—	١	٤٠٠٠	١	٤٠٠٠
الصيدلة	١	٦٠٠	٥	٢٧٠٠	٦	٣٣٠٠
الطب	٦	٥٦٠٠	١٤	١١٧٥٠	٢٠	١٧٣٥٠
طب الأسنان	١	٧٠٠	٧	٣٥٣٠	٨	٤٢٣٠
العلوم	٨	٧٧٥٠	٦	٤٢٠٠	١٤	١١٩٥٠
الهندسة والفنون	٣	٢٥٠٠	٣	٤٥٠٠	٦	٧٠٠٠
المجموع	٣٠	٣٤٤٥٠	٤٧	٥٣٢٣٠	٧٧	٨٧٦٨٠

واخيراً يمكننا ان نتساءل: هل نجح تأميم الكتاب الجامعي في تحقيق الغرض المقصود منه ؟ ان التأميم ، فيا نعتقد ومن حيث المبدا ضرورة لا غنى عنها لانه يؤمن المراقبة ، الى حد ما ، على تأليف الكتب الجامعية من قبل المراجع المسؤولة، مجلس القسم ومجلس الكلية ومجلس الجامعة، ويضع المدرس الجامعي المؤلف أمام مسؤوليتين مسؤولية علمية فنية ومسؤولية ادارية تعليمية ، ولأنه يتوخى تأمين الكتاب للطالب الجامعي بأفضل مادة وبسعر الكلفة وفي الوقت الملائم ، ولانه يترك البـاب مفتوحاً

للباحثين والمؤلفين من المدرسين لايجاد مراجع جامعية عامة تساعد الطلاب ، الى جانب كتبهم المقررة ، على التزود بالعلم والتوسع فيه ...

ولكن ثمة عقبات تجعل التأميم لا يحقق كل أهدافه ، وهذه العقبات تكمن في القرارات والتعليمات التي صدرت لتنفيذ المرسوم التشريعي رقم / ١٦٨ / وفي الاجراءات الإدارية المتبعة في اقرار طبع الكتاب أو اعادة طبعه وعدم مراعاة الدقة في التوقيت .. أكثر مما تكمن في المرسوم التشريعي نفسه . ولذلك فان شيئاً ما يجب أن يعمل كي ينطلق الكتاب الجامعي من عقاله ، ونستطيع أن نعدد في هذا المجال النقاط التالية :

١ ـ تحرير المكافأة التي تمنح عن المؤلف الجديد أو المعدل من الشروط التي وضعت لها والتي قيدتها بالزمن المخصص للمقرر في الخطة الدرسية (حصة اسبوعية او اثنتين او أكثر ...) وبما يغطيه الكتاب من المقرر كله أو قسم منه ، حتى أن هذه الشروط جعلت المكافأة تتضاءل في بعض الأحيان فتقتصر على بضع مئات من الليرات السورية . ان مكافأة عادلة ومعقولة ومجزية تجعل المؤلفين يقبلون بجد واهتمام على التأليف ، ولا يبقى مقرر دون كتاب مع ملاحظة أن التأليف أكثر مشقة من التدريس في كل حال .

٢ ـ اعطاء الأملية قسماً من المكافأة التي تستحقها في حال طبعها كتاباً مقرر التدريس لأن الجهد الأساسي في تأليف الكتاب يبذل عند اعداد الأملية وفي تعديلها خلال السنوات الثلاث التي تسبق طبع الكتاب ولا يصح أن يجزى عليه بعد ثلاث سنوات او يزيد أي عند الطبع . أن كل أملية مهيأة كي تصبح كتاباً مطبوعاً ولذا يمكن أن يدفع نصف المكافأة في السنة الأولى والنصف الثاني في نهاية السنة الثالثة ..

٣ ـ وجوب اتخاذ التدابير اللازمة كيما يكون الكتاب جاهزاً للبيع وفي متناول أيدي الطلاب في مطلع السنة الدراسية التي يدرس فيها ، وذلك يتطلب أن يجري طبعه خلال السنة الثالثة من عمر الأملية . ان هذا التدبير لا يساعد فقط على توفير الكتاب في الوقت الملائم بل يساعد على بيع الكتاب في السنوات الثلاث المعد لها في السنتين الثانية والثالثة كما هي الحال الآن .

٤ ـ وجوب اتخاذ الاجراء اللازم لبيع الكتاب الجامعي للطلاب الجامعيين ولغيرهم

من طلاب المعرفة والعلم سواء عن طريق الجامعة بالذات او عن طريق المكتبات العامة ، لأن حبسه في مجال الجامعة أمر لامبرر له لأنه يحرم الجمهور من اقتنائه كما يحرم صندوق مديرية الكتب والمطبوعات من مردود بيعه للعموم داخل القطر العربي السوري وخارجه. ان هذا الاجراء ، إذا اتخذ ، يساعد على ان يكون الكتاب اكثر انتشاراً واقل سعراً مما هو اليوم ، ويعطي مؤلفه مزيداً من الثقة بالنفس والرغبة في البحث والتأليف .

ان التشريع القائم اليوم والمتمثل بمراسيم وقرارات وتعليمات بحاجة الى اعادة النظر ، في ضوء ما استجد من ظروف وما أعطت التجارب ، بعد هذه المدة التي انقضت على تجربة التأميم .. أن التشريع ولا سيما الجانب العملي منه ، أقصد القرارات والتعليمات يجب أن تتوخى تأمين المصلحة العامة وألا تضع في طريقها عقبات تنتقص منها .

ان سورية العربية التي كانت رائدة في ميادين كثيرة تظل سباقة في هذا الميدان ، ميدان الكلمة المكتوبة ، ميدان الكتاب الجامعي الذي يعتبر بصدق أم وسائل التعليم والتعلم . وفي هذا الوقت الذي يواجه فيه مجتمعنا العربي ظروف العدوان الامبريالي والصهيوني القاسية ، يجدر به أن يخرج منها قوياً معافى فينطلق في دروب المعرفة والابداع ليبتني وحدته وحريته وحياة فضلى للجيل الحاضر والاجيال القادمة ، ويعاود دوره الطليعي في صنع المعرفة البشرية وبناء الحضارة الانسانية .

الدكتور عمر الدقاق

الحرف العربي في البرازيل

حين يقبل باحث على تأريخ آداب العرب ويعمد الى ذكر الأقاليم التي ازدهر فيها التراث العربي على مر العصور ، يغدو لزاماً عليه أن يذكر الاميركيتين في عداد هذه الاقاليم ويجعلها بجانب مصر والشام والعراق والاندلس. وكما كانت دمشق وحلب وبغداد والبصرة والقاهرة وقرطبة المراكز التي شع فيها الحرف العربي وأنار ظلمة العصور، كانت نيويورك وريودو جانيرو وسان باولو الحواضر التي احتضنت الادب العربي حيناً من الدهر، والواحات العربية التي ازدهرت في داخل صحارى العجمة. ولم يخفق للسان الضاد علم فوق أرض اعجمية خفوقه في بلاد الاندلس قديماً ، وفي ربوع المهجر حديثاً . كما أن المهاجر نفسها لم تعرف مثيلاً للحياة الأدبية الحافلة التي عمر بها المهجر البرازيلي بفضل قيام « العصبة الاندلسية » .

لقد قدر للأدب العربي أخيراً أن يغترب ليتجدد بعد أن كاد طول الركود يخلق ديباجتيه ، على غرار ما اغترب من قبل واستقبل آفاقاً جديدة في ربوع الأندلس ، وليس كالاغتراب مايحفز على التجدد ويدعو الى الانفتاح على الحياة ، فالهجرات في حياة الشعوب شأن كبير في اغناء التراث الحضاري وتطوير المجتمع الانساني .

وتعد البرازيل في رأس المهاجر الأميركية التي اجتذبت الهاأكبر قدر من المهاجرين العرب ، وهي الدولة الوحيدة التي تنطق بالبرتغالية في أمريكا .

ولعل في جملة العوامل التي ساعدت على انعطاف تيار المهاجرة العربية الى البرازيل بالدرجة الأولى ، « ان البرازيل لم تعامل العرب كما شاءت مرة الولايات المتحدة وكندا وشيلي حين حسبتهم من السلالة الصفراء » (١) ، كما أن صدور قانون الجنسية وتنظيم أمور الهجرة في الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ قد حد من تدفق المهاجرين الى أمريكا الشمالية ، وعطف بالتالي تيار المهاجرة الى الجنوب ، وعلى ذلك غدت البرازيل أهم مهجر عربي في القارة الاميركية(٢) ، كما غدت سان باولو المدينة الأولى التي تضم العدد الأكبر من المغتربين العرب في الأمريكيتين (٣) .

اما الثقافة العربية التي تحدرت بقاياها مع المهاجرين الاسبان والبرتغاليين ، ثم هاجرت مع العرب أنفسهم من بعد فلم تتبوأ تلك المكانة المرموقة التي كانت تنفرد بها الثقافة اللاتينية في امير كا الجنوبية . ولم يكن هذا الاحتكار الثقافي يروق عدداً من رجال الفكر البرازيلي وفي مقدمتهم الكاتب الكبير جورج آمادو اذ يقول(٤) « ان الدم العربي قد لعب دوراً من اكبر الأدوار شأناً في ديمقراطيتنا العرقية ، وفي مساهمتنا بالثقافة العالمية ، وفي نزوعنا الانساني .. ومن المؤسف انها ما تزال سائدة في بعض الأوساط الفكرية البرازيلية تلك العقلية الاستعمارية التي تركتنا متجهين فقط الى باريس

(١) فارس الدبغي ، مجلة « الضاد » أيار – حزيران ٩٦٠ ص ١٢١ .

(٢) فيليب حتي : لبنان في التاريخ ٥٧٨ .

(٣) تتفاوت تقديرات الباحثين حول عدد المغتربين العرب في سان باولو بين ٦٠ الفاً و ١٥٠ الفاً والرقم الثاني اقرب الى الصواب وهو يشكل نحواً من ربع مجموع الجالية في البرازيل .

(٤) نخلة ورد : مختارات من القصص البرازيلي ٣ .

كأن كل ثقافة العالم هناك ، واسوأ من ذلك حين يكون المنـار لشبونة ، كأنما الأرومة البرتغالية هي وحدها التي تطبع نضجنا الثقـافي .. ومع هذه الرابطة العميقة ما الذي يعلمه احدنا عن الآخر ؟ ما الذي نعلمه عن ارومتنا العربية ؟ اننا لفي حاجة الى تبادل حقيقي مع تلك الثقافات التي تمازجت لتخلق ثقافتنا ومن بينها الثقافة العربية العظيمة» .

والواقع ان بواكير المعالم العربية في القارة الأميركية ترجع الى فئة من العرب السباقين الى العـالم الجديد ممن رافقوا قوافـل الاسبانيين والبرتغاليين الى استعمار اميركا(١) ، ومن اثارهم حجر موجود في مدينة ارغـتين نقشت عليه عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم» . وفي مدينة ليريدو بالمكسيك مئذنة مربعة الأطراف على الطراز المغربي نقش عليها من جهاتها الأربـع عبارة « لا غالب الا الله »(٢) التي كانت شعار دولة الموحدين في الأندلس .

ثم كان لأفريقية السـوداء إرث ضخم في الشمال البرازيلي حيث الأدب هناك اكثر أصالة . « فأولئك العبيد الذين تكدسوا في اسفل المراكب ليباعوا في (باهيا) — كما يقول شاكر مصطفى — انما جلبوا من مناطق شتى في القـارة الافريقية ، لا يملكون الا سواعدهم القوية وارثهم الحضاري . كانوا في جانب منهم مسلمين ، وفي زرائبهم كانوا يقيمون الصلاة ، وكانوا في جانب منهم يتكلمون العربية ايضاً ، ويتفاهمون بها تحت أنوف مالكيهم ، ويكتبون بها الرسـائل لأسيادهم الأميين . وكانوا في جانب منهم صناعاً ، فمن صنع ايديهم بعض تلك الكنائس التي سجلوا في السقوف الخشبية الداخليـة من قبابها بعض اي القرآن الكريم ..»(٣) .

وفي كتاب « صفوة الاعتبـار بمستودع الأمصار والأقطار » للشيخ محمد بيرم التونسي المتوفى سنة ١٨٩٩ كلام على البرازيل وانه يوجد فيها آلاف من المسلمين اصلهم من سودان افريقيا ولكنهم لايعلمون إلا قليات الديانة على سبيـل الاجمال ، كما يستفاد

---

(١) انظر شاكر مصطفى في مقالة الوجود العربي في البرازيل ، مجلة المعرفة كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٣ .

(٢) يوسف العيد : جولات في العالم الجديد ٢٤٣ .

(٣) شاكر مصطفى : مجلة « المعرفة » عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣، مقالة الوجود العربي في البرازيل .

ذلك من رحلة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي الذي كان إماماً في بعض السفن المدرعة العثمانية، فقبل فتح قناة السويس عبرت تلك السفن مضيق جبل طارق وصادفت رجالها زوابع اضطرتهم من غير قصد الى شطوط البرازيل. ولما خرجوا الى التفسح في البر أقبل عليهم أقوام مسلمون، وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة، فبقي هنالك مدة، وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركية المسماة (مسلية الغريب) وكان سفره سنة ١٢٨٣ هـ، أي سنة ١٨٦٦ م(١).

وقد ذكر ليو وينر Wiener في كتابه: « افريقية وكشف اميركا » مقاطع اثبت فيها وجود كلمات عربية في كلمات هنود امريكا. وقال(٢): « ان من هذه الكلمات ما يرجع الى عام ١٢٩٠ أي قبل وصول كولومبس بقرنين ». ومما يلاحظه المرء في حلبة السبق في البرازيل أن كثيراً من الخيل قد أطلق عليها أصحابها البرتغاليون اسماء عربية(٣). كما ان كلمات عربية لاحصر لها تدور على ألسنة القوم في اميركا الجنوبية وترجع بنسبها الى لغة الضاد، من نحو كلمة الاستحسان (اوليه) وهي ليست سوى كلمة الله، وكلمة (اوشالا واصلها ان شا الله .. وما الى ذلك مما تركه عرب الاندلس في لغة سكانها الأصليين(٤).

كان على المغتربين العرب ان يخوضوا معركة تحقيق الذات بأن يشقوا طريقهم ويثبتوا وجودهم بين زحام الثقافات المتصارعة في ذلك العالم الجديد. وقد بدأت ملامح شخصيتهم الثقافية تتفتح منذ أوائل القرن الحالي وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى حتى تضاعف عدد المدارس العربية في البرازيل، وارتفعت بذلك نسبة المتعلمين من أبناء المغتربين ارتفاعاً ملحوظاً حتى « بلغت ٨١ بالمائة في أوساط الجالة العربية،

---

(١) محمد جميل بيهم: مجلة « المعرفة » عدد ايلول (سبتمبر) ١٩٦٦.

(٢) فؤاد صروف: الرواد ٦٩.

(٣) يعقوب العودات: الناطقون بالضاد في اميركا الجنوبية ٢٧.

(٤) عني بعض الباحثين واللغويين العرب في المهجر بالكشف عن هذه الألفاظ ونشروا منها جداول لاتحصى ويكاد يلفظها البرتغاليون بنصها العربي مثل كلمات: السد، والديب والبقر والخياط والفرس والفارس والفرجة والغار والجبة والمرج والمنارة والمظلة والبحيرة والقصر والطاحونة والرئيس والريف والسكر والرز .. الخ.

في حين ان النسبة بين سائر البرازيليين تتدنى الى نصف هذا المقدار » (١) فالمعروف ان نسبة التعليم في البرازيل ظلت متأثرة بنسبة البرتغال « وهي أدنى نسبة في أوروبة إذ لاتتعدى ٣٨٪ بالمائة (٢) » .

ومن أجل الأعمال الثقافية التي قام بها المغتربون في حقل التعليم سعيهم الحار الى انشاء كرسي في جامعة سان باولو لتدريس اللغة العربية ، فقد آزرهم في هذا المشروع عدد من رجال الثقافة والتعليم العالي البرازيليين ، وتم بذلك انشاء « المعهد البرازيلي للثقافة العربية » وتكفل المغتربون بجميع نفقاته ، ووكل أمر اختيار المدرسين فيه للعصبة الأندلسية (٣) .

وكان طبيعياً ان تنشأ تبعاً لذلك مكتبات عربية عديدة بعد انتشار اللغة العربية في بيئة المغتربين وازدهار ثقافتها . وقد انشئت أول مكتبة عربية سنة ١٩٠٣ في سان باولو من قبل اسعد فارس ابوصعب ، ثم تلتها مكتبات أخرى انشأها اليـاس سليمان اليازجي ١٩١٢ ، ثم ميخائيل ناصيف فرح . على أن المكتبة الشهيرة كانت مكتبة اليازجي ، وتعد الوحيدة من نوعها في الأميركتين . كما انها من أقدم المكتبات العربية في العالم الجديد ، وبلغ ما استقدمته من الكتب العربية في بضع عشرة سنة نحو ١٥٥ الف كتاب . وقد أحصى صاحبها اليازجي عدد ماطبع من مؤلفات المغتربين في سان باولو حتى اوائل الحرب العالمية الثانية فبلغ ١٣٨ مؤلفاً في العربية والبرتغالية ، في نحو ١٥٦ الف نسخة .

ومن أقدم دور الكتب التي تنطوي على كتب عربية المكتبة الوطنية في بتروبوليس وهي تضم الكتب العربية التي جلبها معه الامبراطور دون بدرو الثاني من الشرق وأهدي بعضها اليه موشحاً بخط يدي إبراهيم اليازجي واحمد فارس الشدياق . وشاع أمر المكتبات التي كانت تقيمها المنتديات الاجتماعية والأدبية والرياضية كمكتبة

---

(١) فارس الدبغي : مجلة الضاد ، ايار — حزيران (مايو — يونيو) ١٩٦٠ ص ١٢٤ .

(٢) جريدة الثورة ٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٤ .

(٣) توفيق ضعون : ذكرى الهجرة ٢٩٩ ، وما يؤسف له ان هذا الكرسي لم يعمر سوى عام واحد .

النادي الفينيقي في العاصمة ومكتبة المعلم نعمة يافث ، ومكتبة العصبة الأندلسية في سان باولو ... وتعد مكتبة النادي الحمصي في سان باولو أكبر مكتبة عربية في اميركا الجنوبية (١) . ولم تكن هذه المكتبة ونظائرها من مكتبات المغتربين العرب الا مراكز هامة لإشعاع الفكر العربي في البرازيل .

على أن المجد الأدبي لم تبن دولته هناك الا على أعمدة الصحافة . واذا كان ظهور أول جريدة عربية إيذاناً بحياة استقرار اجتماعي باهر فقد كان في الوقت نفسه فاتحة عهد جديد لأدب عربي زاهر . ولكن أصدار جريدة في تلك البيئة وذلك العهد كان بالنسبة الى الصحفي الأول يومذاك مغامرة لاتقل عن اقتحامه البحار نحو العالم الجديد وهو لم يسبق له ان ابتعد الى أكثر من تخوم قريته . ومع ذلك استطاع ان يقيم أقوى صرح تجاري ، ثم أن يحقق أعظم مجد أدبي . لقد أصدر ذلك الصحفي الرائد وريقته تلك بلغتها العجيبة وحروفها الغريبة دون ان يدري هو نفسه لمن يصدرها (٢) ،فالأمية متفشية بين المهاجرين الأوائل وأكثرهم لايلوي على فكر أو ثقافة ، بل ما أكثر ما كانوا يثبطون الهمم ويوهنون العزائم وهم يقولون : ان ربح المال يحتاج الى سواعد مفتولة لا الى افكار ناضجة (٣).

وبعد ظهور الصحافة العربية في البرازيل مبكراً اذا قيس الى ظهورها في الولايات المتحدة . فصدور « كوكب اميركا » في الشمال كان عام ١٨٩٢ أي بعد وصول المهاجر الأول بما يقرب من أربعين عاماً . في حين اصدر سليم بالش جريدة « الفيحاء » عام ١٨٩٥ في مدينة (كمبيناس) أي بعد وصول المهاجر الأول الى البرازيل بعشرين

---

(١) اكثر هذه المعلومات مستمد من توفيق ضعون في : ذكرى الهجرة ، ومن يعقوب العودات في : الناطقون بالضاد في اميركا الجنوبية ٨١ ، ٢٥٩ . وانظر اكرم زعيتر في كتابه : « مهمة في قارة » ٣٧ . ويعقوب العودات : « الناطقون بالضاد في اميركا الجنوبية » ٨١/٢٥٩ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في مقدمة حبيب مسعود لكتاب «في هيكل الذكرى» ٦ .

(٣) الياس قنصل : ادب المغتربين ١٥ .

عاماً ، وكانت بذلك أول جريدة عربية في اميركا اللاتينية (١) . وقد جلبت حروفها من المانيا ، وكانت آلتها الطابعة شديدة البطء ، ثم صدرت أول جريدة في العاصمة ريو دو جانيرو وهي « الرقيب » عام ١٨٩٦ . وكان من الغريب ان يتأخر صدور أول جريدة في سان باولو ، اكبر حواضر المغتربين العرب اطلاقاً الى ١٢ أيار (مايو) سنة ١٨٩٨ حين صدرت جريدة « الأصمعي » (٢) .

ويستفاد من كتاب تاريخ الصحافة لطرازي أنه حتى عام ١٩٢٩ فقط كان قد صدر في البرازيل من الجرائد والمجلات العربية ٩٥ ، وفي الولايات المتحدة ٧٩ ، وفي الأرجنتين ٥٨ ، ومجموع ما صدر منها في سان باولو كان ٤٩ . وفي نيويورك ٣٥ ، وفي بونس أيرس ٣٠ ، ولا ريب في أن عدد هذه الصحف العربية قد ازداد فوق ذلك القدر ، ونرجح أنه قد بلغ أقصاه خلال فترة تأسيس العصبة الأندلسية عام ١٩٣٣ . ثم لم يلبث هذا المد الكبير أن انحسر اليوم الى ما لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة(٣) .

والحق أن المغترب العربي كان شديد الاقبال على مطالعة صحفه العربية يتنسم فيها أخبار وطنه وجاليته ، بل وجوده نفسه ، ويجد فيها الى ذلك ما يسليه ويرضي هواه ، وهذا ما يفسر كثرة الصحف العربية التي صدرت في البرازيل . وقد أنس الصحفيون هذا الميل من قرائهم فحمل بعضهم رسالة الترفيه كما حمل بعضهم الآخر رسالة الجد . وكان طابع الكثير من هذه الصحف فكاهياً هازلاً كما كان يتخذ من العامية أسلوباً ومن الزجل أدباً ، ولعل في أسماء بعضها دليلا عليها من مثل الجد هوز ، الفانوس ، الماشطة ، المقرعة ، الكابوس ، الخرير...

---

(١) توفيق ضعون : ذكرى الهجرة ٢٣٤ ، في حين يذكر الياس قنصل في كتابه ادب المغتربين ان صدورها كان عام ١٨٩٤ ، على ان توفيق ضعون أوثق في هذا الموضوع .

(٢) فيليب طرازي ٤٥ ، ٤٣٨ ، في حين يذكر ضعون ان الاصمعي صدرت أواخر عام ١٨٩٧ .

(٣) ذكر نظير زيتون في مجلة « القلم الجديد » آب ١٩٥٣ ص ٨ « أنه لم يبق حياً من هذه الصحف سوى جريدة برازيل ـ لبنان ومجلتي العصبة والشرق في سان باولو والأخبار والحقيقة في ريو » . ثم احتجبت مجلة العصبة في ختام عام ١٩٥٣ .

وقد امتازت الصحافة العربية في البرازيل بظهور صحفيات وأديبات في ميدانها فكانت مجلة (الكرمة) أول ما صدر في سان باولو من الصحف النسائية ، ثم تلتها بعد ذلك مجلة (المراحل) . وأبرز العاملات في هذا الحقل سوى سلامة أطلس ، وماريانا دعبول ، وسلمى صايغ ، وانجال عون شليطا ، وماري يني عطا الله .. وكلهن مارسن كتابة المقالة الأدبية بنجاح .

ومن الظواهر التي اتسمت بها صحف هذا المهجر الجنوبي أنها كانت تحمل في الغالب أسماء تنسبها الى ربوع الوطن العربي او تصلها بالأرومة العربية فكانت في شكلها ومضمونها بمثابة سفارات غير رسمية للأمة العربية ، فعلى حين كانت في المهجر الشمالي صحف ومجلات تحمل اسماء عامة مثل : كوكب امريكا ، والسائح ، والسمير ، والهدى . كانت صحف المهجر البرازيلي تحمل اسم جريدة الأرزة وبشراي وفتى لبنان وبريد الشرق وفتى الشرق ، وسورية الجديدة ، والنهضة اللبنانية والنجمة السورية والمياس وأبو الهول والجامعة العربية والفيحاء وأمنية العرب ... ومنها ايضاً سوق عكاظ والأصمعي وأبو نواس والشدياق والزهراوي والحمراء والاندلس الجديدة .. الخ . وهذه التسميات القومية لا تتجلى بوضوح في المهجر الشمالي ، ولعلها تعكس من بعض الجوانب الارتباط الوثيق بين مغتربي البرازيل وبين أرومتهم ، وتفسر غلبة الاتجاه القومي على أدباء المهجر الجنوبي عامة وأعضاء العصبة الأندلسية بوجه خاص .

ولم تكن الصحف العربية في ذلك المحيط الأعجمي – على سوءاتها – الا مدارس متنقلة تعلم الكثيرون وتأدبوا على صفحاتها .

أما الصحافة الأدبية فكانت الوعاء الرحيب الذي تألق فيه الحرف العربي. ومجلات « الشرق » و « الأندلس الجديدة » و « العصبة » وأمثالها استطاعت حمل رسالة الثقافة العربية أمداً طويلا في تلك الربوع الأعجمية النائية . ولعل أزهاها مجلة « العصبة » التي كانت لسان جماعة (العصبة الأندلسية) مدى عشرين عاماً (١٩٣٥ – ١٩٥٣). وقد توجت الصفحة الأولى من كل عدد باسم المجلة (العصبة) مكتوباً بالخط الكوفي ، وتحته عبارة (مجلة أدب وفن) بحرف صغير . وكان متوسط عدد صفحاتها مائة وعشرين صفحة من قياس ١٨ × ٢٤ سنتيمتراً . وتمتاز المجلة بجودة الاخراج واتقان الشكل ، فالورق جيد النوع ، والحروف جلية وهي في كثير من الأحيان مشكولة وبخاصة في الشعر ، وقل أن يقع القارىء على خطأ في الطباعة . وقد حرص رئيس

التحرير حبيب مسعود على تتويج كل مقالة او قصيدة بعنوان على طريقة النموذج (كليشية) يرسمه بخطه الحسن الذي أتقنه وعرف به في المهجر .

أما مادة المجلة فيغلب عليها الطابع الأدبي ، وللشعر فيها نصيب واف ، ويتصدر كل عدد مقالة افتتاحيـة تعالج قضايا نقدية او أدبية وأحياناً اجتماعية ، وأبواب أخرى ثابتة في الغالب يتناول بعضها بحوثاً علمية تواكب سير الحضارة ، ومختارات من عيون الشعر العربي القديم تحت عنوان (خمور معتقة) تنم على اجلال للتراث التليد .

وقد استطاعت المجلة أن تحقق الى حـد كبير أحد أهداف العصبة الأندلسية وهو « أن تنقل الى الشرق العربي أدب المهجر والى المهجر أدب الشرق » ، فعلى صفحاتهـا التقت أنبه الأقلام من أرجاء الوطن العربي وسائر المهاجر .

انه من قلب المدارس والمعاهد التي أقامها المغتربون خرج آلاف المتعلمين يقرؤون ويكتبون بلغة الضاد ، ويعدون بذلك جسوراً مديدة بينهم وبين قومهم ، وانه بهم خلقت نواة جمهور أدبي لم يكن لمثلها نظير في سائر المهاجر ، جمهور مستنير غدا قاعدة الثقافـة العربية في ذلك المحيط الأعجمي . اما غيرته الفنية وحماسته القومية فقل ان بلغها جمهور آخر في الوطن وفي خارجه. لقد راح يستجيب الداعي خيره ودعوة أدبائه فيبذل بسخاء لقضية بلاده وشهداء امته ، ولكنه فوق ذلك راح يكرم ادباءه وهم على قيـد الحياة ، فيمنحهم الكثير من العزاء، وينفحهم بمزيد من العزم والمضاء، انه هو الذي رعى حقوقهم وبالغ في تكريمهم فيا اقامه لهم من مهرجانات حافلة، وهو الذي سعى الى اقامة تماثيل لبعض من انكروا ذاتهم ، وتنادى الى بناء بيت يقطنه من امضى حياتـه وهو ينظم الابيات من روحه وسهره لقومه ، وسعى الى طبع دواوين عديدة لشعراء طالما تغنوا بأمجاد بلادهم وقصروا فنهم على امتهم .

وفي ابهاء المنتديات الحافلة ومكتباتها العـامرة ومن على منابرها المدوية شع نور الادب وازدهر فن الخطابة هـذا الفن الذي يذكر بازدهاره لدى السلف العربي في فجر حضارتهم ، حتى انه غدا تقليداً لازماً أن يكون لكل ناد من نوادي الجاليـة في البرازيل خطيب معلوم يختار او ينتخب لهذه الغـاية . وعلى صفحات الصحافة الادبية ازدهرت المقالة الادبية وارتقت القصيدة الشعرية وذاع شأن الادب في المهجر وفي الوطن . وان ماتنطوي عليه الكلمة المسموعـة في المنابر والكلمة المكتوبة في الصحائف من حوافز على ممارسة فن القول هو الذي حمل على خلق الاديب العربي في البرازيل خطيباً وكاتباً وشاعراً.

لقد تفتقت تلك البيئة الادبية الخصبة عن ثمار ناضجة من الشعراء النابغين والكتاب النابهين من مثـــل الياس فرحات والشاعر المدني ونصر سمعان وحبيب مسعود وتوفيق ضعون واسكندر كرباج وفؤاد نمر ... وكلهم لم يتح لهم في وطنه من الزاد الثقافي الا أقله . وقد امسكت طائفة اخرى بأعنة اللغة وملكت زمام النقد فصنفت المعاجم العربية وألفت البحوث اللغوية ، وكانت بالمرصاد ايضاً لكل نتاج أدبي تتناوله بالنقد والتمحيص . وهذا المستوى الادبي اللائق الذي بلغه مغتربوا البرازيل هو الذي دعا جورج صيدح الى أن يصف حياتهم الادبية بقوله(١) « في سائر المهاجر قد لا تصل عناية الشاعر بشعره حداً من التجويد ، واحياناً لايكلف نفسه جهداً عقيماً ، اذ لا يجـــد في السامعين من يفهمه اذا انشد الشعر الفني العالي ، فيهبط الى مستوى السامعين . امـا في سان باولو فعلى الخطيب ان يحسب حساباً للشعراء والكتاب واللغويين الملتفين حول المنبر مرهفين السمع متحفزين للانتقاد والتجريح » .

ولعل من عوامل ازدهار العربية وثقافتها في البرازيل من بين سائر المهاجر بالاضافة الى ماذكرنا من كثرة المدارس والمعاهد والمكتبات والمنتديات والصحف والمجلات ..كثرة عدد الجالية هناك ، مما مكنهم من اقامة تلك الصروح الثقافية ، ثم وجود المغتربيـن في بيئة لاتينية ، واللاتين أميل من سواهم الى دراسة الآداب واللغات ، وهذه البيئة تتفق بطبيعة الحـال ومزاج العربي الذي عرف بنزوعه العريق الى هذا الجانب من النشـاط الانساني الرفيع .

ولعل في رأس مظاهر الحياة الثقافية العربية في البرازيل تلك الحركة الناشطـة التي تجلت في الترجمة من البرتغالية واليها مما كان له فضل في زيادة تفاعل الفكر العربي البرازيلي .

ففي مضمار التعريب والترجمة عن البرتغالية كان أكثر هذا الأدب المترجم قصصياً وأقله شعرياً ، ولعل مرد ذلك الى سهولة ترجمة النثر وصعوبة تعريب الشعر ، بالاضافة الى مايفتقر اليه الأدب العربي من النتاج القصصي ، وما استقر في أذهان شعرائه من غنى الشعر العربي واصالته . ومع ذلك فان من مظاهر هذا التفاعل الثقافي اهتمام المغتربين بالآداب اللاتينية وبخاصة الأدب الاسباني والفرنسي والبرتغالي . وقد اقتصر النقل عن

(١) أدبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ١٤٩ .

الاسبانية على عدد معلوم من النماذج الشعرية من نحو قصيدة « هنا وهناك » التي عربها ميشال معلوف وقصيدتي « الشوق » و « حب » اللتين عربها شفيق معلوف ، وهي جميعاً لشاعر المكسيك امادو نرفو(١) ، كذلك نقل فوزي معلوف عن الاسبانية بعض شعر فرنسيسكو فيلاسباسا ومنه قصيدة « أواه غرناطة » . (٢)

على ان مانقل عن البرتغالية ، او بكلمة ادق عن الادب البرازيلي ، كان اضعاف هذا القدر ، فقد عرب رياض معلوف عدة قصائد ذات طابع رومانسي حالم(٣) كما ترجم اسكندر كرباج خلاصة لملحمة هذا الشاعر دلبيكيا وعنوانها « جوكامو لانو »(٤) ، وعرب يوسف البعيني قصيدة « اختراع الشيطان » وهي تدور حول المرأة ، للشاعر فيسنتي دي كارفاليو(٥) . وكان ممن نقلوا عن اولافو بيلاك شفيق معلوف في قصيدة «الشوق» وفوزي معلوف في قصيدة « الفيليقيون »(٦) . وعني شكر الله الجر بتعريب بعض قصائد الغزل عن فنتوربللي سوبرينيو ، وعن اكتسيليو ازيفادو(٧) مثل قصيدة « عندما انت تهجعين » و « البعث » . وبعد شفيق معلوف أوفى الناقلين عن شعراء البرازيل فضلاً عما نقله عن الفرنسية اذ نقل قصائد متنوعة لشعراء مثل اولافو بيلاك ولويس كارلوس دافونسكا واسكندر معلوف وكاسترو ألفيس ، وقد خص هذا الشاعر الكبير الفيس بعدة قصائد من بينها « الشلال » و « منزل الآباء » و « العبقري »(٨) .

ومن بين القليل الذي ترجم عن الأدب البرتغالي كان شعر « كامويلس » الذي

---

(١) انظر على التوالي « في هيكل الذكرى » ١٢٢ ، و « العصبة » نيسان — ايار (ابريل — مايو) ١٩٥٣ ص ١٠٤ .

(٢) مجلة « الشرق » عدد ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ ص ١٢ .

(٣) انظر مجلة « الاديب » آذار (مارس) ١٩٤٧ ص ٢١ .

(٤) انظر مجلة « العصبة » عدد ت٢ (نوفمبر) ١٩٤٨ ص ٤٧٢ .

(٥) انظر مجلة « الاديب » نيسان (ابريل) ١٩٤٩ ص ٧ .

(٦) انظر على التوالي مجلة العصبة : نيسان/أيار ١٩٥٣ ص ١٠٤ وديوان فوزي معلوف ص ٣٣ .

(٧) انظر « زنابق الفجر » ١٠٨ ، ١١٢ .

(٨) انظر سنابل راعوث على التوالي ٤٧ ، ١٢٩ ، ١٦٠ .

عربت له قصائد عديدة منها قصيدة « الزمان »(١) . ونحن لم نقع الا على النادر من اساطير الهنود اولئك السكان الأصليين ، من نحو قصيدة « يارا » عروس الماء (٢) التي تعيش في مياه الأمازون ومجاهل البحيرات والتي ان غنت اجتذب الى سحر غنائها كل حي ، واغلب الظن ان تلك الأساطير كانت شائعة دون أن تلقى من باحثي البرازيل اهتماماً جاداً بتدوينها وادخالها في حيز الأدب البرازيلي .

ومهما يكن من ضآلة هذه النماذج المعربة فانها تشير الى احد جانبي التفاعل الأدبي بين العرب والبرازيليين . وهي على كل حال تنم كما قال جورج صيدح على انه « كان للترجمة مكان في ادب المهجر الجنوبي دون الشمالي ، فقد عني ادباؤنا في البرازيل والأرجنتين بنقل اشهر الآثار العالمية وعانوا بنجاح ترجمة الشعر الغربي شعراً عربياً وهي من أعسر المهام »(٣) .

اما الجانب الآخر من هذا التفاعل الأدبي فقد تجلى في نقل كثير من الكتب والأشعار الى اللغة البرتغالية لتغدو بين متناول البرازيليين ، بل بين يدي الكثيرين من المغتربين انفسهم وبين ايدي ابنائهم مما تحول اسباب كثيرة دون الوقوف عليها في لغتها الأصيلة العربية .

ومن أهم ما نقله المغتربون الى لغة موطنهم الجديد كتاب « كليلة ودمنة »(٤) و « مقدمة ابن خلدون» وهي في ثلاثة مجلدات ذات فهارس وشروح وافية(٥) «وتاريخ العرب » الذي ألفه فيليب حتي .. وقد نقل موسى كريم كتباً كثيرة منها كتاب شعراء وخلفاء ، مصير الخلفاء الراشدين ، المتنبي ، المعري ، ابو نواس ، عمر بن ابي ربيعة ، مقدمة ابن خلدون ، رحلة ابن بطوطة ، دراسة دانتي ورسالة الغفران(٦) ، جبران ،

---

(١) عربها جورجي قصاص ، انظر مجلة الشرق ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢ ص ١٦ .

(٢) انظر شفيق معلوف في ديوانه سنابل راعوث ١٠٢ .

(٣) ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ١٠٨ .

(٤) نقله راجي باسيل ، انظر يعقوب العودات : الناطقون بالضاد ٣٨٦ .

(٥) اصدرها يوسف الخوري في نحو ١٥٠٠ صفحة ، انظر جريدة « الثورة » الدمشقية ١٧ ايلول (سبتمبر ١٩٦٤) .

(٦) انظر جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ٤٣٤ .

قصص سورية ، ثم ملحمة عبقر نثراً ، وأخيراً كتاب «حدث في دمشق» الذي طبع للمرة السابعة والثلاثين(١) . وقام سعيد البابا بنقل « هـذا الرجل من لبنان » أي جبران ، لبربارة يونغ، وجميل منصور الحداد بترجمة نشيد الأنشاد ، ورباعيات الخيام(٢) .. الخ

أما الشعر العربي وبخاصة ماصاغته قرائح الشعراء المغتربين في المهجر البرازيلي فقد كانت ترجمته الى البرتغالية صفحة ناصعة لأن الذين حرصوا على نقله كانوا في الغالب من البرازيليين انفسهم أو سواهم من غير العرب . لقد نقـل سلمون جورج نحواً من عشـرين قصيدة من قصـائد الشـاعر القروي الى البرتغالية في مجموعة أسـماها (حضن الأم) باسـم القصيدة الأولى ، وقد انطوت على مقدمة ضـافية (٣) . كذلك نقل سلمون جورج كثيراً من قصائد شفيق معلوف الغنائية ، والشاعر البرازيلي غيليرمي دي ألميدا الذي نقل رياض معلوف بعضاً من شعره الى العربية عند بدوره الى نقل عدد من قصائد القروي الى البرتغالية مع تعليقات مسهبة عليها .. كما نقل الى هذه اللغة أيضاً هارولدو داترو مختارات من شعر فوزي المعلوف (٤) .

على ان أثرين بارزين من آثار الشعراء العرب في البرازيل نالا من الحظوة مالا يكاد يدانيها أثر آخر لأديب عربي في الأوساط الغربية عدا ماكتبه جبران خليل جبران بالانكليزية ، وهما ملحمة عبقر ، وملحمة على بساط الريح . لقـد ترجم موسى كريم ملحمة عبقر الى البرتغالية نثراً ، ونقلها اليها شعراً الشاعر البرازيلي جودس أزغورو غوتا عام ١٩٤٩ ، وترجمها شعراً الى الاسبانية الشاعر فرنسيسكو فيلاسباسا (٥) .

---

(١) انظر مجلة « الجندي » عدد ١٤ أيار (مايو) ١٩٦٣ ص ١٣ .

(٢) انظر جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ٨٦ ، ٤٢٠ .

(٣) صدرت في البرتغالية عام ١٩٤٠ بعنوان Colo Maternw أي حضن الأم وضمت من القصائد أيضاً اقحوانة ابرنكا ، سقوط اورشليم ، تحية الأندلس، الدوحة الساقطة ، الغفران .. والمترجم شاعر كبير من اصل لبناني ولا يفقه العربية وقد ساعده القروي في مهمته .

(٤) انظر ذكرى فوزي المعلوف ٣٦ .

(٥) شاعر اسبـاني مقيم في البرازيـل وهو محب للعرب ويعد نفسه حفيداً للأندلسيين ، وقد ترجم قصائد غنائية اخرى لشفيق معلوف ، منها قصيدة « غرناطة » . عن رسالة لشفيق معلوف ٢ أيار ٩٦١ .

كذلك حظيت ملحمة على بساط الريح لفوزي المعلوف باهتمام لاحد له بين أدباء البرازيل، فبادر الشاعر فينتوريللي سوبرينيو الى ترجمتها الى البرتغالية ، ثم بادر فرنسيسكو فيلاسباسا أيضاً الى نقلها الى الاسبانية ونقل بعدها لفوزي معلوف أيضاً مجموعته « شعلة العذاب » . وتعد المقدمة المسهبة التي وضعها هذا المترجم للملحمة « على بساط الريح » والتي نشرت في الطبعات الثلاث البرتغالية والاسبانية والعربية آية في الجمال واشراق البيان .

ويبدو ان موجة الاعجاب بهاتين الملحمتين وبسائر النتاج الشعري لشعراء العرب في البرازيل قد سرت الى أقوام أخرى ، فنقل المستشرق مارتينو ماريو مورينو الى الايطالية مختارات وافية من شعر القروي والياس فرحات وشفيق معلوف وشفعها بدراسات مسهبة عن كل من الشعراء الثلاثة وصدرت تباعاً في مجلته المشرق Levente(١). كما ترجم المستشرق الألماني كمفاير شيئاً من شعر شفيق معلوف ايضاً الى الألمانية ،بالاضافة الى اخرين نقلوا بعض قصائده الى الفرنسية والانكليزية والروسية (٢) فضلاً عما ترجم منها الى البرتغالية والاسبانية والألمانية . كذلك نقلت « على بساط الريح » ، الى لغات أخرى غير البرتغالية والاسبانية ، « فقد ترجمها الى الانكليزية المستشرق جورج كفت والى الألمانية كمفاير والى الروسية كراتشكوفسكي والى الفرنسية فائز عون واسعد محفل، والى الرومانية أميل مرقده ..»(٣)

ان اتصال العرب الوثيق بسكان تلك المهاجر الجنوبية المتحدرين من أرض الأندلس ، او بتعبير أدق بفئات من متنوريهم قد أثار لهم الكثير من زوايا تاريخهم واوقفهم على العديد من خصائص أمتهم ، وان ما كان يورده لفيف من المفكرين والادباء من غير العرب من اراء وما يدلون به من أفكار حول موضوع الاندلس كان يرفد تلك الاحاسيس الباهتة بحقائق باهرة .

لقد ادهشهم ان يجتزىء « كورني » الفرنسي مسرحيته « السيد » من احداث

---

(١) صدرت الدراسات الثلاث ايضاً في كراسات ثلاث ، تفضل الشاعر القروي بارسال واحدة منها الي ، ولم اوفق في الحصول على الأخريين .

(٢) ذكر لي ذلك شفيق معلوف في رسالته المؤرخة ٢ ايار (مايو) ١٩٦١ .

(٣) انظر عيسى الناعوري : الادب العربي في المهجر .

الاندلس ، وان يشاهد « شاتوبريان » مدينة غرناطة فيوحي اليه تاريخها بـ « اخر بني سراج » وان ينسج « لتن » الانكليزي روايته التاريخية « ليلى »(١) من ايام بني الاحمر الاخيرة ، وان يستوحي فلوريان الفرنسي قصته « كنزلف القرطبي »(٢) من صراع العرب مع الاسبان ، وان يؤلف الكاتب الامريكي واشنطون ايرفنغ W.Irving اثر انبهاره بآثار الاندلس كتابه الشيق «قصص الحمراء» Alhambra (٣)... لقد كانت ربوع اسبانيا والبرتغال بما انطوت عليه من آثار عربية رائعة مصدر إلهام لعديد من الكتاب والشعراء والموسيقيين والمصورين من أمثال من ذكرنا ، كما كانت مهبط الوحي بوجه خاص لكثير من شعراء الاسبان والبرتغال الذين رضعوا الروح الأندلسية منذ أبصروا النور وانفتحت نفوسهم على ذلك التراث الأندلسي العريق . فمن قباب قصر الحمراء الحالمة استمد زوريا Zorilla عناصر ملحمته الشهيرة « غرناطة »(٤) .

وفي أحضان ليالي الأندلس الساجية ، وذكرى تغريد بلابل الحمراء ، وخرير سواقي جنة العريف .. استوحى فيلاسباسا عناصر شعره الشجي المفعم بسحر الأندلس وطيبها وعظمتها وروائها ... كان له مسرحيته الشعرية (قصر اللؤلؤ) التي تصور عهد بني الأحمر ، وقصته « زفرة المغربي » التي تصور مأساة انطفاء الملك المغربي في الأندلس ، وقصيدته « أواه غرناطة » التي يبكي فيها العز الراحل والمجد الزائل ...

وكثيرون اولئك الأعلام – ممن ذكرنا ومما لم نذكر – الذين استوحوا عظمة الأندلس في شعرهم ونثرهم وقصصهم ، ولكنه ما من احد استطاع أن يحظى باهتمام الجاليات العربية في امريكا بل العرب في مواطنهم بمثل ما حظي به هذا الشاعر فرنسيسكو فيلاسباسا Villa Espesa (٥) . فقد كان لسيرته وآرائه فعل الخمرة في النفوس وتأثير السحر في العقول . هـذا الشاعر الاسباني أحب العرب حباً بلغ منزلة

(١) نشرت متسلسلة في مجلة «العصبة» معربة بدءاً من حزيران (يونيو) ١٩٣٦.

(٢) عربها فوزي معلوف في مطلع شبابه ولكنها لم تنشر . انظر في ذلك روايته « ابن حامد » التمهيد ، وانظر « ذكرى فوزي المعلوف » ١٠٧ .

(٣) انظر تأثير هذا الكتاب ومؤلفه في : أمين الريحاني « ملوك العرب» المقدمة.

(٤) انظر محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية ١٥٩ .

(٥) ام الشاعر البرازيل عام ١٩٢٩ وتوفي عام ١٩٣٥ .

التقديس وملك عليه مشاعره ، فاذا هو يعد نفسه عربياً محدر من اصلاب عرب الأندلس . وقد بلغ به الأمر كما ذكر فوزي المعلوف(١) « أنه كان يجول في شوارع مدريد الكبيرة مرتدياً ثياباً عربية وعلى وسطه خنجر ذهبي » . واذ يقدر لهذا الشاعر أن يعيش في سان باولو - مجتمع اكبر جالية من العرب - تنفتح امامه صفحة جديدة مشرقة من سفر العبقرية العربية في هذا المهجر حين يعرف عن كثب اخوة له وانداداً من احفاد الاندلس العريقة بعثوا بنبوغهم في الاندلس الجديدة .. فهناك يلتقي هذا الشاعر على غير ميعاد بفوزي المعلوف وشفيق المعلوف والشاعر القروي والياس فرحات وشكرالله الجر وسواهم - واذ ذاك يتم التفاعل الحار وتأخذ هالة الاندلس في الارتسام فوق ذلك المهجر البرازيلي بأبهى الوانها .

ولعل ابرز ما قام به فيلاسباسا في اميركا انه ترجم ملحمة (على بساط الريح) التي نظمها فوزي معلوف الى اللغة الاسبانية ، بل ان المقدمة المسهبة التي وضعها للملحمة والتي نشرت في الطبعات الثلاث الانيقة - العربية والاسبانية والبرتغالية - لتعد من المقدمات الشهيرة في عالم الأدب . وما جاء فيها متصلا بالروح الأندلسية(٢) « ان روح اللغة العربيــــة مابرحت تمد معجمنا بما ينيف على ربع مفرداته ، كما أن أنوار آدابها ما فتئت تلهب مخيلاتنا بأشعتها ، وتسعر دماءنا بحرارتها ، وان جل ادبنا الروائي وشعرنا متأثر بروح عربية محضة .. ونحن الاسبانيين يتعذر علينا اتمام ابحاث تاريخنــــا وآداب لغتنا ما لم يستعن مؤرخونا ونقادنا بلغة المعتمد وابي البقاء .. وليس في طاقتنـــــا نحن الأندلسيين ان نجحد دين اسلافنا المسلمين .. اننا لو انتزعنا بعض الكلس عن جدرات جل كنائسنا وجدنا تحته لمعا مذهبة لاسم الله الأقدس المحفور بالحروف الكوفية ، كذلك لو خدشنا بالأظفار بشرتنا الأوروبيـــــة الصفراء لبرز لنا من تحتهـــــا لون بشرة العرب السمراء .. ان قوميتنا الغربيــــة ما هي غير العرض الظاهر ، وأما القومية الشرقية فهي حقيقتنا الخالدة » .

أية كلمات هــذه تسكب الرحيق في نفوس المغتربين العرب دون أن تزم طرباً وتملؤهم زهواً ، وهم ما كانوا يسمعون في متاجرهم الا كلمة (تور كو) تخدش آذانهم صباح مساء . فلا عجب ان ينتشوا بما قرؤوه من جمال هذه العبارات في مقدمة الشاعر الاسباني

(١) البدوي الملثم : شاعر الطيارة ٣٢ .

(٢) على بساط الريح ، المقدمة ٤٦ .

للشاعر العربي او في بعض مقالاته ، او ماسمعوه في ابهاء منتدياتهم من عذب بيانه في خطبه ومحاضراته .. وكان مثله جديراً ان يكتب عنه العرب في تقريظه ، وان ينظموا الشعر في مديحه ، وان يقيموا المحافل لتكريمه ، وهل العرب الا اهل وفاء . لقد وصفه فوزي المعلوف في عدد من المقالات عنوان بعضها « امير العروبة » أو « شاعر اسباني يفاخر بنسبه العربي » فقال(١) : « وهل تعجب ؟ حق لك العجب ، عنوان غريب ، في عصر غريب ، عربيه يتبرأ من عروبته .. » ثم يعرب الشاعر العربي لزميله الاسباني بعضاً من قصائده ، كما سبق الشاعر الاسباني ان ترجم له ملحمته وتوجها بمقدمته ، انما قصيدته « اواه غرناطة » التي « القاها على مسامع فوزي معلوف والدموع تترقرق في عينيه»(٢):

غرناطة ، أواه غرناطة ... لم يبق شيء لك من صولتك
هل نهرك الجاري سوى أدمع ... تجري على مادال من دولتك
والنسمة الغادية الرائحة
هل هي الا زفرة نائحة
ماعدت في النهر كسلطانة ... جبهتها في مائه ساطعة
للقبة الحمراء في تاجها ... وهج وللمئذنة اللامعة
آه على أمجادك الضائعة
شيعتها بالنظرة الدامعة

وكان من ثمار هذا الجو العابق بشذا الاندلس ظهور جريدة لابي الفضل الوليد تحمل اسم « الحمراء » ومجلة لشكر الله الجر تحمل أسم « الاندلس الجديدة » وتأسيس جمعية باسم « الجامعة الاندلسية للخطوط العربية » .. ثم أخيراً تأسيس « العصبة الاندلسية » أجل عمل ثقافي في اميركا الجنوبية كلها .

فقد آثرت فئة من فحول الشعراء والنثر في البرازيل هذا الاسم لواء ينضوون تحت ظلاله لما تنطوي عليه حروفه من مغزى نفسي وفني عميق ، واتخذوا لهم من مجلة « العصبة » منبراً لاديهم ومعرضاً لآرائهم .

---

(١) مجلة (الشرق) ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ ص ١١ وكان المقال قد نشر قبل ذلك بأكثر من ست سنوات .

(٢) مجلة (الاصلاح) كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣١ ص ١١١ ، وانظر المصدر السابق .

وان الروح الاندلسية لاتأخذ مداها في المضمار الادبي الا على صفحات المجلات الادبية على نحو مماثل لما تجلى لنا في المجموعات الشعرية . فقد أولت المجلات الادبية كالشرق والاندلس الجديدة والعصبة التراث الفكري والادبي ذا الطابع الاندلسي اهتماماً كبيراً ، وكانت كثيراً ماتعمد الى ترجمة بعض البحوث التي كان يكتبها البرتغاليون او الاسبان او سواهم عن ازدهار الاندلس فما عنيت به مجلة الشرق تعريب بعض محاضرات سيجيريست Cijirist عن « المجلة الطبية البرازيلية » حول « الطب العربي الاندلسي » ، والطبيب القرطبي ابي القاسم الزهراوي(١) كما عنيت مجلة (العصبة) بتعريب بحوث مماثلة عن مجلة « الاندلس » الاسبانية التي كان يصدرها المستشرق ميكال اسين بالاسيوس – حول « علم الصيدلة والنبات عند العرب في الاندلس » بقلم ماكس ميرهوف(٢) وما كان يترجمه الخوري ميخائيل ديبه تحت عنوان « آثار عرب الاندلس في البرازيل » .. الخ .

وقد فتحت الصحافة البرازيلية صدرها للكتاب العرب سواء في العاصمة أو في الحواضر . من ذلك أن جريدة « الكوريايو دامانيان » كانت بوقاً لعدد من المغتربين في ريودو جانيروو كانت للعقل الحر فيها مساجلات ذات طابع تاريخي مع بعض أعضاء المجمع العلمي حول فضل الفينيقيين الحضاري(٣) . وقد عمدت بعض الصحف العربية في سبيل هذا الهدف الثقافي الى الصدور في شطرين يضمان صفحات عربية وأخرى برازيلية ليتسنى لها الخروج الى محيط أوسع ، وتعد مجلة الشرق لموسى كريم في طليعة المجلات التي تجسد التبادل الثقافي على صفحاتها بأجلى معانيه ، وكثيراً ماتصدرت صفحاتها مقالات الكتاب البرازيليين وبحوثهم .. من أمثال سيسيليو لويز ، وهيركولانو بيرس ، وكورايا جونيور ، وأغريبينو غرياكو وأسيس شاتوبريان وفرنسيسكو بوينو .. وكانت محاضراتهم وكتاباتهم تدور في الغالب حول حضارة العرب والشعر العربي .

وأما أعلام الفكر البرازيلي الذين عنوا بدراسة الفكر العربي وقرائحه فقد أصبحوا كثراً بفضل اطلاعهم على نماذج رائعة من نتاج العرب قديمة وحديثة .. ولذلك عمدوا

(١) الشرق ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣١ ص ٢٥ .
(٢) العصبة ، تشرين الأول (أكتوبر) ٣٧٧ .
(٣) انظر مقدمة ديوان عقل الجر ١١ .

الى بث آرائهم على منابر الجامعات وصفحات المجلات . كان منهم النقاد البارزون أغربيئو غريبيكو المعروف بـ«سانت بوف البرازيل» ، وكورايا جونيور ، وميندوتي دلبيكيا ، ولويس أمارال .. وأكثرهم تناولوا بالدراسة والتحليل الآثار الشعرية التي نظمها كبار الشعراء العرب .

ولعل من أهم مجالي تألق الحرف العربي في البرازيل ما كانت الجالية تقيمه من محافل أدبية في كثير من المناسبات الفنية والاجتماعية والقومية . فقد كانت وفية لأبنائها الراحلين الذين كان يتخطفهم الموت واحداً بعد واحد ، فتقيم لذكرى كل منهم مهرجاناً ادبياً يتبارى خلاله الشعراء والكتاب في فن القول على ملأ كبير من جمهور المغتربين . وكان المهرجان الذي أقامته العصبة الأندلسية لرئيسها الراحل ميشال معلوف حافلاً ، كذلك احتفلت العصبة بذكرى الآخرين من رفاقها مثل حسني غراب ويوسف البعيني واسكندر كرباج .. كما شاركت العصبة عدداً من المؤسسات والمنتديات في حفلات التأبين التي أقامتها لفوزي المعلوف وامين الريحاني وسواهم، أو حفلات التكريم التي كانت تقام احتفاء بالوفود العربية التي كانت تؤم المهجر لأغراض قومية .

وجدير بنا أن نقف قليلا عند مهرجان كبير أقامته العصبة الاندلسية الشاعر العربي أبي الطيب المتنبي بمناسبة مرور الف عام على وفاته ، وكان ذلك في مدينة سان باولو عام ١٩٣٥ . وقد تكلم في المهرجان من كتاب العصبة نائب رئيسها ثم جورج حسون وتوفيق قربان ، والقى كل من شعرائها شفيق معلوف وعقل الجر ونصر سمعان وإلياس فرحات والشاعر القروي قصيدة من غرر الشعر ، وقد عزفت خلال ذلك قطع موسيقية عذبة بعضها ذو طابع شرقي او اندلسي من قبل عازفين اسبان مهرة . ويعد المهرجان من أقوى ما أقيم في المهجر ، وحضره مايزيد عن الف وخمسمئة من المغتربين والبرازيليين فكانت المناسبة تظاهرة قومية وفنية كبرى « برزت روعتها وبما قيل فيها من غرر الشعر كل ما ألقي في الحفلات الاخرى . ولقد حلق شعراؤنا في سماء الابداع حتى جاوروا شاعر العرب الاكبر »(١) ، « .. ويالفرحة المتنبي اذ لقي في بلاد قصية مجهولة أخداناً له واخواناً ، صاغوا له من عقبان الشعر تيجاناً ، ومن القوافي الصداحة عرشاً وصولجاناً »(٢) وقـد

---

(١) مجلة (الاديب) نيسان (ابريل) ١٩٤٩ ص٦ من كلام حبيب مسعود .
(٢) مجلة (المعرفة) ايار (مايو) ١٩٦٤ ص ٧٢ من كلام نظير زيتون .

ذاع أمر هذا المهرجان في الشرق العربي واشادت الاوساط الادبية بفضله ، وبخاصة عندما حملت اليها مجلة « العصبة » في عددها الخاص عن « عبقري العرب » ماقيل في تلك المناسبة من شعر ونثر ، ومن اصدائه ما اورده احمد حسن الزيات في قوله(١) : « لم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد الا بحفلتين جديرتين بفضله : حفلة قومية اقامها شباب العرب الابرار في سان باولو ، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الادب الاخيار في دمشق . وسان باولو لم تخلق في دنياه .. » . ومما يجدر ذكره ان المهرجان الألفي أقيم في البرازيل قبل اقامته في سورية بما يقارب العام .

ولقد كان ظهور الكتاب العربي في البرازيل بصورة عامة تالياً لصدور الصحافة العربية ، اذ تعد الجريدة ضرورة حياتية ونفسية تتصل اتصالاً وثيقاً بتوكيد الذات العربية وتحقيق شخصيتها ، على حين يعد ظهور الكتاب ايذاناً بانتهاء مرحلة الترحل والقلق وابتداء عهد التوطن والاستقرار . واذا تجاوزنا الكتاب المدرسي الذي وضع لظروف عارضة فاننا نجد الكتاب الأدبي يحظى باهتمام كبير ، وكان الديوان الشعري بوجه خاص ذا شأن في الحياة الأدبية في المهجر البرازيلي ، أما ديوان « تذكار المهاجر » لقيصر معلوف رئيس « رواق المعري » فكان أول ديوان شعري يطبع في العالم الجديد بالعربية ، كما أن صاحبه مؤسس أول جماعة ادبية عربية في المهاجر قاطبة ، وكان ذلك في مغرب القرن الماضي .

وما لبثت الدواوين الشعرية الأخرى وسائر كتب الأدب أن أخذت في الصدور مثل ديوان (الرشيديات) ثم (القرويات) للشاعر رشيد سليم الخوري ، وقد اجتمع شعر هذا الشاعر في ديوان كبير تجاوز الألف من الصفحات وصدر في سان باولو باسم ديوان القروي. كذلك أخرجت مطابع سان باولو ديوان الشاعر الياس فرحات ثم رباعيات فرحات وسائر دواوينه : الربيع ، والصيف ، والخريف ، وأحلام الراعي ، ثم حوارية « ابن حامد ، او سقوط غرناطة » لفوزي المعلوف . وأخرجت مطابع ريودو جانيرو كتاباً نقدياً جريئاً لشكر الله الجر الى جانب ديوانه « الروافد » . وصدرت مطولة نعمة قازان في كتاب اسمه « معلقة الأرز » وأعقبها كتاب للمغترب المصري محمود شريف حول المعلقة عنوانه « ثورة قازان في معلقة الأرز » ، وكتاب « في هيكل الذكرى » لميشال

---

(١) مجلة (الرسالة) العدد الثالث ، ديسمبر ١٩٣٥ .

معلوف وآخرين ، فضلاً عن كتب أخرى نعد منها ولا نعددها... ومن هذا القبيل أخيراً مطولة فوزي المعلوف الذائعة « على بساط الريح » وملحمة « عبقر » لشقيقه شفيق معلوف ، وقد طبعتا مرات ومرات طبعات أنيقة زانتهـا الرسوم والزخارف ودبجتها زخارف الخطوط العربية الأصيلة .

وقد عني المغتربون العرب في البرازيل بتأليف المعاجم البرتغالية – العربية (١) وكان لهم اهتمام خاص بالبحوث اللغوية المقارنة ، من مثل الموسوعة التي ألفها فؤاد نمر في سبعة مجلدات ، وتناول فيها تأثير اللغات الشرقية من عربية وفارسية وتركية في اللغة البرتغالية (٢) . كذلك ألف راجي باسيل مترجم كليلة ودمنة « قاموس الألفاظ البرتغالية المشتقة من اللغة العربية » وقد صدر منه ثمانية أجزاء (٣) . ولجورج اليان ، معجم برتغالي عربي يتألف من خمسين ألف كلمة (٤) ، وللتوفيق قربان بحوث عميقة في فقه اللغة المقارن وهو ذو دراية واسعة بعدد من اللغات وبتاريخ الحضارات (٥) .

وغدا طبيعياً أن يترك هذا التفاعل الفكري والاجتماعي أثره في حياة المجتمع البرازيلي ، اذ انعكست هذه الملامح في بعض ما أنتجته قرائح الكتاب والشعراء في البرازيل ، ففي قصة «غابرييلا » أول قصة كبيرة لجورج امادو تبدو شخصية (نسيب) العربي الى جانب شخصية البطلة (غابرييلا) التي لم تكن في الواقع الا امرأة مغتربة

(١) يذكر شاكر مصطفى أن أول معجم برتغالي عربي انما ألفه في مدينة لشبونة البرتغالية كاهن نشأ وتعلم في دمشق خلال القرن السابع عشر « المعرفة : ك ١ (يناير) ١٩٦٣ .

(٢) مؤلفها من العصبة الأندلسية ، وصدر منها جزءان كما يذكر يعقوب العودات ٣٦٧ .

(٣) نشره سنة ١٩٤٥ باللغـة البرتغالية ؛ انظر يعقوب العودات ٣٨٤ ؛ والأديب : أكتوبر ت ١ ١٩٤٥ .

(٤) مؤلفه من العصبة الأندلسية وهو استاذ لكرسي اللغـة البرتغالية في جامعة دمشق .

(٥) هذا العالم من العصبة الأندلسية وقد شغل كرسي اللغة العربيـة بجامعة سان باولو .

عربية (١) . وثمة معالم باهتة عن الشرق والعرب تلوح في نتاج بعض الشعراء الذين أتيح لهم أن يتأثروا – في حدود مختلفة – بالفكر العربي مما يستأثر بجهد خاص .

هذا الفهم المتبادل كان له أثر كبير في ازدياد شأن العرب لدى شعوب امريكا اللاتينية على الصعيدين الاجتماعي والسياسي تجلى في مواقف كثيرة مشرفة وقفها مع قضايا العرب القومية صحفيون وسياسيون وشعراء وكتاب (٢) . ولم يأل المغتربون جهداً في مديد الاخاء الى الشعب الذي فتح لهم نفسه . فكانوا يشيدون بجميله في كل حين. وعندما احتفلت البرازيل بعيد استقلالها المئوي نصبت لها الجالية العربية تمثالاً عظيما مزجت رموزه حياة الشعبين المتحابين (٣) .

وما تقدم بوسعه ان يعطي صورة عن المدى الذي بلغه ذيوع الأدب العربي ، قديمه وحديثه خارج نطاق الشعوب العربية . حتى أنه « لم يبق شعب من شعوب اميركا لم يقرأ كليلة ودمنة والف ليلة وليلة وملحمة على بساط الريح » منقولة من العربية(٤) وهكذا انفتح الفكر العربي عن طريق مهاجره على عوالم واسعة الأرجاء ، وأخذ يشق طريقه بقوة في زحمة الثقافات العالمية ليزيد التراث الانساني غنى ونمواً .

(١) انظر شاكر مصطفى : مختارات من القصص البرازيلي .

(٢) في مقدمتهم لويس آمارال الذي كانت له حملات عنيفة على الصهيونية في مقالاته ، وقد ألف لهذه الغاية كتابا أسماه عبيد التلمود ، كما ألف لويس لاسردا كتابا مماثلاً عنوانه (قضية فلسطين) .

(٣) انظر مجلة الشرق ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ ص ٣٠ .

(٤) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ١٠٨ .

رحلة الكتاب العربي في الإستشراق الفرنسي

خليل الهنداوي

بينما كان الكتاب العربي ، في خزائن الشرق ، حبيساً مطموراً ، كان يتنفس ريح الحياة ، ويتمتع بأنفاس الحرية في ربوع الغرب ، على أيدي المستشرقين .

ولا ريب، أن هؤلاء المستشرقين كانوا على أهواء مختلفة، منهم من استهاله الشرق وحب معرفة الشرق، فأكب على تعلم اللغات الشرقية – وبخاصة اللغة العربية، لينفذ الى سحر الشرق. ومنهم من كانت غايته تبشيرية او استعمارية، لكنهم على اختلاف اهوائهم – أسهموا في إحياء التراث العربي، ومسحوا غبار الإهمال والنسيان عن كثير من آثاره، وحسبهم فضلاً أن نعرف ان الكثير من الآثار العربية استعاد حياته في ديار الغرب، قبل الشرق.

وقد اشتغل بالاستشراق اكثر الدول الكبرى التي كانت لها مصالح حيوية تربطها بالشرق، منها انكلترا وفرنسا والمانيا وروسيا.

وكان جل هؤلاء المستشرقين يتقنون العربية على الأوراق. أما ألسنتهم فكانت ثقيلة. وقد حضرت مرة محاضرة للمستشرق الفرنسي «لاووست» كان يقرؤها بالعربية، وهي مخطوطة بالحروف اللاتينية.

ولعل نصيب الفرنسيين من هذا الاستشراق كان الحظ الأوفى، بحكم الروابط السياسية والتجارية التي كانت تشد فرنسا بالشرق.

على أن تاريخ مراحل الدراسات العربية، في الغرب، يبقى مبهماً، والاتصال بالفكر العربي قد تم بوسائل مختلفة، إما بواسطة تجارة المدن الايطالية الساحلية مع الشرق، وإما – بصورة خاصة – بواسطة تجاور الدول الاسلامية التي قامت في جزيرة «صقلية» والربوع الأندلسية.

وفي فرنسة نرى الميل الى الاستشراق بدأ في عصر النهضة، ويبدو ذلك في انشاء اول منبر للدراسات العربية في «كلية فرنسة» عام ١٥٨٧ م.

وفي القرن السابع عشر كانت الأهواء السياسية توجه الدراسات العربية، اذ نرى علماء الملك في الشرق يعدون جمع الدراسات، بجمعهم المخطوطات العربية، ووضعهم ملاحظاتهم الشخصية التي ساعدت على تأليف «هربلو» معجم المكتبة الشرقية الذي ظهرت طبعته الأولى سنة ١٦٩٧ م.

وفي سنة ١٧٨٧ م أمر لويس السادس عشر بتأليف جمعية من العلماء لنشر كنوز مخطوطات «مكتبة باريس الشرقية».

ان قصص الف ليلة وليلة التي جمعها «انطوان جالان» ظهرت طبعتها الأولى بأثني عشر جزءاً، ما بين سنة ١٧٠٤ م وسنة ١٧١٧ م، وهي نتاج علماء الملك في الشرق. وبنجاحها بدأت شهرة القصص الشرقية في القرن الثامن عشر.

وقد جاء في مقدمة التعريف بألف ليلة وليلة: «هي الشرق بعاداته وأخلاقه وأدبائه وشعوبه من الخاصة الى العامة. وهي الصورة الصادقة له، ومن تسنى له أن

يقرأها فكأنه رحل الى الشرق ، فسمعه ورآه ولمسه لمس اليد » .

وسعى الأدباء في فرنسة الى محاكاتها ، مما جعل أثرها يظهر في الكثير من قصصهم ومسرحياتهم .

وفي سنة ١٧٣٢ ألف « جايني » اول كتاب عن حياة « محمد » تقيد فيه بالمصادر العربية ، دون تعليق او دراسة .

هذا هو العمل المتواضع الذي قام به رسل المكتبة الملكية التي فتحت الأفق الواسع للاستشراق الفرنسي في عصر غزو مصر ، وفي بدء القرن التاسع عشر في ظلال مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٧٩٥ م التي يرئسها المستشرق العظيم البارون « دي ساسي » .

وخلال ثلاثين عاماً ظل « دي ساسي » الموجه الأكبر للدراسات الاسلامية والعربية في اوروبا ، كما عمل تدريسه الذي ساد بين ١٨٢٠ م و ١٨٣٠ م على خلق المستشرقين الشبان الذين تألقوا في سماء اوروبا حتى سنة ١٨٦٠ م .

وأما المعلمون المتبحرون من الألمان فقد كانوا زملاء « دي ساسي » وفي فرنسة ذاتها ظلوا يتبعون منهجه .

وأثناء ذلك ، كان استيلاء فرنسة على الجزائر ، فاذا بمصالحها صبغت الدراسات العربية بغايات استعمارية ، غرق فيها الكثير من المستشرقين ، حيث كانت مشاغل الحياة المادية تفرض على هؤلاء المستشرقين أن يختاروا أحد أمرين : إما خدمة وزارة الخارجية بعد دراستهم اللغات العربية والفارسية والتركية في مدرسة اللغات الشرقية ، وإما الوظائف الإدارية في شمالي افريقية .

في الجانب الأول نلاحظ تنوعاً في المعارف تبعاً لانتباه كل عالم ونشاطه ، وفي الجانب الثاني نلاحظ ثقافة صلبة ، متينة ، وأحياناً ، ضيقة الآفاق بالتزامها الدراسات المغربية ، وأشياء خاصة بافريقية .

وفي منتهى القرن التاسع عشر ، كان لتجديد طرائق « درس اللغات والتاريخ وعلم الأديان » أثر بارز في تلقيح طرائق الاستشراق باتجاهات حديثة . فشمول التدريس العالي ووفرة البعثات العلمية – على نقصها – أعطت أهمية خاصة للدراسات الاسلامية المعاصرة ، ووحدة في المنهج ، وأفكاراً جديدة لم تكن معروفة قبل « دي ساسي » .

ان ملاحظة الحياة انما تتم بمعرفة الماضي الذي هو ، بدوره ، عرضة للبحث والتوضيح بواسطة دراسة الأعمال المعاصرة . ومهما كانت سطحية ، حتى الآن ، فان النهضة الفكرية في الشرق تترك أثرها ايضاً في علم

الاستشراق الحديث المتعلق بالدراسات الاسلامية .

ان « دي سامي » الذي عينه الملك واحداً من ثمانية أعضاء في جمعية « نشر كنوز المخطوطات الشرقية » في مكتبة باريس الوطنية، اتجه بميله الاطلاعي الواسع نحو كل ما يتصل بالآثار الاسلامية ، ولكنه وجد أن من الضرورة أن يبني ميله هذا على قاعدة صلبة من « فقه اللغة » ، فرجع الى الائمة الاقدمين في المدرستين الكوفية والبصرية ، وصنف كتابه في النحو « التحفة السنية في علم العربية » في جزءين ، وتداولت الايدي هذا الكتاب زهاء عصر كامل ، ولكن «النحو» الاكثر انتشاراً هو ما وضعه بالفرنسية « الاب بريه » .

وباستثناء الكتاب الذائع «كتاب سيبويه» الذي شرحه ونشره « ديرنبورغ » لا نرى ما يتصل بالنحو العربي الكلاسيكي الا بعض ترجمات لآثار مدرسية ، « كالاجرومية » وألفية ابن مالك » .

ويبقى ، هنالك، وحده كتاب «العروض» العربي الذي وضعه «غوبار» سنة ١٨٧٥م ، وهو يعد الاثر الاول من نوعه ، الذي وضع علم العروض في منزله الاصلي، «الموسيقى».

وفي سنة ١٨٦٠ ألف « كاسيرسكي » معجماً عربياً فرنسياً جزيل الفائدة ، ولا نرى في أية لغة ، معجماً مثله يستجيب الى غنى اللغة العربية وتنوعها .

ان مذهب « اللغويات الحديث قد تطرق الى مبحث اللهجات واللغات العامية ، وتلك آثار « وليم مارسي » في هذا المذهب تتلاقى — بما اتسمت به من منهجية دقيقة ، وبحث عميق واستكشاف بعيد ، وشمول يمتد الى اللغة والتاريخ والحياة الاجتماعية — مع آثار دي سامي .

وفي الحين الذي كانت فيه الكتب العربية المطبوعة قليلة ، اهتم « دي سامي — مع قراءته للمخطوطات — بأن يؤلف مجموعة كلاسيكية مختارة : « Chresto mathic » يجذب بها القراء الى فنون الادب العربي المختلطة ، من شعر ونثر علمي وتاريخ وآثار محدثة ، وان في تعريبه وعرضه النصوص المجموعة خير شاهد على العمل الجدي ، وتنوع المعرفة عند هذا المعلم الخبير بالدراسات العربية في أوروبا .

لم يكن — هنالك — الا بعض مطبوعات مدرسية ضئيلة ، ولكن « دي ساسي » شارك المشارقة في تذوق النثر العلمي بأن جمع ، في طبعة لائقة « مقامات الحريري » مع مقدمة له باللغة العربية ، وتلاه « بار بيي » الذي أعطى آثاراً جذابة من أمثلة النثر العربي ، بينما « مارسي» لم يجمع الا شذوراً عن تاريخ النثر العربي ، ألقاها على طلابه .

ومن الأمانة أن نذكر بأن مجموعة دي

ساسي الكلاسيكية التي تقيد بها من بعده ، طلاب في فرنسة وخارج فرنسة ، اعتمدت في شعر ماقبل الاسلام على مدارس الشرق .

ففي عالم اللغة والأدب ،

أخرج « بوستل » ١٥٠٥/١٥٨١ م أول كتاب في قواعد اللغة العربية بالحرف العربي .

ودافع « دي لاجرانج » ١٧٩٠ — ١٨٩٥ م عن محاسن الشعر العربي بمقالاته وبحوثه المتعددة . وله فيه مجموعة « نخب الأزهار في منتخب الأشعار » .

ووضع « ديومبين » قواعد العربية الفصحى، ١٩٣٧ وهو من أجود كتب النحو.

وألف «كليان هوارت» كتابه الذي لايزال يعد في المراجع ، في تاريخ الادب العربي .

وفي عالم الشعر :

جمع المستشرق « دي سلان » ١٨٣١ ديوان امرىء القيس متناً وترجمة وجمع المستشرق «بوشير» ديوان الفرزدق ١٨٧٠م. وجمع « ديرندبورغ » ديوان النابغة الذبياني. وجمع « ابن شنب » ديوان علقمة الفحل ، وعروة بن الورد ١٩٢٥م . وجمع «بيريس» ديوان كثير عزة في جزءين ووضع كتاباً في الشعر الأندلسي الفصيح في القرن الحادي عشر.

على أن ترجمة «دي ساسي» لكتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي سنة ١٨١٠م فتحت أفقا جديداً على الجغرافيا . وهذا « سيديو » درس الجغرافيا الرياضية عند العرب ، و « رينو » درس تاريخ معارفهم الجغرافية، كما أن فصولا من كتاب «مسالك الابصار » لشهاب الدين العمري ، ترجمها المستشرقان « كازيمر وديومبين » كما ترجم سواهما رحلة ابن بطوطة ، وترجم «باربيي» نصوصاً من كتاب «ياقوت» المتصلة بالفرس، و « فرآند » أعد مجموعة غنية ترجمها عن الجغرافيين العرب ، ودرس تاريخ الجغرافيا العربية .

أما العلوم العربية — ولا سيما الطب — فقد ألف الدكتور « ليكسلير » تاريخ الطب العربي في جزءين سنة ١٨٧٦ م ، وفيه الكثير المقبوس عن « ابن ابي أصيبعة » .

والدكتور «رينو » درس دراسة منهجية الطب الاندلسي ، كما أن « كليان موللي » ترجم لابن العوام كتاب « الفلاحة الاندلسية» في ثلاثة أجزاء .

و « لويس مارسي » جمع وترجم أثراً هاماً عن الخيل العربية .

كما أن « برتلو وهوداس » جمعا آثاراً في الكيمياء العربية ، وترجماها . ولها كتاب « الكيمياء في العصر الوسيط » سنة ١٨٩٣ م .

وفي عالم التاريخ ،

زي « دي ساسي » في مجموعته المختارة بين الأهمية التاريخية لآثار المقريزي وابن

خلدون ، وتوالى على أثره الدارسون الأوروبيون يدرسون المؤرخين المسلمين دراسة وافية ، كانت مهمة في الشرق ، هذه الدراسة التي لم تحتل مكانها الحقيقي حتى الآن .

وهذا « كاترمير » نشر كتاب « سر الخليقة » و « منتخبات من أمثال الميداني » وكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ، وعنه اقتبس تاريخ المماليك ، بعد أن مهد له بمقدمة رائعة ، ونشره سنة ١٨٣٧ م في جزءين ، ونشر مقدمة ابن خلدون ، واللغة العربية وآدابها وجغرافيتها .

وهذا « فريتل » كان أول من عني بعرب الجاهلية تاريخياً وجغرافياً ، وكتابة ، ولهجات ، وفك رموز بعض النقوش السبئية ، وجلا تاريخ اليمن القديم . ١٧٩٥ ، ١٨٩٥ م .

وهذا « رينو » ١٧٩٥ م ١٨٦٧ م ، اقتبس الحروب الصليبية من تاريخ الكامل لابن الأثير .

كما استخلص « ديفرجه » سيرة النبي من تاريخ أبي الفداء ونشرها متناً وترجمة .

ووضع « دي برسفال » أجزل كتبه فائدة « باكورة تاريخ العرب » في ثلاثة مجلدات ، وتكررت طبعته ، وكان مالكاً العربية ، واسع الاطلاع على ماكتب فيها .

ونشر « دي سلان » كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، ونشر مقدمة ابن خلدون متناً وترجمة .

ونشرت فئة من المستشرقين كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفداء .

أما « ديربتورج » الابن فقد نشر مذكرات أسامة بن منقذ ، وكتابه « الاعتبار » كما نشر كتاب الفخري لابن الطقطقي ، والنكت العصرية لعمارة اليمني .

كما نشر « دي ميتار » كتاب « مروج الذهب » للمسعودي متناً وترجمة ، وكتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة متناً وترجمة ، كما أصدر بمعاونة « دي سلان » مجموعة عن مؤرخي الحروب الصليبية في ستة عشر مجلداً ، و « مختارات » من كتاب الروضتين لأبي شامة .

وهذا « بلوشي » ترجم كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » و « تاريخ حلب » لابن العديم .

و « ليفي بروفنال » نشر كتاب « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي ، ونسخة جديدة من أجزاء الذخيرة الثلاثة لابن بسام ، وكتاب « رايات المبرزين ، وشارات المميزين » لابن سعيد المغربي ، وتاريخ اسبانيا المسلمة . وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسي ، وكتاب « نسب قريش » لعبد الله بن مصعب بن الزبير .

وأما المستشرق «كانار» فقد اختص بدراسة الامـــير – سيف الدولة – عشرين سنة ، أسفرت عن مجموعة تاريخية وأدبية جـامعة لاخبار الامير سيف الدولة الحمداني ، وتعـد مرجعاً هاماً من مراجـع الدراسة ، وألف تاريخ السلالة الحمدانية في سورية والجزيرة . وكتب عن المتنبي والحروب البيزنطية العربية .

وكتـــاب « مروج الذهب » للمسعودي نشره وترجمه « باربيي » في تسعة أجزاء، كما ترجم « كارّادي فو » كتـــاب « التنبيه » و « كليات هوارت » ترجم وطبـع كتاب « الخليقة » وتاريخ المقدسي .

كما أن أكاديميـــة الآداب اخرجت اثراً ضخماً عن « الحروب الصليبية » جمعته عن المؤرخين العرب الذين ألفوا في هذا الموضوع، « أمثال أبي الفداء وابن الاثير ، وبدر الدين العيني » في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٧٢ م .

كما ترجـــم « دي سلان » الى الانجليزية روائع من مقدمة ابن خلدون في اربعة أجزاء، كما اعطى « هنري ماسي » جزءاً من فتوح مصر والمغرب « لابن عبـد الحكم » والجزء الثاني من « اخبار مصر » لابن ميسر .

وامـا تاريخ العرب قبل الاسلام ، الذي وضعه « دي برسفال » فقـد ظل أكثر من نصف قرن مرجعاً هاماً لا غنى عنه .

ويحسن بنا الاستشهاد ايضاً ببعض هـــذه الآثار التاريخية من «بلاد العرب» لديفيرجير.

أما فن الآثار الاسلامية القديمة ؛ فهو فن مستحدث اهتم بـه الدارسون منـذ اهتم الفرنسيون بعمارة المشرق في القرن الثامن عشر ، ويعـد « ماكس فون برشيم » السويسري الرائد الأول الذي فتح الطريق الجديدة لدراسة الآثار والخطط الاسلامية ، ثم انطلقوا على آثاره في فرنسة .

وفي المغرب ظلت « الحمراء » لزمن طويل الأثر المعماري الهام وحده ، ولكن منذ سنة ١٩٢٢ م أخذت عمـارات المغرب تلفت أنظار الدارسين . ولم ينسوا أيضـاً دراسة النقود الاسلامية .

فهذا « لافاله » وصف مدنية الاسلام في اسبانيا والقصور العربيـة ، و « لامار » المهندس والعالم بطبقات الأرض ، جلا لنا الاكتشافات الحديثة في الجزيرة العربية ، وبخاصة اليمن .

و « جورج مارسي » أعطى نموذجـاً رائعاً للفن الاسلامي في الاندلس والمغرب .

وأما الدراسات الدينيـة ، فـلم تحظ بالاهتمام الكافي في فرنسة ، على أن ترجمة القرآن – لكاسيرمسكي – على نقصها ، لم يغن عنها شيء .

و « صحيح البخاري » ترجمه «هوداس» على عجل ، في أربعة أجزاء .

وهناك عدة صحائف ترجمها « مارسي» الذي أعطى ترجمة رائعة لكتاب « تقريب

النووي » كما أن « بيليني » درس منه مايتعلق بكتاب « البيع » .

و « لوسياني » يعود له الفضل في نشر كتاب « توحيد الباري » لابن تومرت نثراً متقناً ، و « فاجنان » ترجم كتاب«المزاج» لأبي يوسف يعقوب .

وذلك « دي تاسي » صنف كتاباً في الدين الاسلامي ، وفق القرآن والتعاليم المذهبية والفرائض ، وشرح السورة المجهولة في القرآن وهي سورة « النورين » التي لاوجود لها إلا في نسخة الشيعة سنة ١٨٤٥ م .

وأما الفلسفة الاسلامية ، فقد كانت ، لعدة أسباب ، منزلاً من المنازل الاقل تنقيباً عنه ، فدراسة «رينان» عن ابن رشد والرشديين ظلت منعزلة ، وهو القائل : « لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو ،وله تاريخ اللغات السامية ، وعلاقة النحو العربي بمنطق أرسطو .

والذين عنوا بالفلسفة الاسلامية منهم : «مونك» الذي درس الفارابي والغزالي وابن رشد ، وابن سينا والكندي، ونشر مختارات في الفلسفة العربية و « ليون جونيه » نشر « حي بن يقظان » متناً وترجمة ، وكتاب « فصل المقال » و « تهافت الفلاسفة » .

ولعل البارون « كارادي فو » كان اكثرهم التفاتاً الى عالم الفلسفة ، فقد صنف في فلاسفة العرب ، « الغزالي وابن سينا والإشراق » وألف كتابه المشهور « مفكرو الاسلام » في خمسة أجزاء ، وترجم قصيدة ابن سينا التي مطلعها :

هبطت اليك من المحل الأرفع
ورقـاءُ ذاتُ تدلُّل وتمنُّع

كما ترجم « تائية الفارض » الكبرى .

* * *

وأما جابرييل كولين فقد اختص بدراسة « ابن سينا » وأعماله .

على أن هذا العالم الاسلامي — والعربي — بخاصة قد أوحى بالكثير للكتاب الفرنسيين الذين وصفوا الطبيعة ، وصوروا الناس ، ولا سيما في الشمال الافريقي بحكم اتصالهم السياسي به .

وهذه الكتب التي وضعها أمثال «فورمنتان ودوماس وغيرهما » تعد مراجع قيمة في دراسة المجتمع العربي ، على أن الأولى هو الرجوع الى الآثار العلمية .

وهذا « جوستان » كتب كتباً مفيدة عن « المجتمع السوري » و « العرب في بلاد المغرب » و « الفقراء » و « نابلس » .

و « بوتجان ودياف » أخرجا دراسة اجتماعية روائية في قصة « محمود » صورا بها الحياة الحضرية المصرية .

وكان لدراسة الفولكلور العربي أهمية خاصة عند بعض المستشرقين .

وفي عالم الموسيقى أعطى « فيلولوتون » أول مبحث في « الموسيقى العربية » .

* * *

وقد كان لهؤلاء المستشرقين منازع مختلفة عليها التعصب للعرب أو التعصب على العرب بحكم الهوى ؛ ومن العجب أن يأخذ بعض علمائنا بهذه النظرة لمجرد أنها غربية ، والغربية عندهم مقدسة .

من ذلك أنهم حملوا على المستشرق « سديو » — الذي أعطى خلاصة تاريخ العرب ، واتهموه بالاغراق في تفصيل فضل العرب على الحضارة الأوروبية — وهذا الكتاب ترجمه الاستاذ عادل زعيتر ترجمة كاملة — .

وكانوا اكثر حنقاً على « جوستاف لوبون » الذي هام بحب العرب ، واعتبر هزيمتهم في بلاط الشهداء هزيمة الحضارة . في كتابه المشهور « حضارة العرب » الذي ترجمه عادل زعيتر نفسه. ولوبون هو صاحب هذه الجملة الخالدة « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » .

ولو أن « لوبون » سلك غير هذا المسلك، وتبنى حملة حاقدة على العرب لجعلوه امام المستشرقين ،ولكن الهوى يعمي ويصم !

* * *

والجولة الاخيرة للكتاب العربي تمتد الى ما أعطاه المستشرقون المحدثون ، وفيهم الأحياء الذين لايزالون يواصلون الدراسة .

من هؤلاء المستشرق المعاصر السيد« بلاشير» الذي يعيش الآن مكفوفاً في باريس ، وله آثار ضخمة في عالم الاستشراق ، منها كتابه في الأدب العربي ، وقد عرب الدكتور ابراهيم الكيلاني « الجزء الاول » منه ونشره. ومنها كتابه الذي احدث ضجة كبرى في الشعر العربي حول « المتنبي » بالطريقة التي اتبعها في تصوير مراحل حياته من خلال تسلسل شعره ، وهي الطريقة التي اتبعها بعده الدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » .

وله بعد ذلك ترجمة جديدة للقرآن في ثلاثة أجزاء اشتهرت بتفهم النص العربي بتعمق ، وبحسن التعبير والبيان . وقد قامت عليه قيامة المتعصبين من قومه لأنه أغفل إسناد القرآن الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، باعتباره المؤلف له كما يزعمون ؛ فكان جوابه جواب العالم النبيل ! « اني اخرجت القرآن، كما ورد في النص العربي ، ولم أجده مسنداً الى محمد ، وانما العرب والمسلمون يعتقدون بأنه كلام الله المنزل عليه » .

لكنه ، من جهة ثانية ، وقع في خطأ جسيم ، حين زاد على سورة النجم » مازعم أنه جاء في التنزيل . وهو : « تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى » اشارة الى ان شفاعة هؤلاء الأصنام ، واردة في القرآن ،

ولا ندري كيف سوغ بلاشير لنفسه الاخذ بما وضعته بعض المصادر المشبوهة ، لغاية خبيثة ، وكيف يجيز شفاعة الاصنام ، وهو الذي كان من عمله الأول تحطيمها والقضاء على الوثنية ؟

وهنالك المستشرق الذي يعد إمام المستشرقين « ماسينيون » بكثرة نشاطه ، وغزارة مادته ، وقد انصرف اهتمامه الى دراسة « التصوف الاسلامي » في كتابه « أصالة التصوف في الاسلام » — ومنه انطلق الى دراسة الصوفي « الحلاج » منقباً آثاره ، جامعاً لأخباره ، ناشراً لديوانه . حتى جعل موضوع رسالة الدكتوراه « آلام الحلاج : شهيد التصوف في الاسلام » .

وهنالك المستشرق « لاووست » الذي عاش في سورية — بصورة خاصة — زمناً طويلا ، وقد شغل ادارة المعهد الفرنسي للدراسات الاسلامية بدمشق ، وقد عكف على دراسة « ابن تيمية » علامة دمشق في عهد التتار ، واخرج بعض مؤلفاته القيمة بالعربية وقدم لها ، وترجمها ، وشرح « آراء في مذهب ابن تيمية » . كما ترجم « العمدة » لابن قدامة ترجمة دقيقة ، معززاً كل لفظة بلفظها العربي مكتوباً بالحرف اللاتيني .

وهنالك « ديومبين » الذي كان من آثاره كتاب « قواعد العربيـة الفصحى » سنة ١٩٣٧ م وهو من أجـود كتب النحو ، و « محمد : الرجل ورسالته » سنة ١٩٥٧م ولعل أبرز أعماله نشره لمقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، مصحوباً بترجمة وافية ، وقد مهد لهذه المقدمة بمقدمة رائعة تناول فيها الشعر العربي ، وأتى على جميع مراحـله ، واشكاله وفنونه ، بالاضافة الى تعليقات دقيقة في آخر النص . ولعـل من المفيد أن نراها يوماً منقولة الى العربية .

والمستشرق « شارل بيلات » نشر كتاب التربيع والتدوير للجاحظ ، كما ألف كتابه الرائع : « الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء » ويعد مرجعاً هاماً لمن يدرسون الجاحظ .

وقد ترجمه الدكتور ابراهيم الكيلاني .

ومن هؤلاء المستشرقين « ديو » وهو عالم بالآثار ، كشف عن أقدم كتابة بالخط العربي ، وساعد على كشف الكتابات السبئية الحميرية قبل الاسلام ، وله بحـلة « سيريا » ذات المقالات المستفيضة عن « عرب سورية قبل الاسـلام » وعن « اكتشافات رأس شمرة والعهد القديم » .

و « ساريج » الذي كتب عن الديانات التي سبقت الاسلام في الجزيرة العربية .

و « سوفاجي » الذي درس الآثار العربية — ولا سيما في سورية — وله في مدينة حلب دراسة عن تاريخ المدينة ، حتى أواسط القرن التـاسع عشر ، وهي رسالة في الدكتوراه ، ويعمل الآن الاستاذ فريد جحا على ترجمتها .

وله كتاب العمارة الاسلامية في سورية ، و « مختارات من بغية الطلب لابن العديم » ، وكأنه بهذا ابن من أبناء حلب .

و « ليون برشه » الذي أكثر الطواف حول « الغزالي » وترجم كتاب « الاسلام » وأصول الحكم » لعلي عبد الرازق .

و « مونتابل » الذي جمع « مختارات من الأدب العربي المعاصر » سنة ١٩٦١على أن فضل هؤلاء المستشرقين على العرب — بالاضافة الى عنايتهم بآثارنا القديمة واستحيائها بعد نفض الغبار عنها، ودراستها دراسة حديثة ، وترجمتها ترجمة قويمة — يكمن في تنظيم الكتاب العربي ، وترتيب فصوله ، والتعليق عليه ، وضبط نصوصه ، ثم تذييله بفهارس تتناول المواضيع والأعلام ، والأماكن ، والقوافي ، مما لم يكن له مثيل في تاريخ النشر العربي .

وأما الترجمة ، فهي — مع حرص المترجمين على أمانة النص — لم تخلُ من أخطاء تخلُّ بالمعاني أحياناً ، وذلك يعود الى أن معرفتهم باللغة كانت تخونهم في الوصول الى تفهم عبقرية العربية ، والتواءاتها اللغوية والمجازية .

من ذلك — وهو مما تبقى في ذهني — أن المستشرق « ديمومبين » أراد أن يترجم هذين البيتين لحميد بن ثور :

أرى بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولا يلبث العصران : يوم وليلة
اذا طلبا ، أن يدركا ما تيمما

فترجمها بما معناه:«أرى عيني يخطئانني بعد ما كانتا صافيتين » ان هذا يكفيك أن تبقى سليماً وشاذاً . ان اجزاء الزمان ، الليل والنهار ، لا يلبثان في طراد ، دون أن يدركا غايتها » .

وأين ترجمة البيت الاخير من الأصل الذي يريد أن الليل والنهار لا بد أن يدركا غايتها ما داما يجريان .

ويبدو أن مثل هذه الاخطاء كانت تتكرر في ترجماتهم : والاولى بهم أن يتعاونوا مع أساتذة عرب ، لتقريب روح النص من أفهامهم .

واليوم ، كثر المستشرقون في عصرنا الحديث ، الذين يهمهم الاطلاع على ما تجود به قرائح العرب ، دون النظر الى الغاية السياسية ، ولكنهم جعلوا أكثر وكدهم نقل الأدب المعاصر الى لغاتهم ، شأنهم في ذلك شأن أدبائنا الذين يترجمون الآثار الغربية الى العربية ، لإغناء أدبنا بأدبهم الذي لا يزال أكثر فتوناً واتصالاً بالحياة ، وأبعد مجالاً .

* * *

وهكذا نجد أن الاستشراق الفرنسي أدى خدمة جليلة للكتاب العربي الذي لقي فيه مراداً واسعاً لرحلته الكبرى، سواء ذلك في المكتبات الكبرى، والكليات الشرقية، او في المدن العربية ذاتها التي أنشئت فيها معاهد للدراسة، كالجزائر، والمغرب، وتونس، والقاهرة، ودمشق.

وللاستشراق الفرنسي دور مرموق على صفحات «الموسوعة الاسلامية» وصفحات المجلات الكثيرة التي انفردت بالدراسات الاسلامية والعربية، ومن هذه المجلات:

صحيفة العلماء، والمجلة الآسيوية، والمجلة الأفريقية، ونشرة معهد مصر، والمجلة التونسية، ونشرة المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة، ومجلة «سيريا»، ومجلة الدراسات الاسلامية، ومجلة معهد الآداب العربية في تونس، ومجلة «العربية» مشتملة على اللغة والأدب والتاريخ والحضارة في العالم العربي، درساً ووثائق ونقداً، وأثر الثقافة العربية في الثقافة الفرنسية، وعلى نصوص عربية وخطبات، وهي أغنى المجلات. ثم منشورات مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، والمعهد الفرنسي بدمشق، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط.

ويبدو أن هذه الدراسات قد فارنشاطها في فرنسة، بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، ففي باريس احتلت لها مكاناً مرموقاً في معهد اللغات الشرقية الحية، وفي كلية فرنسة، ومعهد الدراسات العليا، وفي كلية الآداب، ومنذ سنة ١٩٥٧ أدخلت فرنسة على برامجها في التعليم الثانوي، مواد جديدة عن الحضارات الكبرى وتطور الشرق التاريخي، فكان للعرب والاسلام منها حظ وفير. وبعض هذه الكليات فتحت ابوابها للعرب أنفسهم.

على أن معاهد فرنسية عديدة أنشئت لهذا الغرض، على أرض غير فرنسية، في أقطار مختلفة، في استانبول، والجزائر، وتلمسان، وتونس، وقد أسهم معهد الدراسات الفرنسي بدمشق، بنصيب وافر في نشر الدراسات العربية.

وفي كل مكان، نجد الجهود المبذولة تمتد الى أن تضع العاملين، في هذا الحقل، أمام اكتشاف الحقيقة، وأن نجمع تحت عيون الدارسين، تعاليم الحياة مع تعاليم الكتب على خط واحد.

هذه دراسة وجيزة جئت بها على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر والإحاطة بكل

ما جاء في هـذا المجال ، لأن رحلة الكتاب العربي – في عالم الاستشراق – طويـلة وطويلة ، وهي أبعد منالاً من أن يفي بحقها عدة صفحات ضئيلة .

ولي اقتراح أود أن يحفل به الجامعيون، في رحاب الجامعة ، هو أن يعملوا على انشاء كرسي خاص بدراسة علم الاستشراق، بمحاسنه ومساوئه ، وآثاره ، وطرائقه ، وما له وما عليه ، لأننا في حاجة الى أن نعرف آثارنا ، لا كما نراها ، بل كما يراها الآخرون . فهل نحن فاعلون ؟

ان آثارنا مفخرة لنا ، فهـل نهجرها الى غيرنا ، دون أن تكون لنا يد في إحيائها ، ونفض غبار الاهمال عنها ؟



الحسين المقتول في كل مكان *

شعر : خالد محيي الدين البرادعي

الحسين المسافر

لانقذكُمْ من المنفى غادرتُ أمّ القُرى
وأدلجتُ في ليلةٍ خبّأ الثلجُ أطرافَها
وراءَ نياقي الهُزالى
تبطّنتُ أغلفةً من سوادٍ
وأناتكُمْ أوقدتْ في السوادِ ذُبالا

(*) القصيدة التي ألقاها الشاعر في مهرجـان أبي تمام بالموصل ـ العراق ـ في ١٩٧١/١٢/١٠ .

وجاوزتُ من أكلوا دودة النوم ،
والطارحينَ مع الصلواتِ الوجودَ سؤالا
وحيثُ ثويتمْ أراكمْ
وأسمعُ صرخاتِكمْ
ها أنا في رؤاكمْ
إليكمْ أشدُّ الرحالا
وجئتُ لأهدمَ سدًّا
حصرتم أمانيكُمْ خلفَهُ
كلما خارَ منكم قَويٌّ . تَعالى
عبرتُ ممراتِ نجدٍ ، وجدبَ الحجازِ
وجاوزتُ في رحلتي برزخا
بين شِعْرِ الشروقِ ، وصمتِ الغروبِ
إليكمْ ، وفي دورقي بذرةٌ تنشرُ الضوءَ
في ظلماتِ العصورِ ، وفي شفتي قبلةٌ
تنضح شوقاً وحُبّاً ، وفي جعبتي مصحفٌ
زغردتْ بين آياتِهِ الفصولُ
اخضراراً وخصباً
وأزهرَ فيه الزمانُ سيوفاً وخيلا وحبّا

* * *

عبرت الفراتَ .. وقال المرافِقُ : إرْجِعْ
فان الطحالبَ ملءُ الفراتِ .. لنرجعْ
فزيت المساجد ماءٌ
وجمع الرجال هباءٌ
وحمحمة الخيل عرس .. وهذا البكاءْ

نفاقٌ . وهذا الصراخ غناءٌ
أترجعُ ؟ إنظرْ ! بل اسمعْ
صليلُ السيوفِ مظاهرةٌ
والقتالُ بلاغَهْ
وأسلحةُ الحربِ ياغريبُ وليمَهْ
ونادبةُ الشمسِ شاعرةٌ لم تعاصِر عُكاظَ
و « ذي قارَ » أغنيةٌ تشحذُ الألسِنَهْ
لنرجعْ ،
فوجهُ العِراقِ تَخَبَّأ
وضوأ الوجوهِ تَخَبَّأ
والليالي المضاءَهْ
يتامى على دربنا ياحسينُ ، وقاريء قرآنهم طمرتْهُ العباءَهْ
وكوفتهم منبرٌ للكلامِ ومصطبةٌ للقراءَهْ
وأسيافُهُمْ نَبَتَتْ فوقَها الثآليلُ ..
وصارَ الظلامْ
بحيرة أنفاسهمْ .. والعظامْ
نبتتْ لها أجنحَهْ
وأما الذين دَعونا
تواروا بلذة أعراسِهِمْ
بعضهم ساجدٌ لايفيقُ ،
وبعضٌ يرودُ الكنوزَ ،
وبعضٌ يَغُطُّ مع المُرْجِئَهْ
أنا مِنْهُمُ ، والظلامُ قد استهلكَ أحلامَنا الظامِئَهْ
وأبقى على لَحْمِ أفواهِنا
وألسنةٍ دونَها نَيِّئَهْ

لنرجعْ . .
لنرجعْ
وجبت بفرنِ العذابِ وحيدا
وحوصرتُ بين الأكاذيبِ حتى سقطتُ شهيدا

الحسين المقتول

أنا لم أُقْتَلْ ولكني نَدىً
طاف في ثغر رمالِ القَحْطِ . .
في أفواهِ مطرودينَ من أفيائِهِمْ
غَرْقى بأمواجِ الرَّجاءْ
أنا لم أقتلْ ولكنْ أزهرَ الحُلْمُ ببستانِ دَمي
فتدَوْهَجَتْ ارتعاشاتٍ وأصداءَ فِداءْ
أنا إنْ كُنْتُ هُنا . . في كل ما ضَمَّ « الهُنا »
مِنْ فُسْحَةٍ غَلَتْ وَأخرى أجْدَبَتْ
أوْ أنا كُنْتُ هناكْ
حَيْثُ ما ضَمَّ المدَى هذا « الهُناكْ »
شاهِداً أبْقى ، وَأبْقى عَلَماً
يجذبُ الظلمةَ والنورَ الى لَوْحَتِهِ في كلِّ صُبْحٍ وَمَساءْ

أنا باقٍ
إن أكُنْ في بَرَدى أغْرِقْتُ
أو في النيلِ غُيِّبْتُ
وَانْ في بابِلٍ أوْ كَرْبَلاءْ
وَدَمي السائحُ يَبْقَى أيْنَما أمْسَيْتُ
يُسْقي تُرْبَةً جَفَّتْ ونامَ الغَيْمُ فيها
أيْنَما كانَتْ تُسمَّى كَرْبَلاءْ

وكَفي التي اقتُطِعَتْ
لم تَغِبْ
حَمَلَتْ زَخْمَها الأكُفُّ مَطايا
نائحات بباب كلِّ خَليقَهْ
راشحات الجفون ماءً وناراً
نازعات عن الزمان سُجوفَهْ
في مساماتها ولادةُ عصْرٍ
أنا أرعى وُرودَهُ وسيوفَهْ

بعد الغياب

دَمُ المأساة ما زالا
طَرِيّاً تحتَ سور القُدس ، مُزْدَهِراً بباب الشام ،
يرشحُ في بساتين العراق ،
فتلمعُ القطراتُ فوقَ مَدارجِ الأهرام .
اذا التمعتْ بليلٍ موحشٍ نجمَهْ
أو اشتجرتْ رماحُ الريحِ بينَ الضوءِ والظُلْمهْ
أو انتفضتْ سُيوفُ الشمس بَيْنَ السفحِ والقُمَّهْ
يطلُّ دمي بأعراقِ الصعاليكِ
ببسماتِ الصغارِ السائلينَ ملوكَهُمْ
عَنْ مَوْطنِ البَسمَهْ
وَعَنْ انسانِها المَسلوبِ بالتخديرِ
فَوْقَ زَوارِقِ الكلمَهْ
وَقالَ رسولُ الخَليفَةِ : غابَ الحُسَيْنْ
وَأُطفِىءَ ضَوْءُ الحُسَيْنْ
وغابَتْ نجومُ الحُسَيْنْ

وَهَزّ الخليفةُ رأساً لِذئبٍ عَلى منكبَيه
وشَدّ على حَسراتٍ يَدَيه
وقال: غَدرْتُ بقَتلِ الحُسَين
أجَلْ ياخليفةُ، ـ قالت رِمالُ الصحارى ـ
وصمتُ العيونِ بقصرِ الخليفةِ قالَ:
غَدرتَ بقتلِ الحُسَين
وكان الحسينُ بمكّةَ أو كربَلاء
فوزّعَ في النّسغِ والريحِ والزمنِ الذي لم يجيء
وكان وحيداً بمكّه
وصار صديقاً لأطفالِ مصرَ، دمشقَ،
العراقِ، الوجود
وكانَ لعَصرٍ حسينٌ
وأضحى لكلِ العصورِ حُسيْنْ

حضور جديد

وتظهر في الجُلجُلة
مسيحاً جديداً، يجيءُ ليَغسِلَ أخطاءَنا القاتله
وتَحمِلُ مِثلَ الصليبِ القديمِ صليباً جديداً
وتمشي أمامَ الجموعِ وحيداً
تخطّطُ أيامنا المقبله
وتَرفعُ وزرَ الندامةِ عنّا
وتغسِلُ أعيُنَنا من قديمِ الدموعِ
وتملأ بالحبّ أعماقَنا المَحلِه
وتَفتحُ بالزهرِ والشعرِ والقنبلة
دُروبَ الزمانِ، وتَزرعُ في جدبنا سُنبُله

وجئتَ تظللنا في هجير الوجود ،
ونحنُ عراةٌ بكاةٌ ،
ندورُ بعُلبةِ أحلامنا المُقفَلة
ونمشي وراءَكَ يوماً .. ويوماً ..
وتتعبُ أقدامُنا الذابلة
فتمضي إلى الصلبِ قربانَنا
كما كنتَ في كربَلاءَ ..
كما كنتَ في الجُلجُلة
ونكتبُ في أمهاتِ الدفاترِ
أنّ مسيحاً جديداً قتلناهُ يوماً ،
وهدمَ كُهانُنا هيكلَه

الحلم المقدس

فإن ظهرتَ مرّةً لتوقظَ النيامْ
من بعدِ ما طُردتَ من أرضكَ يا حُسينْ
وبعدَ ما قُتلتَ مرّةً ومرّةً ومرّهْ ...
في القدْسِ أوْ في الكوفةِ أو في الشامْ
وبعدما صُلبتَ في الجليلِ أو في عتمةِ الأهرامْ
وبعدما
جُررتَ في شوارعِ المدائنِ المخلوعهْ
وبعدما
أطعمَكَ الخليفهْ
لمخالبَ الفراتِ والدجلةِ والنيلِ ..
وجفّ الماءُ من روافدِ الشريعهْ
— وظاهرٌ لا بدّ أنتَ يا حسينْ

فصادقِ الصغارْ
وقبّل البراعمَ النديّهْ
والاكبدُ الفتيهْ
وانسَ الربابةَ العجائزَ
والبحارَ السودَ والطرُقَ القديمهْ
ومنائرَ السفُنِ القديمهْ
وعجائزَ السفُنِ القديمهْ
وافتحْ صحيفةَ حلمِكَ القدسيّ درباً للصغارْ
فصغارُنا سألوا . وأنت مجيبُهمْ
من بعد ما اختنقَ الكبارْ

كانون الاول ١٩٧١



قصائد

أيمن أبو شعر

الماسة السوداء

أنجيلا ..

أنجيلا ..

الطبلُ يدقُ . يدورُ الفزعُ النائمُ

يرقصُ حولَ النارْ

أنجيلا ..

ويطيرُ النورَسُ فوقَ الشطِ

ليرسم فوقَ الموجِ شِعارْ

أنجيلا ..
تنشّين ضمير فوق الاسطول السابع ينهض
وزجاجة حبر أحمر سالت فوق ملفّات البيت الابيض
أنجيلا ..
يالوحة مجد في كل عيون المظلومين ـ نداء ـ تُعرّض
أنجيلا ..
واحترق اللون المسعور بجوف القاعه
وإنطلق الصوت ليركب فرسه
فتحوّل وهج ضمير العالم عدسه
رسمت في جفن التاريخ الصوره
صورة أعماق الانسان
كان النور يغطي القاعة بالإيمان
فارتاع الليل وأغمض
وارتد الحكم الى ألسنة الحكام
أنجيلا .. كانت تشدو .. تدحض
وعدسة التاريخ تسجّل أعماق الانسان
فاذا صورة كل الحكام مسودّة ..
واذا .. أنجيلا .. وسط القاعة
باللون الابيض

* * *

تمثال الحرية

قيل ...
يقال ...
عن نصب في أمريكا ...

يُدعى الصَنمُ الجوّالْ
في الليلِ يُجرِّدُ روحاً يخرجُ من جَسَدِ الحجر
يطوفُ العالمَ والادغالْ
يتهادى في مدنِ البؤسِ ويقرعُ ابوابَ
الاكواخِ الخشبيةِ ينشدُ في العمالْ
ويزورُ – الفيتنامَ – وتشيلي – والاغوارَ فيرتسمُ
شعاعَ الاملِ بعينِ الابطالْ ..
يتقمّصُ جُنْحَ الليلِ .. ويعبُرُ زنزاناتِ اليأسِ – روديسيا –
كي يمسحَ ألوانَ الاغلالْ
يتحوّلُ .. يافطةً .. وهتافاً .. يمتزجُ بحبرِ المنشوراتِ السريّه ..
بيتاً من شعرٍ يتحدى ..
لحناً اسطوريَّ النغمِ تُردِّدهُ كلُّ الآلاتِ الموسيقيه
وحروفاً موطنُها الانسانُ بكلِ مكانٍ « حريه »
وقبلَ يعودُ . يصيرُ الحلمَ الدافِىءَ في دارِ الايتام
يُغني .. للأطفالْ
حينَ الاخبارُ تقطّبُ جبهةَ أمريكا ..
تنفَجِرُ الفرحةُ في شفتيه برغمِ الصخرِ
وحين تقهقِهُ أمريكا .. يبكي التِمثالْ ..

* * *

<u>الشهيدة</u>

أميرتي . صبيةٌ شقيّةُ الجمالْ .
كريمةٌ كبنتِ حاتمٍ .. غزيرَةُ الخِلالْ ..
تقاطَرَ الضيوفُ نحوَها وبعد أنْ
تبخّرَتْ مواسِمُ الغِلالْ

وقدمت حظائرَ الخرافِ والخيولِ ..
والجمالْ
تنهّدتْ وفي عيونِها ابتسامةٌ وقدْ دنا العشاءْ
.. وكيفَ للضيوفِ أنْ تنامَ طاويهْ
لابدَّ من طعامْ .

* * *

وفي وليمةِ المساءِ كانَ زوجُها على الصحونْ
وطفلُها فواكِهَ المجونْ
وفي الحساءِ مرقةُ العيونْ

* * *

توسّدَ الضيوفُ في الخيامْ
وفي العراءِ وحدَها تنامْ
وحينَ أدركَ الرجالُ أنّها وحيدةٌ تنامْ
تفرّسَ العيونَ جامحُ الأرقْ
وضجَّ في العروقِ يلهثُ الشبَقْ
تناوبوا النّسالَ المريبَ في الظلامْ

* * *

وعند جبهةِ الصباحْ
تجمّعَ المسافرونَ حولَ جثّةٍ نديةِ الجراحْ
وعاينَ الطبيبُ نهدَها وساقَها
وحولَهُ المسافرونَ يقسمون أنّهُ القضاءُ والقدرْ
وألفُ نطفةٍ برحمِها تكذّبُ الخبرْ
وحينَ أعلنَ الطبيبُ أنها جريمةُ الضيوفْ
وخنجرُ البداوةِ استباحَ عِفّةَ الحضرْ
شُيّعَ الطبيبُ في المساءْ ..
وقيلَ ... أنّه انتحرْ ..

* * *

نـداء

تسافرُ الظنونُ في عيونكِ الجميله
يسافرُ الزمانُ والمكانُ فوقَ هدبك الخميله
وأنت لا حراكَ ...
يمرُّ موكبُ المتيمينَ كلُّ عاشقٍ يودُّ قبلةً
فتمنحين
وربّ داعبَتْ أناملُ اليدينِ نهدَكِ الصغيرَ ..
تبسمين
الى متى يظلُّ خصرُكِ النحيلُ مسرحَ الفحوله
وكل من أتوكِ . قد أتوكِ فاتحينَ عاشقين
وغادروكِ خائنين
متى ستعرفين كيفَ تعشقين
جميلةُ ....؟
.. جميلة ..
تحركي وليستحمُ نهدُكِ الطعينُ في بحيرةِ البطوله
وعمّدي نداءَ طفلكِ الوديعِ بالرجوله
وأنشدي .. وعانقي الضياءَ ، راقصي العبيرَ في الحقولِ ، غرّدي
مع الطيورِ ، واركضي كطفلةٍ غريرةٍ تسابقُ الفراشَ
ثم مشّطي الجديلة ..
...... لكي تعودَ للمساءِ ضحكةُ الطفوله

★ ★ ★

د . شكري فيصل

الوحدة .. قضايا ومواقف

مدخل :

حين أخذت أقرأ عدد المعرفة على نية المراجعة تتابعت في ذهني سلسلة من الاسئلة وأحسست بها أحياناً على طرف لساني ، وتوقفت عند بعضها مرة ثم جاوزته ، ثم عدت أتوقف عنده .. ووجدتني بعد طوفة طويلة استقر عند هذه الاسئلة الاربعة : سؤالان يتصلان بالمبدأ، وسؤالان يتصلان بالطريق :

١ — هل من حقنا ان نناقش آراء الآخرين ؟

٢ — اذا فعلنا ، فما هو المقياس المشترك الذي نستطيع ان نلتزمه في هذه المناقشة

٣ — وكيف ؟ هل تتناول المناقشة المقالات ، مقالا إثر مقال ؟ ام ماذا ؟

٤ — وبعد هذا ، هل يمكن تصنيف القضايا ، والمواقف المتماثلة من هذه القضايا ، التي يتداولها هذا العدد الكبير من الباحثين ، في هذه المئات من الصفحات ؟ !

وانتهيت في أعقاب حوار داخلي طويل ، ضاعت مني اكثر أجزائه ، الى هذه الأجوبة :

عن السؤال الأول :

ليس من الضروري أن يكون هناك مناقشة.هناك العرض، والتعليق ،والاستدراك والملاحظة . ومناقشة الآخرين لا تعني بحال تخطئتهم .. وانما هي نوع من الحوار وطريق الى الاغناء والاغتناء .

والفكرة المشتركة الغالبة التي هي فكرة الوحدة أجدر الافكار المعاصرة أن تجمع الناس على التمثل السليم لها ، والسير الجاد لتحقيقها .

وعلى ذلك تجاوز هذه المناقشة — الحوار أن تكون حقاً إلى ان تكون واجباً ، تحده تقاليدنا الأصيلة في آداب المناظرة والحوار والجدل .

عن السؤال الثاني :

من العسير ان يكون هنالك هذا المقياس المشترك سابقاً على الحوار..لأنالوصول الى هذا المقياس هو هدف هذا الحوار وهو غايته .. المقياس المشترك يعني التطابقالكامل، ونحن انما ننشد هذا التطابق الكامل او المتكامل ، ونسعى اليه .

ومن هنا فانه ليس من حقنا ان تعتبر ان ماترتأيه هو المقياس الذي نقيس به آراء الآخرين الا في حدود قناعاتنا الأولى .. أقول قناعاتنا الاولى لأن هذه القناعات ذاتهاقد تكون موضع نقاش من قبل الآخرين .

ومن هنا أيضاً يبدو أن وضع مقياس متقدم قد يكون يحمل شيئاً من التحكم والفرض والرأي المسبق . والحوار المفتوح ينأى عن ذلك .

عن السؤالين الثالث والرابع :

يبدو أنه لابد من الأخذ بالاتجاهين معاً . فنتناول المراجعة الكلمات والمقالات أو اكثرها ، واحدة بعد اخرى . ثم ترتد فنتناول القضايا المشتركة التي تبدو وكأنها هي القضايا التي تطرحها الوحدة وهي التي تشغل أذهان العاملين في الحقل القومي .

وفي ضوء من هذا التمهيد يمضي المراجع ، كما يمضي القارىء على بينة وهدي.

١ ــ على طريق الوحدة العربية ــ فوزي الكيالي

المقال ــ الكلمة التي يقدم فيه الاستاذ فوزي الكيالي عدداً عن الوحدة، تصدره الوزارة التي ينهض بها ، وتطرح فيه هذا الموضوع الغالي بغية اغنائه ، التزاماً منه هو بما يؤمن به ، والتزاماً من الوزارة والمجلة بالعمل له ووفاء بهذا الالتزام ؛ المقال ــ الكلمة هنا لابد أن يأتي تكثيفاً لأبرز النقاط الرئيسية التي تؤلف صلب الموضوع .

ولهذا تحدث الاستاذ الكيالي ــ أو عرض الحديث خاطفاً ــ عن هذه النقاط التالية :

١ ــ الجماهير ومعاناتها للوحدة
٢ ــ الثورة تعني الوحدة
٣ ــ الوحدة هي الخط الاخير في معركة البقاء

الاستاذ الكيالي لايناقش هذه النقاط وانما يعرضها على انها بواعث « لاعادة طرح قضية الوحدة بكل ابعادها طرحاً موضوعياً » ولتقديم هذه الدراسات الكثيرة . أفيحق لنا ، وهذا هو الوضع ، ان نبدأ مراجعة العدد من هنا ؟

لعل الفرصة آتية مرة أخرى في خاتمة العدد اللاتقاء بالاستاذ في الندوة التي عقدتها المجلة ، لقاء اطول من هذا الذي كان في فاتحة العدد .

ومع ذلك فان الحوار هنا ، او قدراً منه ، يفرض نفسه حين يقرأ الانسان ، أو حين يعاود قراءة الجملة التالية عن الوحدة والجماهير .

لازالت الوحدة بالنسبة للعدد الاكبر من المواطنــين ، مجرد حديث يروى او يكتب ، وشعار يهتف به ويصفق لها ، اكثر منها معاناة يومية تستقطب الاهتمام وتستأثر بالتفكير وتتحكم في السلوك بحيث تؤدي الى خلق انقلاب عميق .

هل يملك المرء هنا الا ان يتساءل : أهي الجماهير ، أم هي القيادات ؟ ألا تعــاني الجماهير ، ماوسعها ذلك ، احساسها العارم بالوحدة؟ ألا تستقطب اهتمامها وتستأثر بتفكيرها وتتحكم بسلوكها ؟ .. ألم تكن مفتاح حركات كثيرة الى عقول الناس وقلوبهم حــين استعصت كل المفاتيح الاخرى ؟

ومن هم الذين يحيلون الوحدة حديثاً يروى ويكتب ، وشعاراً يهتف به ويصفق له ؟ أهم الناس ، عامة الناس وكتلتهم الكبرى أم هم أولئك الذين يمسكون بقياد الجماهير ؟

لعله مامن شعب آخر يعاني أمر وحدته كما يعانيها الشعب العربي .

ولعله مامن شعب آخر كذلك توضع العراقيل في طريق وحدته من داخل ومن خارج كما توضع العراقيل في طريق الشعب العربي.

ولعله لاتتلاقى هذه العراقيل الداخلية والخارجية لقاءاً عفوياً او غير عفوي كما تتلاقى هذا الموضوع .

ان واحدة من أبرز قضايا الوحدة التي يطرحها الأستاذ الكيالي في البداية قضية انجازها .. والجماهير في ظني ليست هي المتهمة في التقصير نحوها .. انها راغبة فيها ، ولكن بعضاً من الذين يركبون أعناق الجماهير يلوون هذه الأعناق عن هذه الوجهة .. ان صوتها أحب الأصوات الى الجماهير ولذلك فان التصفيق لها ينطلق من القلب ، ونداءها أحلى النداء وأعمقه نفاذاً وأشده وقعاً .. انها أقصر الطرق الى عقل الجماهير وقلبها في المشرق والمغرب على السواء .

الكلمة الواحدة في أعقاب ٦٧ التي كنا نسمعها في الجناح المغربي : افسحوا لنا الطريق .. والسؤال الآسي الغاضب الذي كان يدور على كل لسان : كيف نُهزم ونحن هذه الملايين . هذه المئة من الملايين أو تزيد ..

ان انساناً ما في أية من البلاد العربية لم يكن يتحدث عن « أنا » .. كان هناك دائماً هذا الحديث عن « نحن » .. أما من هم الذين يفتتون « نحن » هـذه الى مجموعة من « الأنا » المتفرقة المتدابرة فذلك أمر آخر .

مهما يكن من شيء فالقارىء يحس في هذه المقاطع القصيرة التي يقدم فيها الأستاذ الكيالي العدد أنه أمام انسان تثقل قلمه الكلمات على نحو ما تثقل ضميره المواقف والقضايا .. كلماته التي ينطلق بها دون الذي يضطرم في عالمه الداخـلي .. ولذلك لا تعبر الكلمات، كلماته الأولى عن مسؤوليـة الجماهير ، عن الذي يريد بمقدار ما تعبر عن ذلك كلماته الأخيرة من « ان نضالنا من أجل الوحدة لم يصل بعـد في حدته وقوته الى مستوى من يقاتل دفاعاً عن حقه الاخير في معركة البقاء » .

أما بين هذا وذاك ، بين الكلمات الاولى والاخيرة ، هـذا الاحساس الصادق المتواضع في انه « يقدم هذا العدد اسهاماً متواضعاً في سبيل اعادة طرح قضية الوحدة طرحاً علمياً بعيداً عن المزاودات اللفظية والآراء الشعارية » .

الى أي حد استطاع العدد أن يفعل ؟ أكانت مقالاتـه دائماً مع الطرح العلمي ؟ أكان هناك في بعض الصفحات وعلى بعض الاقلام هذه الغلبة الشعارات ؟

لعل ذلك أن يتكشف من خـلال المراجعة دون حرص على النص عليـه والاشارة اليه .

٢ – الوحدة العربية ضرورة استراتيجية – اللواء الركن مصطفى طلاس

الطابع البارز الذي يبهر القارىء هنا يتمثل في شيئين متكاملين ، المنطق الواضح والامثلة الحية من التاريخ . . أو لعلها شيء واحـد : المثال الحي الذي يقود الى وضوح المنطق .

ان في وسع الكثيرين أن يتحدثوا في المجال النظري وأن يفلسفوا الامور على نحو ما توحي اليهم به آراؤهم وأمزجتهم وثقافاتهم ودراساتهم .. ولكنهم قلة اولئك الذين يستطيعون أن يتجاوزوا هذه الجوانب النظرية الى الواقع ، أو لتنقل الى صميم الواقع ، ليلتقي على جانبي ما يكتبون النظر والعمل معاً .

ان المقال القصير يتوقف عند اشارات سريعة الى ما تقدمه الوحدة للحق ، وما تقدمه للحضارة .

انها تقدم للحق المهدور في فلسطين فرصة اعادته لاصحابه

وتقدم للحضارة المعطلة الكسيحة في الوطن العربي فرصة انطلاقها وفعاليتها .

وحين يكون الحديث عن الوحـدة ، على لسان مسؤول ، مشدوداً الى الحق والى الحضارة فانه يعطي الحركة الوحدوية بعض أبعادها الرئيسية ومحاورها الاصيلة

ان الوحدة تعني القوة ، ولكن القوة لاتعني التدمير وانما تعني في عرف القوميين منذ حطم الرئيس عبد الناصر الدعوة الى السلام المطلق الخواء ليحييه مرة اخرى دعوة الى السلام مقروناً الى العدل (السلام القائم على العدل) – رد الامور الى نصابها ، وتحريك هذه القوى العربية المستضعفة التي كان لها اسهام حضاري أصيل ، مرة أخرى في طريق هذه الحضارة : لحاقاً بها ومتابعة لها ومشاركة فيها .

بقي ان المقال يتحدث ، على نحو ماتحدث المقال السابق ، عن « صب الجهود في تيار الوحدة لتحريك الرأي العام ودفعه نحو الهدف »

وكذلك نجدنا مرة أخرى نطرح السؤال نفسه : هل الرأي العام العربي بجمهرته هو الذي يحتاج الى هذا التحريك والى هذا الدفع ، أم هي القوى التي تمسك بقياده ؟

في ظني ، دون أن أمثّل أو أملّ ، ان القضية ليست قضية الرأي العام العربي .. انما قضية القائمين عليه .. وهذه هي المسألة كما يقولون .

٣ – القومية ودولة الوحدة ، تعريفات عامة – د . احسان هندي

هل كان عمل قلم التحرير حين وضع هذا المقال « القوميةودولة الوحدة :تعريفات عامة » في مكانه هنا عملا هادفاً .

ما أشك .. ذلك ان في لغتنا القومية هذه الطائفة من المصطلحات والتعريفات التي لابد لها من ان تكون واضحة في أذهان الجمهرة من الذين يتتبعون هذه الموضوعات .. فالاتفاق على التعاريف هو الخطوة الضرورية الاولى في طريق فكرية مشتركة .

ومن هنا كان هذا التوفيق الذي أصابه د. هنـــدي مرة ، وأصابه قلم التحريرمرة أخرى ولقد جاء المقال في قسمين :

في القسم النظري : حدد الكاتب مفهوم القومية والامـة والدولة وما يتصل بهـا الفاظ وتعابير .

وفي القسم التطبيقي تحدث عن هذه المفاهيم فيدولة الوحدة العربية العتيدة ، وساقه ذلك الى الحديث عن نوعي الاتحاد : الفيدرالي والكونفيدرالي .

واستطاع الكاتب في القسم النظري أن يجادر ، في مرات ، برودة التعاريف بما تثيره الامثلة من حيوية وما يبعثه الحرص على الوضوح من مقارنات .

غير انحرارة المقالترتفع في الصفحاتالاخيرة منه حيث تزدحم الآراء وتتضح المشاكل وبخاصة حين يطرح موضع الاتحاد العربي من انواع الاتحادات : الفيدراليــة والكونفيدرالية .

ان المقال ينتهي الى النتائج الثلاثة التالية :

١ – يجنح الكاتب الى النظام الفيدرالي :

لأنه يؤمن حداً من التوحيد لا تؤمنه الكونفيدرالية من جهة ، ولأنه يسمح لكل دولة عضو بأن تحافظ على شيء من خصائصها وطابعها من جهة ثانية لأن الوحدة الاندماجية الفورية يمكن ألا تلائم دولة عاشت منفصلة ، بعضها عن بعض ، قرناً من الزمن على الاقل ، كحالة الدول العربية .

٢ — يجنح الكاتب الى تفضيل النظام الجمهوري

لأنه يوزع السلطات والاختصاصات بشكل يقف حائلا دون نشوء أية نزعة فردية للانفراد بالحكم .

٣ — يحصر السيادة في الوطن العربي بالامة العربية :

ضمن نطاق حق بقية القوميات الصغيرة التي تعيش بين ظهرانينا — الاكراد ، البربر ، الارمن ، الشركس ، التركمان ، الاشوريون — في متابعة المعيشة في الوطن العربي والتمتع بخيراته دون أن تنازع في حق الأمة العربية في السيادة وذلك وفاء من هذه القوميات لما قدمه العرب لهم ووفاء من العرب لمثلهم وتجاوباً مع طبيعة القومية العربية التي لا تؤمن بالاعراق والدماء وانما تؤمن بالوفاء والولاء.

وحين ينتهي الاستاذ الكاتب الى هذه الخواتيم المكثفة فانه يثير كبريات المشكلات ويضع حلولها في آن واحد وفي حيز ضيق لايبلغ الصفحتين .. انه يعطي هـــذه الحلول طابعاً تبسيطياً قد لا تكون الظروف دائماً مساعدة عليه أو مسعفة فيه .

واذا كنا نتفق مثلا على النظام الجمهوري الذي يحد من نشوء النزعة الفردية ، أفلا يبدو أن تفضيل النظام الفيدرالي على الوحدة الاندماجية مثار جدل وبخاصة حين يكون هذا هو التعليل : المحافظة على شيء من الخصائص ؟.. ألا يوحي هـذا بخصائص مميزة ، وجودها — أياً كان سببه — ينافي الوحدة التي نعمل لها ؟.

واذا كان العرب اوفياء لاخوانهم الذين يساكنونهم الارض ويقاسمونهم الحيـاة فماذا يكون موقف بعض هذه القوميات الصغرى التي تأبى أن ترتضي هذا المنطق ؟.. ألسنا هنا في حاجة الى أرض مشتركة نقف جميعاً عليها ؟.

وهل الأمر بيننا وبين أخواننا ، أم أنه بيننا وبين القوى الاخرى التي تثير هؤلاء الاخوان ، أو هو بيننا وبين بعض النزعات التي يها تيار هؤلاء الاخوان ؟.

ان الذين يعرفون د . هندي ويتابعون جهوده المتصلة في نطاق الابحاث الوطنية وفي نطاق الابحاث القومية : في نطاق الماضي وفي نطاق الحاضر ، يتمنون لو أنه — وقد تجاوز التعريفات الى الواقع — أعطى هذا الواقع — أو أن يعطيه في مقال آخر — قدراً أكبر من الاهتمام والدراسة .. لان تبسيط الامور لايعني دائماً حلها ، وان يكن يعني أنه أول الثقة بالقدرة على حلها .

٤ — الوحدة العربية في تجلياتها عبر التاريخ — أنور الرفاعي

يزدحم مقال الاستاذ الرفاعي بالكثير .. بالكثير من الرأي ، والكثير من الاقناع ، والكثير من البرهان ، والكثير من النظريات .. ويستخدم التاريخ كما يستخدم العاطفة ، وينطلق من الواقع كما ينطلق من الافكار والانظار المفترضة .. انه في جملته تعبير عن حيوية دافقة تضرب في كل اتجاه .

انه يتحدث عن الاحساس بالوحدة اليوم ، وعن التجليات القديمة للوحدة عبر التاريخ ، ويضطره ذلك الى الاتكاء على هذه النظرية الحقة التي أخذت طريقها الى الذهن العربي منذ أن نشر واحد من أكبر رواد الوحدة العربية . ورجالها هو الاستاذ محب الدين الخطيب عليه رحمة الله ورضوانه — كتابه : اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب(١) . ثم نسيه اربعين عاماً الفكر العربي ليعود اليه في السنوات الاخيرة مع هذا الباحث أوذاك .

---

(١) كتاب صغير ، لاتتجاوز مادة البحث الاصلي فيه خمسين صفحة من القطع الصغير كتبه صاحبه من نحو من خمسين سنة جعل عنوانه هكذا : اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب .

وبحث تاريخي في المجرات العربية منذ ستة آلاف سنة الى العراق والشام خاصة والبلاد السامية عامة وفي ان اصل الكلدانيين والفينيقيين من العرب .

انطلق فيه من مقال لـ « توينبي » في جريدة منشستر غارديان « ٢٩ ديسمبر ١٩٢٥ » وكسره على سبعة فصول ،

الفصل الاول عن : الموجة الاولى — الى العراق سنة ٣٦٠٠ ق . م

الفصل الثـاني عن : الموجة الثانية — الفينيقيون سنة ٢٦٠٠ ق . م =

ان المقال يؤكد على هذه الموازاة بين عربي وسامي ، ويجعل الموجات السامية موجات عربية تدفقت من الجزيرة — والجزيرة كالقلب النابض — دفقة بعد أخرى ، وسكنت في كل مرة قطر واتخذت في كل مرة وطناً .. جملة هذه الاقطار والاوطان هي أقطار العربية اليوم وأوطانها .. أما الاسماء التي اتخذتها هذه الشعوب فهي :

« اسماء اطلقت على شعوب من جنس واحد ، نشأت على لسان العامة ، من لقب لحق بجد من الاجداد ، أو من النسبة الى مكان من الامكنة ، أو لصفة من الصفات ، فالأكادي منسوب إلى مدينة أكاد .. آخر ص ٢٧ ، أوهي « اسماء جديدة اتخذتها هذه المجموعات البشرية ، كما يتخذ الاولاد أسماءمميزة ، لاينفي اختلافها وتعددها صلتهم بالأب المشترك ، وانما لابد لذلك للتعريف بها . ص ٣٣ ، اول العمود . »

وأما المواطن التي نزلتها فهي : « بلاد مابين النهرين وبلاد الشام ومصر مع وادي النيل عبر سيناء أو القرن الافريقي والتي ذهبت عناصر منهـا الى شمال افريقية فحملت الدم العربي الى قارطاجة ومنها الى حوض البحر المتوسط الغربي .. ولا حاجة بنا لتعداد هذه الهجرات وبيان تاريخ حدوثها التقريبي ص ٣١ — ٣٢ .. »

الحديث عن هذه المساواة أو الموازاة بين عربي وسامي قادت البحث في جوانب أخرى ، مهد الجنس العربي ، ومواطن الجنس العربي .

= الفصل الثالث عن : الموجة الثالثة — قوم حموراني سنة ١٦٠٠ ق.م

الفصل الرابع عن : الموجة الرابعة — الهجرات الاسماعيلية سنة ٦٠٠ ق.م

الفصل الخامس عن : الموجات الأخيرة في التاريخ الماضي

الفصل السادس عن : نظرة في اللغات السامية

الفصل السابع عن : الوطن الاول للساميين

قلت ان الكتاب نشر منذ نحو نصف قرن ولكن العرب لايقرؤون او ان الذين يقرؤون منهم ينسون ، ويحتاجون مع كل دورة وحكم وحركة ان يعاودوا الحديث من جذوره الاولى الفروعه الاخيرة . وويح للعرب من فقدان الاستمرار وضعف الذاكرة وتنكر ان البدايات .

وعلى أن في هذه المسائل قدراً من الخلاف يوشك ان يكون كبيراً أحياناً فقد تكفل الاستاذ الرفاعي في هذا المقال ، او لنكن أكثر دقة وانصافاً في هذا البحث ، بأن عرض لنا أوجه الخلاف ورجح جانب الكثرة .

ومن المؤكد أنه في بحث محدود الصفحات لا يسع الكاتب كل ما يحسن أن يقال ، ولهذا يحس القارىء ان الاستاذ الرفاعي تخلى عن جوانب من بحثه مكتفياً بالاشارة اليها أو الاحالة عليها (ص ٣٢ : تعداد الهجرات) .

ولعل أبرز هذه المسائل تلك التي تتعلق بأصل كلمة عربي ، وكيف دار استعمال هذه اللفظة مع الزمن . ان الاستاذ الرفاعي يكتفي بأن يقول : « لا نريد الغوص في أعماق التاريخ لنكشف النقاب عن أصل كلمة عربي .. ونسجل أول مرة استعملت فيها هذه الكلمة .. لان المهم أن هذا الاصطلاح درج على ألسنة الناس منذ عهد لا يمكن تحديده .

وفي يقيني أن تتبع لفظة « عربي » يلقي ضوءاً كبيراً على موضوع الهجرات السامية — العربية واذكر أن رسالة الاستاذ الدكتور محمود الغول — ضيف سورية ، من قبل والاستاذ في الجامعة الاميريكية اليوم — كانت حول هذا الموضوع حول العرب في المصادر اليونانية او المصادر اليونانية واللاتينية .. ولكن الاستاذ الغول لم ينشر بحثه بالعربية والمعنيون بالفكر العربي أو النشر العربي معنيون بالذي هو أدنى .

تمنيت لو ان الاستاذ الرفاعي افرد لحديث عن النظرية السائدة في تقسيم العرب الى بائدة وعاربة ومستعربة وعن نظريته التي تذهب مذهباً آخر في التقسيم ، العرب القدماء والعرب الجاهليين والعرب المسلمين — مجالاً خاصاً . ان تقسيمه الجديد مغر بكثير من الحديث حوله ، ووجه الجدة فيه أنه يضع العرب المسلمين من هذه السلسلة في حيز خاص لان هذه الهجرة الاخيرة تمتاز عن كل هجرة سابقة عليها لانها كان وراءها رسالة تنشر وعقيدة يدعى اليها ، ولغة أوشكت أن تكون وحدها لغة العالم المتمدن خلال قرون ، ومحاولة لتكوين مجتمع انساني موحد رياداته للعرب ولغته لهم وعقيدته للاسلام وأسسه وأهدافه هي هذه الاسس والاهداف التي اجمعت عليها الانسانية وارتضتها .

ترى هل يفعل الاستاذ الرفاعي ذلك ؟ .

٥ – الوحدة العربية بين الصيرورة والوجود – د . احمد طربين

مدخل المقال كان هـذا الارتداد بالوحـدة والحرية والاشتراكية ، مضافاً اليها المساواة ، الى اصولها الاولى في الحياة العربية .

ولأن المقال مخصص للوحدة وحدها فان د . طربين لم يلبث ان ارتد اليها وأخذ يتحدث عنهـا – في ايجـاز شديد هو اقرب الى التمثيل – في العصر الوسيط أيام صلاح الدين « حين خرج المغلوبون من القدس تحت ظلال سيوفه » .

ومثل هذا العودالى الماضي ، في بدء الاسلام ثم في عصر صلاح الدين ، يبدو أمراً طبيعياً عند استاذ معني بتاريخ العرب الحديث . ذلك انه لاغنى له عن أن يبدأ هـذا الحاضر من ماضيه أو من بعض النقاط من ماضيه .

والحس التاريخي موصولا بغلبة الاختصاص قادت الباحث الى ان تكون وقفته التاريخية الأطول عند الأمة العربية في العهد العثماني .

والحس العلمي الدقيق انتهى به الى هذه النتيجة : اذا كان العصر العثماني قد أورث العرب جموداً فكرياً وتخلفاً حضارياً ، فانه حفظ عليهم وحدتهم السياسية .

غير ان الغزوة الاستعمارية الشرسة هي التي فتتت هذه الوحدة الى « خمس وعشرين وحدة سياسية ترزح تحت حكم الفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والاسبان في آسيا العربية وافريقية العربية أول ص ٤٣ »

ومن هنا كان المدخل الى نشوء النزعات الاقليمية . فمع التقسيمات الاستعمارية (فقدت الاقطار العربية حرية التواصل والترابط وتوقفت عملية الصهر والاندماج والتماثل التي كانت تجري عبر العصور) .

ويتابع البحث نحو اوضاع التجزئة وتأخر الوحدة ويرى أن الحرب العالمية الثانية ألقت على الفكر العربي مهمات عديدة تتصل بالحياة الاجتماعية .

وعنده ان تجربة الجامعة جاءت لتثبت « بشكل حاسم ان تعاون الحكومـات العربية كان يتحطم على صخرة السياسة الفردية وعلى صعيد العلاقات الدولية مع العالم الخارجي أول ص ٤٥ »

ثم يمضي يتحدث عن الوحدة وعن محادثات بغداد وعن أحداث العراق والأحداث

الأخرى في اليمن ، وانعكاس ذلك كله على الفكر الوحدوي وعلى السلوك الوحدوي .

ويتوقف د. طربين عند امرين :

أ – مايسمى باخطاء الوحدة .

ب – موضع مصر من الوحدة ، والمحاولات المختلفة لابعادهـا عن قضايا الشرق العربي (واضيف : والمغرب العربي) .

من هنا يأخذ الحديث طريقه الى فكرة حتمية الوحدة . ويناقش ذلك لينتهي الى انها « الحل العملي الحتمي لمشاكل الوطن العربي وتحدياته المصيرية ص ٥٣ ع ٢ » وان الذي لايعي ذلك لابد أن يهتدي يوماً بمعاناة الفشل .

غير ان العمل للوحدة يحتاج عند د. طربين الى تخطيط : « واذا كانت الاقطار العربية في حاجة الى التخطيط العلمي في كل مايمس حياتهـا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فهي أحوج ماتكون الى التخطيط العلمي في المجال الاكبر ، المجال الوحدوي آخر ص ٥٣

والشرط الأساسي لذلك عنده؛

ان يكون وضع الصيغة العلمية لتحقيق الوحدة بعيداً عن التعصب وفي معزل عن مستلزمات السيادة القطرية والمصلحة الحزبية القريبة في أي بلد عربي .

هل لي بعد هذا أن ابدي بعض الملاحظات ؟

١ – جوهر المقال يقوم على تتبـع نشأة النزعة الاقليمية ، ولذلك فان قلم التحرير كان جديراً أن يجعل المقال مع مجموعة هذه المقالات التي جاءت بعده والتي تحمل العنوان الكبير : الوحدة العربية والاقليمية .

٢ – ولكن ماشأن د. طربين وشأن اجتهادات قلم التحرير ؟. ذلك امر لايعود له وانما الذي يعود له هذه الاشارة في فاتحة المقال الى ان النبي العربي يشرع لأمـة العرب وحدتها : « ان هذه امتكم امة واحدة » .

وليس هذا تشريعاً من النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه تشريع من الله سبحانه وتعالى ونص من نصوص كتابه الكريم . ففي سورة الانبياء الآية ٩٢ : « ان هذه امتكم أمة واحدة .... » وفي سورة« المؤمنون » الآية ٥٢ : « وأن هذه امتكم امةواحدة».

٣ — يستخدم الدكتور طربين بعض المصطلحات التي أحسب أن بعضها في حاجة الى قدر من التصحيح وبعضها في حاجة الى قدر اكبر من الوضوح .

ففي آخر الصفحة ٤ نواجه هذا المقطع :

« حافظت الاقطار العربية على وحدتها في ظل الحكم العثماني ، وكانت القاعدة أن تعيش كل ولاية على دخلها الخاص وتدفع الى خزانة الدولة قدراً معقولاً من الجزية الخ.. »

وأظن أن استعمال مصطلح « الجزية » هنا نوع من السهو .. انه بعيد عن المطلوب الى حد الاغراق في الخطأ ولا يمكن ان يحمل بحال على أي تأويل .. فهو اذن سهو من السهو ...

ولذلك لا أحسبني في حاجة الى شرح مفهوم الجزية ولا من تؤخذ ولا مقابل ماذا كان تشريعها .

٤ — ان استعمال مصطلحات التاريخ يقودني الى استعمال مصطلحات اخرى من غير التاريخ . ولا ادري لماذا اجد في النفس شيئاً من هذا العنوان ، الوحدة العربية بين الصيرورة والوجود .. فهل يبدو استعمال مصطلحي الصيرورة والوجود واضحاً حين نتتبع المقال وحين نقرأ فيه « القومية العربية والامة العربية برغم جميع منجزاتهـا مازالت في طور الصيرورة عند الاكثرية وفي طور وجود عند الاقلية » .. ألا يزيد هذان القيدان : عند الاكثرية وعند الأقلية ، الأمر غموضاً ؟ أتراننا في حاجة دائماً الى هذا التلوين الشكلي : التاريخ بالفلسفة والفلسفة بالشعر والشعر بالمعتقدات السياسية والآراء الاجتماع .. من غير ان يكون هنالك هذا الصهر الكامل في عملية التلوين والتطعيم.

٥ — وأتمنى لو كان د . طربين قريباً لأسأل عن الذي جاء عنده في ص ٢٤ من أن « القضية في آسية العربية التابعة للحكم العثماني قبيل الحرب العالمية الأولى كانت القضية العربية بوجه عام لا القضية السورية أو العراقية او الاردنية او الحجازية بوجه خاص » ومثاله الذي استخدمه للتدليل على ذلك من اسم النادي العربي ومهمته ، والمثال الآخر من مجلس المديرين الذي تشكل في سورية الداخلية بعد تحريرها ومن هوية أعضائه : رئيسه حجازي ونائب رئيسه سوري ومدير شؤونه العسكرية عراقي .، أكان هذا المثال ينشر في هذا المقال للمرة الأولى ؟ وهل هنالك من سبق اليه ؟!

يبقى مقال د. طربين بعد هذه الملاحظات وقبلها يستخدم التاريخ وتجاربـه واحداثه ومعطياته استخداماً واضحاً وحياً في قضية هي قضية التاريخ: الماضي والمستقبل.

٧ — الاقليمية : مرض عارض أم عاهة دائمة ؟ الاستاذ عبد الكريم غلاب .

الاستاذ غلاب من أقرب المغاربة ، المثقفين والكتاب والمناضلين والسياسيين ،الى قلبي والى قلوب الكثيرين الذين يقرؤون له ، قاصاً ودارساً وسياسياً ومفكراً ، رواياته وأقاصيصه ودراساته وجهاده السياسي ومواقفه الفكرية .

لا أدري الى متى يعود إعجابي بالاستاذ غلاب .. لعله يعود الى سنوات طويلة خلت هي وما خلت النفس من ذكرياتها الحلوة ، كان خلالها طالباً ممتازاً في كلية الآداب في القاهرة .. يحدثونني عنه وألقاه ، فألقى فيه الفتى المناضل الذي لا يؤخذ بعواطفه وحدها وانما يلتزم هذه المقاييس العقلية الموضوعية.. وتصرفه ظروف الشمال الافريقي عن حياته العلمية الجامعية كما تصرف معه مجموعة طيبة من اخوانه وزملائه من شباب المغرب متخلين عن امتيازهم الجامعي مؤثرين أن يبذلوا جهدهم كله وحياتهم كلها لقضية المغرب العربي .. ويغادر «غلاب» أن يكون العالم المأمول الى أن يكون المفكر والموجه والسياسي المأمول .

والمؤكد ان مقالة الاستاذ عبد الكريم غلاب تعني اسهاماً مباشراً في النقاش الذي يثيره عدد المعرفة عن الوحدة .. ان مجرد مشاركته تعبير تمثيل للمشاركة الروحية الواسعة العريضة التي يتلاقى فيها مشرق الوطن العربي ومغربه .

المقال لا يتحدث عن الوحدة من منطلقاتها العربية ولكنه يتحدث عنها من زاوية أخرى ، من هذه المقارنة بينها وبين وحدات أخرى في العالم .. أو اذا شئنا الدقة يتحدث عنها منطلقاً من هذا التطور الوحدوي في العالم المتقدم الذي ينسى في هذه الأيام تراثه وخصوماته وانهار الدماء التي اريقت في الماضي القريب وخلافاته المذهبية والفكرية ليندمج في مجموعة واحدة .

ويتميز مقال الاستاذ غلاب بأمرين اثنين :

احدهما امثلته الواقعية التي يضربها حين يتحدث عن الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية في القرن الماضي وعن مثال الصين المعاصرة .

والآخر ، صراحته التي أوشكت أن تكون قاسية حين تحدث عن وحدتنا في التاريخ العربي وذلك الحديث . هو جوهر المقال وغرضه . يقول الاستاذ غلاب في ص ٧٥ .

لا نخون التاريخ فنزعم اننا كنا شعباً واحداً أو دولة واحدة في تاريخنا العربي ولكنا مع ذلك كنا نستقي من منبع عرقي واحد ، عرباً أصلاء أو تعربنا عن طريق الهجرات المتبادلة المتداخلة ، ووحدنا الدين في أغلب شعوبنا . وكانت الثقافة بالمعنى الواسع التي تشمل الحضارة الفكرية والفنية والمادية والشعبية تبلور هذه الوحدة وتوجهها نحو التلاحم والترابط .

فأما عن الأمر الأول ، عن امثلة الوحدات القريبة والمعاصرة فان الذي يروع القارىء منها ليس هو الأمثلة بالذات، فالأمثلة — اذا استعرنا اسلوب الجاحظ في حديثه عن المعاني — ملقاة على طريق التاريخ .. ولكن الذي يروع القارىء منه ويجعله يشعر كأنما هو يتعرف على هذه الواقعات التاريخية لمرة الأولى انما هو هذه الملاحظات الذكية التي نظر من خلالها الى هذه الوحدات ، واللمسات الدقيقة التي تشبه لمسة طبيب يصل الى الشفاف من خلال استخدام أصابعه السحرية وكأنها أصابع تكسوها شموع مضيئة نافذة.. وانظر إن شئت حديثه عن علاقات ما بين فرنسا والمانيا مثلاً حين يقول :

هناك شعوب لا يجمع بينها تاريخ ولا حضارة ولا دين ولا لغة ، وتفرق بينها في الوقت نفسه تراث تاريخية ما تزال تعيش في ضمير كل عائلة ، وحتى الكهول من أفراد العائلات ما تزال تقشعر أجسامهم لذكرى هذا الماضي الدامي القريب ، ومع ذلك تسعى لتكوين وحدة اقتصادية ستنتهي باندماج صناعي وتقارب ثقافي وتعاون اجتماعي .. » .

واقرأ حديثه عن جيل الحرب في ألمانيا « ص ٨٣ صمود » او عن توحيد الصين « ص ٧٤ » فستجد أنك امام حقائق كنت تعرفها ولكن معرفتك بها هذه المرة أحفل وأغنى .

وأما عن الأمر الثاني ، عن وحدتنا في التاريخ واننا لم نكن دولة واحدة .. فالأمر ، فيما أقدر ، قد يحتاج الى بعض الوقفة .

صحيح لم نكن دولة واحدة ولكننا كنا وحدة في كل شيء، كانت السلطات الحاكمة هي التي تختلف دون أن تقوى على كسر الوحدة او تجاوز جذورها واشكالها في التشريع واللغة والثقافة والفكر ، وكانت الجماهير ، كما كان الافراد على السواء ، وأشكالها تنتقل من قطر الى قطر ، وتتلاقى في هذا البلد او ذاك ، لا تعرف باسماء الحكومات التي تنتسب اليها ، وانما تعرف باسماء المدن التي جاءت منها او الاقاليم الكبرى التي تضمها .

ان عناصر هذه الوحدة الواقعة هي التي حفظت علينا بقاءنا وهي التي تكفلت بالرد على ما كان من هذه السلطات الحاكمة في استئثارها .

والا ، لولا عناصر الوحدة هذه ، ماذا كنا نكون اليوم ؟ اي مصير رهيب كان تلقفنا ؟.

يكفي أن يغمض المرء عينيه لحظات ، ليتصور في لمحات خاطفات الرزايا التي نزلت بالعرب منذ بدأوا حركتهم ، من الاسلام حتى اليوم وقبل الاسلام وبعد اليوم .. ان تصور ذلك وحده يكفي أن يغتال شعوباً وتواريخ .. ولكن مقومات البقاء ممثلة في عناصر الوحدة التي أشار اليها الاستاذ غلاب قهرت عوامل الفناء او الإفناء ممثلة في هذه السلسلة الطويلة من النكبات .

وبعد ، فأحب أن اتجاوز هذه الوقفة القصيرة .. أترى الاستاذ غلاب واخواننا في المغرب يتيحون لي ذلك ويسمحون به ويغفرون مافيه !!

في رأيي أن الاستاذ غلاب في حرصه على عدم خيانة التاريخ مأخوذ بشيءآخر. بعامل نفسي عميق .. ذلك أن معرفتي بالمغرب – وليس هناك من يزعم أنه تملك أن يعرف المغرب معرفة عميقةمهما تبلغ اقامته فيه واتصاله بأهله ومواخاته لهمواندماجه فيهم ومحبتهم له وأثرهم في نفسه – تتيح لي أن أقول ان اخواننا هناك لايتشددون في شيء كما يتشددون في « استقلاليتهم » .. أو ان انفصالهم عن جسم الدولة العباسية في وقت مبكر من التاريخ الاسلامي خلق عندهم هذه النزعة ثم أصلتها المراحل التاريخية التي مروا بها ، والمهمات التياضطلعوا بها في المغرب والأندلس .. ولعل ضروراتالنضال ضد الغرب القديم والجديد ، منذ الحملة على مسلمي اسبانيا ، حملتهم على التأكيد عليها . وما من شك في أنه كان لها أثر نفسي بعيدفي الحفاظ على الذاتية ومقاومة عملياتالغزو الاسباني والفرنسي . ورغم التمزقالذي قاساه المغرب في فترات من التاريخ فقداستطاع أن يقف على قدميه موحداً ..ان بعض ذلك يعودالىهذا الاعتزاز ، وبعض هذاالاعتزاز هو الذي قاد الاستاذ غلاب الى شيء مما قال .

مهما يكن من أمر الاختلاف أو الاتفاق مع الاستاذ غلاب في هذا ، فان تتبعه للاقليمية في نشأتها ومظاهرها قاده الى التأكيد على دور الاستعمار في هذه الاقليمية «تغلبنا كلمة دور .. أما آن لهاأن تجوز الى الاسلوبالعربي الذي لايعاب عليه أصلها الأعجمي ». بمعنى أن بعض مظاهر الاقليمية التي أسندها الى الحياة العربية لم تكن وحدها كافية

مجال لتفسير هذا التمزق .. ولذلك اتجه الى ملاحظة عوامل الاقليمية التي داخلت الحياة العربية من خارج . فأكد على الانحراف الفكري من جهة وعلى الاستعمار من جهة أخرى.. أو قل أكد على الاستعمار مرتين ، لأن هذا الانحراف الذي يشير اليه انما جاء من هـذا الاستعـمـار .

ويرتفع المقال هنا إلى أفق آخر أعلى حين يتحدث عن أثر « العلم الاستعماري » في هذه التجزئة : خلق النظريات الانفصاليـــة واشاعتها من نحو وبعث التفرقة الدينية والمذهبية والطائفية من نحو آخر ، عن طريق احياء موات الماضي وعن طريق الوطنيات الضيقـــة .

والحق أننا لانحس في الشرق هذا التحريف العلمي على مثل مايحس به اخواننا في المغرب .. ان الاستعمار في المشرق لم يبرأ من هذا ، ولكنه لم يجد المدى الزمني الذي يكفي لتأصيله على نحو مافعل في المغرب حين اتجه الى تسخير كل شيء في سبيل تجفيف المتوسط (اعتباره بحيرة جافة) للوصول الى ان شمال افريقية امتداد لجنوب فرنسا ، وان الجزائر بالتالي ، على سبيل المثال ، هي قطعة من فرنسا ، وجند لذلك كل علماء الآثار والتاريخ والجغرافية والطبوغرافية لأكبر عملية تزوير في التاريخ تبصر القذى في عين غيرها ولا تدرك العمى في عينيها .

الاستاذ غلاب يرى بعد هذا أن ممـا دعم الاقليمية مأساة فلسطين .. وعلى حين كانت هذه المأساة جديرة بالقضاء على الاقليمية فان الأمر آل الى النقيض .

وحين يعلل ذلك يعلله بأمرين (ص ٧٨) :

آ – انعدام المفهوم العلمي للوحدة عند المسؤولين .

ب – انعدام الادراك الحقيقي لخطر الاقليمية .

أما عن التحليل الأول فذلك هو ، في جزء منه . مسؤولية المسؤولين في القطر العربي بالدرجة الأولى ، بصرف النظر عن « المفهوم العلمي » .. فما أيسر أن نصل الى هذا المفهوم ، وما أيسر أن نعيه ، وما أيسر أن نتقبله حين يكون عندنا ، قبل ذلك ، ارادة الوحدة .

وأما التحليل الثاني فماذا أقول عنه ؟ .. لقد حجبني الاستاذ غلاب بهذه الصفة للادراك : الادراك الحقيقي .. والا فان أحداً لايعدم هذا الادراك ..

بعد هذا أود لو أشير الى ان الاستاذ غلاب يتلاقى مع بعض الكتاب الذين تقدموه على صفحات العدد في موضوع الفكرة الاسلامية ومظاهرتها للفكرة العربية وعلاقتها المتكاملة معها وأثرها البعيد في مواجهة الانحراف الفكري الذي كان أحد أعمدة الأقليمية .

ولكن الاستاذ غلاب يضيف هذه الملاحظة التي تبدو أكثر وضوحاً في المغرب العربي :

« ويجب أن نؤكد كذلك ان الفكرة الاسلامية التي لم تكن تختلف مفهومياً وفي ضمير المواطنين عن الفكرة العربية وخاصة في المغرب العربي وربما في عموم الشعب العربي – كانت تقلل من خطورة هذا الانحراف الفكري ، فكانت تربط بين اجزاء الوطن العربي شعبياً ، وبذلك عاش المغرب مع سورية وهي تناضل الاستعمار الفرنسي .. ومع مصر وهي تكافح الاستعمار الانجليزي ، ومع فلسطين وهي تعيش المأساة قبل الزحف الصهيوني الاخير كما عاشت شعوب سوريا والعراق والجزيرة ومصر مع شعوب المغرب في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وهي تعيش تجربتها النضالية .. »

ان هذه الملاحظة ، في جملتها ، تذهب إلى ان الفكرة الاسلامية لم تقلل من خطورة الانحراف الفكري فحسب ، ولكنها كانت تقف لهذا الانحراف ، وتكشف عواره ، وتحاول تصحيحه ، وبذلك سلمت هذه المرحلة من التاريخ العربي وارتبط مابين أجزاء الوطن العربي على نحو شعبي كان من القوة بحيث أكره بعض السلطات على بعض المواقف الايجابية .

ويتلاقى الاستاذ غلاب مرة أخرى مع القائلين بحتمية الوحدة العربية ، احدى حتميات التاريخ التي لن تتخلف .. ويشترك مع اللواء طلاس في التعليل لذلك بأن العصر عصر تكتلات .

ولكن هذه الحتمية لن تكون من غير شروط . ان هـذه الشروط الثلاث التي يطرحها الاستاذ غلاب تعبر عن معاناة عميقة للواقع العربي ، وتمثل مدى مايحز القلب منه .. وتجترىء – بالقياس الى غمغمة المنطق عندنا – لتقول إن هـذه الشروط هي :

ادراك المسؤولين مسؤولياتهم نحو المستقل

حتى لاتتحول المعركة بين الشعوب وبين الواقع الاستعماري

الى معركة جانبية بين المسؤولين وشعوبهم

الحفاظ على كرامة الشعوب

وكرامتها تعني اسهامها جديا في التفكير والتسيير على أساس

ديمقراطي سليم

توجيه الثقافة نحو الهدف الكبير

اذا ضغنا السؤال – العنوان مرة اخرى فماذا يكون الجواب عند الاستاذ غلاب بعد ان تحدث عن هذه الشروط ؟

أيراه القارىء سؤالاً ؟. أم هو سؤال يحمل جوابه في تضاعيف هذه الشروط؟

ان ذلك يقودني الى ان انتهي الى هذه الملاحظة التالية التي أدين بها إلى مراجعة مقال الاستاذ غلاب ..

من الخير ان نتفق على التفريق بين التجزئة والاقليمية .

ان ذلك يعفينا من بعض الخلاف ويدفعنا الى شيء من تفاؤل .

أن التجزئة قد تكون قديمة .. ولكن الاقليمية مرض جديد يريد أن يكون عاهة .

التجزئة عيب له جذوره في حياة العرب ولكن الاقليمية ليس لهامايسوغها او يساعد عليها لا في معتقدهم ولا في ثقافتهم ولا في لغتهم ولا في تقاليدهم .

التجزئة تحمل – على عيوبها الضخمة – معنى الحرص على ريادة الجماعة الكثيرة ، ففيها ريح من ريح التوحد .. ولكن الاقليمية تحمل معنى تغليب العزلة والانفراد والتحيز الخاص .

التجزئة قد تكون قائمة في اشكال الوطن العربي ؛ وهي اقامة بعض حدوده ، ولكن الاقليمية تريد أن تعطي هذه التجزئة اساسها الفكري وتحيل الحدود الورقية الى معسكرات جاهزة ابداً لتضرب .

التجزئة مرض المريض الذي يملك جسمه ان يقاومها ، ولكن الاقليمية عدوى محمولة عليه ، فاتكة به ، تريد أن تنزرع في كل عضو فيه .

مع التجزئة ظلت هذه الاعضاء من الوطن العربي اذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى . ومع الاقليمية لن يكون من ذلك شيء .

التجزئة قوى تريد أن تأتلف ، ولكن الاقليمية تريد أن تتناحر .

بعد هذا ماذا يكون جواب السؤال – العنوان الذي طرحه الاستاذ غلاب ؟
لو كان لي ان اجيب لقلت : التجزئة مرض عارض والاقليمية عاهة دائمة .
ومع ذلك فان العاهة الدائمة في طريقها الى برء حين تتوفر شروط البرء .

ان ذلك ما يذهب اليه الاستاذ غلاب : الوحدة ستطرد الاقليمية في عصر الوحدات « لان الاقليمية عند شعوب اوربا وآسيا لم تكن عارضة بقدر ما كانت متأصلة ، وعلى ذلك فقد انتصرت الشعوب عليها ص ٤٧ » .

ترى متى تتوفر شروط البرء ؟ وكيف ؟ ومن يكون الطبيب المداوي ؟

٨ – نحو الأدب القومي – الاستاذ خلدون الشمعة

أحسب أن الاستاذ خلدون الشمعة قد سلك طريقاً مطولة ، ومتشعبة أحياناً ، في بحثه هذه الطريق ، للوصول الى الفكرة التي يدعو لها .

ويبدو أن الحيز الذي افرده لهذا المقال ، والصفحات الست ، لم يسمح له بأن يتمهل في هذه الطريق المطولة المتشعبة التي سلكها .

ومن هنا كان هـــذا التكثيف حيناً ، وبعض الغموض الذي ساق اليه أو التجاوز الذي دفع اليه هذا التكثيف حيناً آخر .

وحرص المثقفين العرب أحياناً على أن يقع ما يقولونه أو يكتبونه في دائرة الضوء قريباً من الاقناع أو البرهان يدفعهم تحت تأثير النقص الواضح في ثقافتنا أو تحت تأثير عقدة النقص التي يحيـــاها بعض المثقفين – الى ان يلتمسوا لكل ما يقولون منطلقاً من الثقافة الغربية ، أو تأييداً منها ، أو تشابها معها ، او اقتباساً من افكارها .

بعض هذا الذي قدمت جعل المقال متشعباً في منظومتين متداخلتين :

أ - منظومة نظرية تضم سلسلة من الملاحظات والآراء حول الصلة بين الثقافة الادبية والتكوين القومي .. وقد ساقت هذه المنظومة الكاتب الى أن يتحدث عن الفن - او الادب - القومي ، والفن المواقعي والادب العالمي .. لينفي الأدب العالمي على الأقل في هذه المرحلة المعاصرة . من حياة البشرية ، وليضع الأدب القومي في مكانته قبل الادب الواقعي وفوقه ..

ب - منظومة اخرى تطبيقية ، أعني انها تضم بعض الامثلة من حيـــاة الادب العربي ومن حياة الاداب الاخرى .

والمقال من نحو آخر ينشعب بمنظومتيه المتداخلتين ، من حيث الشواهد والأمثلة، في اتجـــاهين : احدهما اتجاه مستقى من الثقافة العربيـــة والآخر اتجاه مستمد من الثقافة الغربية .

هذه هي محاور المقال الاربعـــة . اما فكرته الرئيسية فهي اعادة كتابة الادب العربي على اساس انه ادب قومي .

ولكن ماذا يريد بكلمة «الادب» ؟ ما مدلول اللفظة عنده ؟ ما حده ؟ ماذا يدخل في هذا الحد وماذا يخرج عنه ؟.. تلك واحدة من القضايا التي يثيرها الباحث .

انه يريد أن يتجاوز مفهوم الادب الذي استقر في بعض اذهاننا ، واستقر كذلك في مناهجنا الدراسية .

إنه لايريد الادب بمعناه الضيق ، اي الادب الخطابي : الشعر والنثر الفني .. وانما يريد الادب بمعناه الواسع الذي يضم النشاط الانساني الثقـافي المكتوب بلغة جميلة او على حد التعبير الذي نقله عن (باوند) : بلغة مشحونة شحناً عالياً .

ولم يصل الاستاذ خلدون الى هذا في يسر ، وانما ابتدع هذا التقسيم الثنائي :

آ ـ الأدب العربي قبل عصر النهضة :

وعنده اننا اذا اخضعنا تاريخ الادب العربي قبل عصر النهضة للمعايير التي تفرضها ثقافتنا المعاصرة فان هذا سيعنى تتويج الشعر دون غيره من النشاطات الثقافية الادبية بمعناها الشامل « ص ٨٥ عمود ١ » .

ب ـ الادب العربي بعد عصر النهضة :

وعنده انه ربما تنطبق عليه مقاييس الثقافة الادبية بسبب أثر هـذه الثقافة على

مختلف انواع الادب العربي « ص ٨٥ عمود ٢ » .
وسنرى الرأي بعد في هذا التقسيم .

ولكننا حين نتابع المقال نلاحظ أن هدف الكاتب الرئيسي في اعـادة كتابة تاريخ الادب العربي تدفعه الى أن يتوقف وقفتين اثنتين :

أولاهما : عند اللغة العربية وأنها ذات طبيعة أدبية تتجلى في الكتـابات التي تقف خارج المدار النوعي للادب « ص ٨٦ عمود ١ » .

يريد ان هذه اللغة الادبية المترع تركت ظلها على كل ماكتب في العربية ، وكأنـه يريد بذلك أن يشد هذه الكتابات الثقافية التي يفوح منها عبير الادب — من خلال طبيعة اللغة العربية — الى أن تكون جزءاً من الادب العربي . الذي يريد كتابة تاريخه من جديد.

والثانية : أن وحدة الثقافة العربية ، والادب العربي بالتالي ، لا تعني عنده أنهـا وحدة ساكنة وانما هي وحدة متحركة .

وغرض التأريخ الجـديد للادب العربي ان يبحث عن عناصر الانسجام في هــذه الصورة المتحركة .

واضح اذن ان المقال مقال هادف ، يريد ان يتخذ من معطيات الثقافة المعـاصرة أولاً ، و من واقع الثقافة العربية ثانياً ، مايساعده على اكتشاف عناصر الانسجام في هذا الموروث الثقافي بعيداً عن مظاهر التخلف .

انه ، بعد هذه الرحلة الطويلة التي يكتنفها بعض الضباب احياناً ، يصل آخر المقال الى أن يكشف عما يريد : التأريخ للادب العربي عن طريق تقصي الوحدة من خلال التنوع، والانسجام من خلال التراكم والفوضى .

ان ذلك عنده اسهام غني في صنع دولة العرب القومية ، لأنه نفي لمظاهر التجزئة التي تحاول بعض « الايديولوجيات » أن « تؤدلجها » بشيء من الاقنعة الفكرية الممزقة .
الرحلة الطويلة اذا شقت على القارىء أحياناً فانه لا يلبث أن ينسى مشقتها اذا هو أدرك الغاية منها .

وكذلك كان القارىء مع بحث الاستاذ خلدون .

ان هذا المقال يطرح عديداً من القضايا قد لا يكون يسيراً أن يتمكن مراجع العدد من التعليق عليها كلها .

غير أن هذه القضايا لاتمس الهدف بحال .. وانما تريد أن تغير أطرافاً من الطريق، وأن تصحح شيئاً من الملاحظات :

١ – وأول ذلك حديثه عن الاقليمية في دراسة الأدب العربي في معرض تأكيده على أن الوحدة الثقافية العربيـة بمظهرها الأدبي كانت تشكل باستمرار تحديات كبرى للاستعمار في فترات التجزئة .

ان أمر الاقليمية في دراسة الأدب العربي كان جزءاً من بعض هـذا الاضطراب الذي واجه الفكر الأدبي العربي في بداية النهضة .

فالدعوة التي اتجهت الى دراسة الأدب العربي على أساس اقليمي اذا كانت بدأت مع المرحوم د . احمد ضيف بهذا الأسلوب الهادىء : آداب عربية لا أدب واحد ، فانها بلغت ذروتها في كتاب الأستاذ امين الخولي : « في الأدب المصري – فكرة ومنهج » .. ثم اتخذت الفكرة المضادة الأخرى، وحدة الأدب العربي، ذروتها في كتاب للدكتور شكري فيصل كان موضوع رسالته الماجستير باشراف الاستاذ المرحوم امين الخولي نفسه بعنوان : « مناهج الدراسة الأدبية : عرض ونقد واقتراح » وكان حواره فيه مع نظرية الاستاذ المشرف حواراً حاداً وصريحاً كما كان نقاشه للنظريات الاخرى التي ينتهجها الأدب العربي أو يمكن أن ينتهجها (مثل النظرية السياسية – الثقافية – العرقية) تجلية للجوانب المتلفة في هذا الموضوع .

٢ – الحديث عن أن مفهوم الأدب العربي يجب ألا يقتصر على النثر والشعر ، او ما سماه الأدب الخطابي ، ليس بدعاً ، ولكنه شيء من طبيعة الأدب العربي نفسه ، ومن طبيعة مؤرخي الأدب القدامى قبل النهضة الحديثة بقرون .

وهل أحتاج أن أذكر بالتعريف المشهور للادب من أنه الأخـذ من كل علم بطرق ؟.. أو أن أذكر بمفهوم الأدب عند الجاحظ الذي يتبدى من خلال كتبه كلها ؟. هل أحتاج أن أذكر بهذه المؤلفات التي كانت تفهم الأدب هذا الفهم الواسع .. واقرأ إن شئت فهارس هذه الكتب الأدبية الجامعة من مثل صبح الأعشى أو نهاية الأرب لترى أن تضييق مفهوم الأدب لم يكن هو الأصل عندنا .

بل اقرأ ان شئت الكتب التي أرخت للادب العربي في بدايات العصـر الحديث ، وسترى أنهم أضافوا الى الأدب – أو اعتبروا منه – كل المعارف الانسانية التي تبرق بالسنا الأدبي الجميل .

ولماذا نذهب بعيداً اذا كنا في تجربتنا الضيقة هنا في سورية في برامج تدريس الأدب العربي قد قمنا ، في بعض لحظات الصحو ، بتأليف الكتب المدرسية للمرحلة الثانوية على هذا الأساس من مد حـدود الادب .. فقد ألف الدكتور خلدون الكناني والدكتور شكري فيصل كتاب النصوص الأدبية في جزئين لهذه المرحلة على هذا الأصل الواسع لفهم الأدب ، فأضافا الى الشعر والنثر كثيراً من نصوص التـاريخ والفلسفة والتصوف والرحلات والتراجم والمسالك والممالك مما كان كفيلا لو استمر ، أن يخلق عند هذه الأجيال الناشئة نظرة أخرى تبدو أنها أكمل وأصح(١) .

وبعد ، فان القارىء المراجع يلتقي في كل سطر تقريباً مع الاستاذ خلدون في

---

(١) اني أتابع ملاحظة مناهج تدريس مادة الأدب العربي في المدرسة الثانوية . ومن المؤسف ان هذه المناهج تتجه الى شيء من البعد عن الموروث والى شيء كثير من الانغماس في الأدب الحديث (واحياناً في الادب فوق الحديث!) . ولايعدم الذين يفعلون هذا من ان يجدوا له بعض التسويغات الفكرية : الادب والمجتمع .. الخ .

ان خطر هذا الاتجاه أنه يفتح باب الاقليمية من نحو ، وأنه يقطع الصلة ، أو يوشك ، بالموروث المشترك من نحو آخر ، وانه من نحو ثالث لايتيح الفرصة الزمنية الطيبة ليهدأ الغبار المعاصر فيكشف ماذا تحت هؤلاء الفرسان ، وانه من نحو رابع بعيد عن الاصالة .. ولهذا كله لامكان له في الدراسة الثانوية مهما تكن الاغراض الاجتماعية التي يتسربل بها . .

ان الوصول الى الغرض الاجتماعي ليس هذا طريقه ، وتسخير المقومات الأصيلة لاغراض مرحلية هو نوع من اختلاط الألوان ، لا أقول عمى الالوان . وليس هنالك بلد من بلاد الله يضع التجارب الفنية الجديدة موضع الحقائق الثابتة ويلقي بها الى طلاب هم في دور التكوّن .

ولعل خريجي قسم اللغة العربية الذين يعملون في تطبيق هذه المناهج متذمرين منها ، أن يكون لهم رأي يبدونه في ذلك ، يخرج من الغمغمة الى التصريح . اني اعتبر هذا نداء الى كل منهم ، أياً كان موقفه من هذا الموضوع . وقد يكون من حسن حظهم أن يكون وزير التربية ، في فترات متعاقبة ، منهم .. فهو اذن اقدر على ان يتجاوب معهم ، اعني ان يتجاوب مع الحق .. فالمناهج الثقافية ليست زمارات أعياد ، ولكنها روح جماعة ، عميقة الجذور في التاريخ شديدة التطلع الى المستقبل .

الاهداف.. ولكنة قد يتوقف عند أساليب التناول ومسالك الحديث الى هذه الاهداف.. ترى هل من حقنا أن نطلب الى الكتاب أن يلتقوا معنا في ذلك ؟.. ولماذا لا نمضي نحن اليهم على الاسلوب الذي يؤثرون ؟

يبـدو لي أن القارىء العربي لا يحتاج الى شيء حاجتـه الى وضوح المنهج واستقامته .. ونصاعة الهدف لا بد أن تقترن بنصاعة الطريق ..

ان شرط الالتقاء والتفاعل بين الفكر المعاصر الاجنبي وبين الفكر العربي هو هذه النصاعة .

٩ – الوحدة العربية : اتجاه تاريخي له طابع الحتمية – الاستاذ ظهير عبد الصمد

تقدر ، واهماً ، في البداية أن مقال الاستاذ ظهير عبد الصمد قـد يكون بعيداً عما ترجو أن يكون .. وتترقب أن يثير المقال كثيراً من النقاط الخلافية أو التي يظن أنها خلافية .. ولكنك حين تقرأ ، وحين تمضي في القراءة تحس أنك قريب منه أو أنه قريب منك ، وأنك متلاق معه أو على الاقل ان القدر من آفاق اللقاء يزيد كثيراً عن القدر من آفاق الافتراق .

وما من شك في أن الفكر لم يعد غريباً أو بعيداً عن الأفكار الأخرى التي تتخذ من الوطن ، ومن واقعه الفكري والثقافي ، منطلقاً لها ، والتي تصنع مستقبل هـذا الوطن الكبير وحركته في المجال الحضاري فوق الاعتبارات الاخرى الثانوية .

الاستاذ عبد الصمد يعبر بوضوح عن هذا الذي آلت اليه مواقف بعض الهيئات من الوحدة والتي كانت فيه حين يقول :

ان قضية الوحدة أصبحت احدى القضايا الهامة ،، اي ايجاد الحلول لقضية الوحدة واتخاذ موقف منها أصبح قضية من القضايا ذات الاهميـة البالغة في حياة شعوب الامة العربية وفي حياة الاحزاب التقدمية ، القومية منهـا والشيوعية ، وطرح هذا الموضوع .. أصبح قضية حيوية .

ومنهج المقال بيّن ، يدلل على منطقية في العرض وتسلسل في التفكير وعلى بيان واضح ، لابد ان نلمح فيه على قلم سياسي أو على لسانه هذين الأثرين :

أثر الثقافة الخاصة الفكرية أو الحزبية .

أثر اللباقة التعبيرية الواعية التي لاتتخلى عن مواقعها الأصلية ، ولكنها تتفتح ، بالاعتدال التي تأخذ به ، على المواقف الأخرى وتقدرها وتحسن تقديرها وتقيم موقفها منها على أساس من هذا التفتح المدروس .

إن المقال يتحدث بعد المقدمة التي قصدت الى ان تضع قضية الوحدة في موضعها من القضايا ذات الأهمية عن التجزئة الحالية لينقسم بعد ذلك في قسمين :

في القسم الاول الأسباب التي تعوق الوحدة وقد جعل في اثني عشر سبباً .

وفي القسم الثاني اتجاه التطور نحو الوحدة وقد جعل في ثمانية أسباب .

لينتهي من ذلك الى حتمية الوحدة العربية على أساس من النضال لها والعمل في سبيلها .

والحق ان المقال يكتبه حزبي ملتزم في مكان مرموق ، بعيد الدلالة على التطور الذي يحققه الفكر الشيوعي في اتجاه القومية العربية .

ان هذا التطور لايعني بطبيعة الحال الذوبان في اتجاهات الفكر القومي على نحو ماهو في جوهره الحقيقي ، ولكنه يعني أن المراحل القاسية والعنيفة والمتصلبة التي يغذيها واقع بعيد عن الواقع العربي في ظروفه وتاريخه ومعتقداته وثقافته وروحه ، قد أوشكت أن تغيب ، وان الانطلاق من بعض معطيات الفكر المعاصر او التفتح عليها لا يعني بالضرورة العبودية لها ، وانما يعني أن تكون هنالك هـذه القدرة على المواءمة بين الفكر والواقع : الفكر يتأقلم مع الواقع لينهض به ، والواقع يمنح هذا الفكر امكانية الحركة ، والتفاعل بينهما هو الذي يؤلف مسيرة المجتمع وحركة الأمة .

وواضح أنك لا تتوقف عند قراءة هذا المقال الطويل كثيراً من المرات .. قد تتوقف هنا أو هناك ، ولكن الروح المتفتحة ، حتى في اللغة والتعابير والمصطلحات وغيابها عن الاستعلاء و « الشوفينية » والفرض ، يدفعك الى أن تتجاوز هذا التوقف، والى أن تكون ملاحظاتك التي تسجلها حوله مكتوبة بحركة سريعة دون ضغط شديد على الورق أو على القلم أو على النبرة التي يتحدث بها الورق والقلم .

١ - من هذه الوقفات أنك لا تطمئن ، في بداية المقال ، الى « أن قضية الوحدة العربية ، كهدف وكشعار مطروحة منذ فترة طويلة نسبياً في أوساط الجماهير الشعبية في ...»

انها ليست فكرة مطروحة .. انها شيء أصيل لا يفترق عن الوجود العربي منذ أن وعى هذا الوجود نفسه مع الاسلام وفي حركته.. ان الوحدة في جوهرها ومفاهيمها والعمل لها لم يكن ابن فترة طويلة نسبياً .

ومن هنا ليست فكرة الوحدة قضية بمعنى القضايا العارضة والناشئة والتي لاتلبث أن يكون حولها من الاصطلاح او شيء من التعديل .. وليست كذلك قضية من القضايا ذات الأهمية..مثل هذا الوصف لا يرتفع بها الى مكانتها الحقة..ولعل الاستاذ عبد الصمد قد أحس ذلك فأضاف هذه الصفة الأخرى : القضايا ذات الأهمية البالغة .. ذلك لأنها — حتى في حدود ما يتضح من المقـال نفسه — قضية القضايا .. واذا كان التعبير عنها يمكن أن يتخذ شكل التصنيف فان الوحدة — بما ينتج عنها من خير وحق — هي القضية الأولى .

٢ — ومن هذه الوقفات أنك تقرأ قول الاستاذ الكاتب : .. « وحـدة تعكس مطامع الجماهير ، الجماهير الوطنية والقومية وتلبي حاجات العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ٩٠ — ٩١ » فتحس أنك معه في أنها تعكس مطامح الجماهير ، ولكنك لست معه ، في ذات القرب ، حين يربط بين الوحدة وبين الحاجات .. « الحاجات » هنا ذات ايحاء مادي قاصر ليس هو الأصل في المطامح والآمال .. ذلك الا أن يكون التعبير كلي الدلالة ، جامع بـين الحاجات المادية والمطامح المعنوية .. إن غياب الجانب المادي عن الوحـدة لا يزهد في الاهتمام بها بل يزيد في الالتحـام بها حتى تأخذ ابعادها كلها : المادية والمعنوية .

وأنا أوشك ان أكون على مثل اليقين من ان الاستاذ عبد الصمد اذا كان لا يفصح عنه تكامل هذه الحاجات وعن تزاوجها بحيث تخرج كلمـة الحاجة عن معناها المادي الضيق ، فانه في مواقف أخرى من المقال قد دل على ذلك واعتبر الرباط المادي وحده ، لا يمكن أن يكون رباطاً .. ذلك أنـه حين تحدث عن بقايا التخلف في الوطن العربي قال ان هذه البقايا تنمي الحذر بين الاقاليم العربية بعضها تجاه بعض وتجعل كلا منها ينظر الى نفسه وكأنه كل مستقل منفصل من بقية البلدان العربية ، ولا رابطـة تربطه ألا رباط المصلحة المادية . ص ٩٣ عمود ١ » .

٣ — والمقال ينطلق من وجود أقاليم عربية ووطن عربي.. ولكن لا يزال يحمل

آثاراً من منطلقات أخرى حين يستخدم في ص ٩٣ مثل تعبير : العالم العربي . ولا شك عندي في أن ذلك نوع من تلوين التعبير ليس وراءه خلفية فكرية هادفة .

إني أحب أن أصدق صاحب المقال وأن أصدق القراء احساسي وأنا اكتب هـذه الكلمات .. اعترف أني أكلف المقال شططاً وأني آخـذه بشيء من الشدة الفكرية .. لان المقال، في نظري ، خطوة واسعة نحو التلاقي في طريق الوحدة ونحو العمل القومي لها .. ولذلك ليس لي في الحق أن ألقاه في نهاية الطريق .. علي أن ألقاه في منتصف الطريق الذي يؤدي الى الغاية .

ان السلوكية الفكرية المعتدلة اجتذبتني الى اعادة المقـال ، أو مقاطع منه ، مرة اخرى ..

ان الحديث عن حملة التشكيك بالانتماء القومي للسكان والعودة به الى اتجاهات قومية غير عربية « ص ٩٠ » .. والحديث عن اسرائيل من منطلق الوحدة وان هدف اقامتها فصل ما بين البلدان العربية « ٩١ » .. والحديث العاتب عن سيـادة العفوية في العمل الوحدوي « ص ٩١ » .. والحديث عن قوة الروح الاقليمية ووجود عناصر وفئات ذات وزنبعضهاتقدمي وبعضها رجعي تعمل ضد اتجاهات الوحدة « ص ٩١ – ٩٢» .. واللهجة اللبقة المهذبة عن استثمار أخطاء الوحدة « ص ٩١ » .. واستبعاد الحذر عنـد بناء القوميات الاخرى التي تعيش مع العرب .. وبخاصة هذا الحديث عن بعض الدول الحليفـة والصديقة التي لم تتحمس للوحدة « ربما بسبب الخوف من نشوء خلافات بين الدول العربية تؤثر على وحدة القوى المناوئة للامبريالية ؛ وربما بسبب افكار وتصورات خاطئة عنها » والدعوة الى تغيير هذا الموقف ص ٩٣ » ... كل ذلك يحب المقال هـذه الموضوعية وهذا الاعتدال السلوكي الذي لابد منه في مثل هذه المراحل الصعبة وبعد هذه السلسلة من عمليات الغزو والتفتيت على صعيد الحياة السياسية والتمزيق على صعيد الحياة الفكرية والتدابر على صعيد الحياة الاجتماعية .

على ان في المقال ماهو فوق ذلك .. هنالك هذا الايمان بحتمية الوحدة العربية .. المؤلف هنا يقف في صميم الصف القومي .. وبخاصة في هذا الحديث الطيب عن تجـاوز الواقع الاقتصادي الضيق « ص ٩٨ » ..

وهناك هذا الاحساس العارم بمسؤولية الاحزاب في عملها للوحدة ويلاحظ أنها وصلت للسلطة « ص ٩٩ عمود ٤ »وأن في وسعها أن تلعب دوراً بحكم وجودها في السلطة ، في الاسراع بمسيرة الوحدة والعمل لاجلها .

الذي يبقى بعد ذلك ، باستثناء المعجم الفكري الحزبي الذي يجد طريقه ـــ وذلك أمر طبيعي ـــ الى المقال هنا وهناك ، فاننا امام امرين اثنين لا يتسع هذا الحيز لمعالجتها ، ولكنها جديران كذلك أن يكونا موضع لقاء متسامح :

أولهما "هل من الممكن أن نجد ارضاً مشتركة بين الحكومات في سبيل الوحدة ؟ وكيف ؟

والآخر هذا التساؤل الثاني : هل يحسن بنا أن نصر على أن جوهر الصراع صراع طبقي ؟.. وهل تقود المقدمات التي بدأ بها المقال ومضى فيها الى أن يكون هذا المبدأ ـــ المسلمة هو الذي يحكم تصرفاتنا السياسية في الواقع السياسي ؟..

أهو صراع طبقي أم هو صراع بين قوى الوحدة والتقدم وبين قوى الاقليمية والتجزئة والتخلف ؟..

١٠ ـــ الحضارة وحتمية الوحدة العربية ـــ د. عفيف بهنسي

مقال د. بهنسي منطلق من هذا البعد الحضاري للوحدة العربية ، اي للمهات الحضارية التي ينتظر أن ينهض بها العرب اذا ما استطاعوا ـــ عن طريق الوحدة ـــ اللحاق بالركب العالمي .

وقد دفعه ذلك الى عرض الدعوات الجديدة التي ينادي بها بعض الخبراء في العالم ، والتي تهدف الى توجيه الشعوب المتطورة في العالم الثالث نحو الزراعة بدعوى انها لا تستطيع الوصول الى مستوى البحث العلمي . وكأنما يعني هذا « تقسيم العالم الى قسمين عالم البحث والاختراع والتقدم ، وعالم الزراعة والخدمات « ص ١٠٥ » .

المقال يرى في هذه البدعة تعطيلا لحركة التطور ولذلك ينصرف في اتجاهين :

الاتجاه الاول : نقض الفكرة من اصولها لأنها غريبة عن طبيعة الانسان والحضارة.
« فالانسان ليس وظيفة محددة بل هو طاقة تريد أن تبذل وتبتكر ص١٠٥ » .

والاتجاه الآخر ـــ وهذا من جوهر الموضوع ـــ النأي بالأمة العربية أن تصنف

بين دول العالم الثالث . وذلك لأنها « أمة حضارة بل حضارات متعاقبة حملت دائماً شخصيةواحدة اذا اعتورها الوهن مرة نهضت ثانيةعلى شكل حضارة أخرى «ص١٠٥» حتى انها اعتبرت من اكثر الحضارات العالمية خلوداً وأطولها عمراً .

ومن هنا راح المقال يتابع في لباقة وحيوية هـذه الحضارات من أولاها ، منذ افتتح العرب التاريخ بحضارة الرافدين ووادي النيل .. ووقف الوقفة الأطول عندهذه الشخصية الحضارية التي تجلت بالاسلام والتي ظلت باقية على رغم التفكك السياسي .

وهكذا يذهب المقال يؤكد الهدف الحضاري للوحدة العربية.ولكنه لايتوقف عند ذلك وانما يتجه الى بحث الوسائل التي تساعد على تحقيق هذا الهدف .

المقال هنا ينعطف في طريق آخر تمازجت فيه ، في حـيز ضيق مضغوط ، الوسائل بالغايات ، والطرق بالاهداف ، والواقع بالمثـال ، وتكاثرت الاشارات الى الاقتصاد والثقافة والفن ، والى الوحدة الثقافية والوحدة الاقتصادية وارتباط مابينهما ليقف أخيراً عند الوحدة العسكرية .

ان المقال جملة من الملاحظات الثمينة التي انتهى اليها الكاتب . كما يبـدو ، من خلال ممارسات عملية « ما يتصل بالفن » وأخرى نظرية .

ولعل في مقدمة هذه الملاحظات تلك الاولى التي جاءت في مقدمة المقال « أول ص ١٠٤ » : « مازلنا ننادي بضرورة اصدار موسوعة قومية تتضمن جميع معطيات القومية والحضارة العربية ، وجميع مقومات شخصية الفرد العربي في الماضي والحاضر والمستقبل (هل الكلمة في مكانها أم هي شطحة الامل وتجاذب الالفاظ) كي تكون اساساً نظرياً للوحدة العربية كأخطر عملية انسانية تحررية في عصر المسابقات الاستغلالية بين الدول المتقدمة الكبرى » .

والاخرى التي جاءت آخر صفحة ١٠٩ حول وحدة الحضارة العربية وبالتالي – وهذا هو الاهم – أن هذه الوحدة الحضارية الراسخة لا يمكن تحريكها جزئياً بـل لا مناص من معالجتها في حالتها الكاملة بعيداً عن جميع الحدود والعوائق .

يتمنى المرء أن يكون هذا المقال من د . بهنسي مدخـلاً الى أن يضطلع هو وفريق من العاملين في ذات الحقـل – الحقل الفني – بالكشف عن الاساس النظري الحضاري في النطاق الفني .

١١ – هل تتحقق الوحدة بالتطور التلقائي ؟ الاستاذ صفوان قدسي

دراسة في معنى الحتمية واللاحتمية

من المواقف التي تواجهها قضية الوحدة هذا الموقف ، الايمان بحتميتها من نحو وما قد تقود اليه هذه الحتمية من التقاعس عن العمل لها .

هذا الموقف المتناقض يزلزل الارض تحت أقدام القوميين ، ويدفع الى شيء من التشاؤم عندهم هو هذا التشاؤم الذي بدا في صدر مقال الاستاذ قدسي : « ان الاقليمية السياسية والفكرية هي التي تكسب المواقع التي تخليها قضية الوحدة » .. وان الفكر الاقليمي ، في غمرة الدعوة الى وضع قضية الوحدة في يد التاريخ ، قد سلح نفسه وأقام من حوله الخنادق والمتاريس، وكرس حقيقته الاقليمية اكثر فأكثر ص ١١٢ ».

ومن هنا ينطلق المقال .. انه يريد أن يقرن الايمان بالحتمية الى الايمان بعمل الانسان ، لان الحتمية لا تتحقق الا من خلال الصراع ، والتاريخ صراع ارادات ، والارادات الاشد تصميما هي التي تكسب الجولة في معركة كسر ارادات الآخرين .

ان اقتران مابين القول والفعل . مابين الايمان والعمل بهذا الايمان ولهذا الايمان ، ليس شيئاً جديداً في الحياة العربية .. وفي بساطة ويسر عبر القرآن عشرات من المرات عن ذلك حين كان يقرن بين الايمان والعمل ، ولا يرى في الايمان الذي يتخلى عن العمل الا ايماناً عجائزياً لاينتج عنه شيء ، لا لمصلحة الفرد ولا لمصلحة الجماعة التي هو منها .

دراسة الاستاذ صفوان هي اذن محاولة لتصحيح معنى الحتميــة . وهو يعطي دراسة أساسها الداعي حين ينطلق من الفيزياء الحديثة ليمضي الى أن مفهوم الحتمية في العلوم الطبيعية قد انحسر تأثيره . ثم يتقدم خطوة أخرى من العلوم الطبيعية الى العلوم الانسانية ليقول ان هذه الكشوف في مضمار الفيزياء الحديثة « تسمح للعلوم الانسانية بأن تتحرر أكثر فأكثر مما علق بها من تأثيرات العلوم الطبيعية ص ١١٨ » ويتخذ من علم النفس وعلم النفس الفرويدي مثلاً على ذلك .

ثم يتقدم المقال خطوة أخرى من العلوم الانسانية بعامة الى واحد من هـذه العلوم ، هو التاريخ ليلخص روح المقال بالجملة التالية :

« هنالك محاولة لحقن التفسير المادي للتاريخ بعناصر جديدة تجعل الانسان قوة

فاعلة ومؤثرة في عملية التطور التاريخي . اي ان اكتشاف العنصر المادي (اكتشاف أم يريد : حصر » في عملية التطور التاريخي لم يكن (= لم يعد) كافيـاً لتفسير التاريخ ، وظلت هناك فجوات وفراغات بحـاجة الى من يملؤها بحيث يصبح هـذا التفسير أكثر غنى وثراء ، بل وأكثر اقناعاً آخر ص ١١٩ »

ويخلص من ذلك كله الى هذه الحقيقة التي طلبها من اول المقال : « التطور التاريخي لايتحقق بمعزل عن الانسان ، وهو المحصلة النهائية لجهد انساني لايتوقف لحظة واحدة عن القيام بمبادرات جديدة « ص ١٢٠ - ١٢١ » .

فاذا انتهى من اقرار هذه الحقيقة انتقل المقال خطوة رابعة ليتم دورته ، وليعود الى الأصل الذي بدأ منه ، اي الى الوحدة العربية .

ويلاحظ المقال ان هنالك اتفاقاً على ان الوحدة هي المدخل الى العصر . غير ان الافتراق يبدأ عندما يبدأ الحديث عن الوسائل الى تحقيق هذه الوحدة . فهنـاك فريق يأخذ بالحتمية التاريخية ، وهنالك الفريق الذي يرى ان ترك الأمر للتاريخ لاينتج عنه الا تكريس التجزئة ، لأن التاريخ لايتحقق الا من تلقاء نفسه .

في رأيي ، ولعله في رأينا جميعاً ، انه ليس هنالك من يتحدث عن حتمية التاريخ ثم يستنيم الى فراشه ولعل يواجه كل هذه التحديات .

الأمر هنا عند الأستاذ قدمي لايخرج عن حدود الجدل النظري .. واغلب الظن أنه يريد الآثار النفسية التي تترتب عن الايمان بالحتمية ، والآثار المترتبـة على تجاوز هذا الايمان .

الايمان بالحتمية كما ينقل الكاتب «يعطي المناضلين العرب المقدرة على التحرر من قيود الاقليمية والاستيعاب الشامل للقضايا العربية ... ص ١٢٢ »

ولكن هذا الايمان كما يكتب الكاتب « يجعل المناضلـين يعيشون في حالة استرخاء عقلي بانتظار أن يحمل لهم التاريخ وحدتهم على طبق من ذهب .. ص ١٢٣ »

والسؤال في هذا الاستدراك: كيف يجمع الكاتب بين تسمية هؤلاء الناس بالمناضلين وبين أن تحمل لهم وحدتهم على طبق من ذهب ؟.

ها هنا كان في تقديري ذروة البحث النظري ومن المؤكد ان هنالك هذا التناقض بين أن نكون مناضلين وبين أن تسوقنا حتمية التاريخ الى التجمد .

إن الحتمية يجب أن تفهم – على نحو ما حاول الباحث – فهماً متحركاً بارادات الناس وأعمالهم .

إن الحتمية توشك أن تكون في الفكر العربي المعاصر اليوم فرعاً من تصور القضاء والقدر في الفكر العربي في بعض العصور .. انه بدلاً من أن يسوق الى الثقة ساق الى التراخي والتواكل .

ان الحتمية في تقديري هي خلاصة افعال الناس وإراداتهم، وتسميتها بالحتمية مرتبطة بالارادة ، بالفعل المتخفى فيها .

ان الحتمية هي حتمية الظفر بعد العمل، والانتصار بعد الجهد، والوصول بعد النضال .

لقد مضى المقال بعد هذا يفضح كيف استخدم « الفكر الاقليمي المتخفي وراء أقنعة تقدمية » هذه الحتمية ، ويكشف مفارقاته في تحريك العمل الاجتماعي وتجميد العمل الوحدوي .

وبعد فقد كان المقال خلاصة جهد نظري ومتابعة يقظة لكل مايكتب في نطاق الفكر القومي على نحو ماتدل على ذلك هوامش المقال الكثيرة .

ان هذه الهوامش تعني خلقاً آخر عند الكاتب هو الأمانة العلمية التي لاتتأخر عن ان ترد كل فكرة الى صاحبها او مصدرها ..

وما أكثر ما نحتاج الى هذا الخلق في هذه الفترات التي تزدحم فيها الكتابات وتتكاثر المقالات ويتمازج الأصيل والدخيل ، والأصل والنقل .

١٢ – مؤسسة لدراسات الوحدة العربية – الاستاذ جورج جبور

اذا كان مقال الاستاذ صفوان قدسي من أغنى مقالات العدد نظرياً في البداية واتجاهاً تطبيقياً بعد ذلك ، فان مقال الأستاذ جبور من أغنى المقالات التي تتجه الى التطبيق وتدل عليه .

ان قيمة المقال تأتي من غنى بداياته النفسية ، من صدق تجربته ومن عمقها ، ومن سلامة منطقه وسعة اطلاعه ، منذ أن تحدث عن الذين وضعوا يدهم على أدبنا العربي ثم وضعوا يدهم على تاريخنا القديم والوسيط والحديث ، الى أن تحدث عن الدوافع أو المداخل الى هذه المؤسسة التي يقترحها ، المدخل القومي والمدخل الثقافي والمدخل القطري المباشر .

وددت لو عرفت الأستاذ جورج جبور من قبل ، وآسف اذ لم أقرأ له كثيراً .. ان ثقافته وتتبعه واحساسه المستوفز بالقضية التي يدعو لها يؤلف عنده واقعاً ضخماً هو جدير بأن يستفاد منه في كل جزئية فيه .

حين أنجزت قراءة المقال المرة الثانية وجدتني أكتب في اسطر متتاليات : انه مقال متفتح — ومتتبع — ومثير — وساخر — ثم هو أثر من اثار الممارسة العملية والنظرية على السواء .

١ — فأما أنه مقال متفتح فذلك يتبدى بخاصة في حديثه عن اختلاف ثقافات الباحثين العرب باختلاف مصادر ثقافاتهم وعجز كل فريق عن استيعاب اهتمامات الفريق الآخر ، ودعوته اخر المقطع الى استيعاب التقاليد الثقافية لكل فريق .

٢ — واما أنه مقال متتبع فذلك يتبدى في هذه الحقائق التي تعرض لها والملاحظات التي أبداها .

٣ — وأما أنه فذلك لهذا القصور الذي رمى به ، عن طريق غير مباشر ، كل هذه الوزارات والاجهزة في طول البلاد وعرضها ، والذي رمى به ، بخاصة ، الجامعات والكليات .. لقد كان في جملته عملية إيقاظ داخلية .

٤ — وأما أنه ساخر ، فظاهر في مثل حديثه عن المثقفين العرب وانهم كانوا أقسى في الرقابة على انفسهم مما كانت عليه اجهزة الدولة « ص ١٤٤ عمودا » .. وفي مثل حديثه عن الشعور بالتلمذة للأجنبي « ص ١٤٤ عمود ١ » . وأنا احب أن اعيد عليك قراءة هذين المقطعين :

ومن الطريف أن هذا الشعور بالتلمذة يعبر عن نفسه اكثر الاحيان باسم « الموضوعية » اي التواضع لعلم الغرب . فاذا بحث استاذ أجنبي في الادب العربي ووجد في تعلق العرب به « سر » تخلفهم وصاغ تلك النتيجة في قالب

موضوعي سادنا شعور غريب بأن الموضوعية تعني ادانة الادب العربي ادانة البتها العلم « ص ١٤٤ عمود ١ » .

« .. والمجال المفضل لذلك هو اهتمامنا بالدراسات العربية اهتمام الواثق بقدرته لااهتمام التلميذ بالبرهنة على صحة النظرية لاستاذه .. ص ١٤٦ عمود ١ .

ه – وأما أنه أثر من آثار ممارسة طويلة فان جذور المقال تمتد الى وراء .. الى أيام الدراسة ثم تمضي الاهتمامات والتتبعات متصلة لتصل بعد ذلك الى تكثيف هذه الممارسة والمدارسة بهذه الاقتراحات الجدية .

يبقى أني احب أن أقف عند اشارة الكاتب الى معهد الدراسات العربية العالية من المؤكد ان الاستاذ جبور على ادراك واضح لرسالة هذا المعهد وبداياته التي ابتدأ منها.. اني لا أزال أذكر الجهود الكبيرة التي بذلها المرحوم الاستاذ الجليل ساطع الحصري في هذا السبيل ، من مقر المعهد الى قانونه الى اساتذته وطلابه الى اجهزته ومكتبته .

لقد اثارت عندي جملة الاستاذ جبور « .. المعهد الذي انشأه بجد وجهد عظيمين المرحوم ساطع الحصري .. ص ١٣٦ » طائفة من الذكريات عن هذه الفترة التي كان من سعادتي الفكرية والنفسية أني كنت أعمل فيها مع المرحوم الحصري في الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية .. ان صورة الجهد الذي بذله الحصري فوق أن يستطيع انسان أن يتحدث عنها .. ان الصوفية الرائعة التي تطبع سلوكه والمثل الرفيعة التي يجسدها لم تلق حقها في الوطن العربي ، تحت تأثير نوع من التعصب الذي بلغ احياناً حد الانحراف عن أداء حقوق معلمي هذه الاجيال .

ولكن ما كان وراء السلوكية الرائعة عند الحصري والفكر الكبير ، هذه الرؤية « البعيدة » لقد كان هدفه من انشاء هذا المعهد صهر جيل عربي جديد مثقف عن طريق اختيار مجموعة من كل بلد عربي لاتقل عن خمسة شبان، واشراكها في حياة واحدة واهتمامات واحدة هي دراسة الحياة العربية منذ النهضة .

ولكن ساطع الحصري كان في واد على حين كان المسؤولون العرب في واد آخر .. فقد ظل يكتب ، أو تكتب ادارة المعهد ، الى الحكومات سنوات متصلة لترشح لها خمسة من أفضل العناصر تكون طلائع الفكر العربي الجديد ، مزودة بكل ما تحتاج اليه في رحلتها الفكرية الدراسية .. ولكن الحكومات كانت لا تجيب .. وحين كانت تجيب كانت تبعث ، في الغالب ، بذوي الحظوظ أو المقصرين ..

لقد شلت الحكومات العربية نفسها أروع جهاز كان يمكنه أن يضطلع هو بالمؤسسة التي يقترحها اليوم جبور ، منذ حين طويل .

ولا أدري إذا كان في وسع المعهد الآن ، وفي وسع ميزانيته ايضاً ، أن يكون هو ، في جزء منه ، هذه المؤسسة .. إن الذي أعرفه عن مديره الاستاذ الجليل محمد خلف الله أحمد يتيح لي أن أعلق اكبر الآمال . ولكن الذي أعرفه عن قصور الميزانية يتيح لهذه الآمال المعقودة ان تعود أنكاثاً ..

أقول هذا على بعد ما بين اقتراح الاستاذ جبور عن المؤسسة وبين هدف معهد الدراسات .. ولكن المكتبة الغنية الرائعة التي جهد المرحوم الحصري في انشائها بكل سبيل والتي تضم الكثير مما كتب عن الحياة العربية المعاصرة وما تحتاج اليه دراسة هذه الحياة المعاصرة من مصادر يدفعني الى مثل هذا الحديث .

ليس مقال الاستاذ جبور مقالاً قدر ما هو صرخة اثارة وحركة ايقاظ .. فمتى يثار الراقدون ويتحرك القاعدون ؟!

لقد كان من رغبتي أن أطرح الأفكار الكبرى المشتركة التي أثارتها هذه المقالات . وعندي انه يمكن النظر الى العدد من هذه الزاوية تمهيداً لتكوين رأي عام مشترك، وابتعاداً عن تكرار الأحاديث والمقالات في ذلك .

وأتمنى على قلم التحرير ان يتولى ذلك على نحو ما ، كأن يكون – على مدار العام المقبل – ملف لكل من هذه القضايا، يحرص على أن يقول فيها القادرون على القول الكلمة الأخيرة أو الكلمة قبل الأخيرة .

وهذه هي القضايا التي بدت مشتركة في هذا العدد :

١ - مقومات الوحدة وأبعادها .
٢ – مستوى العمل الحاضر للوحدة ؟ ما هي العقبات ؟
٣ – كيف يحسن أن نفهم الأقليات الوحدة ؟
٤ – تجربة الوحدة .. أخطاؤها أم التآمر عليها ؟.
٥ – سلوكية العمل للوحدة عند الأفراد والجماعات والأحزاب .
٦ – الوحدة : هل هي مطامع روحية أم هي مصالح مادية ؟
٧ – موقف الدول ، الشرقية والغربية ، من الوحدة .
٨ – الوحدة المقبلة وخطر الاختلاف الثقافي .

دون أن ينفي ذلك موضوعات أخرى تقترحها المجلة .

وبعد ، فلا تزال هناك كثرة من المقـــالات ، وكثرة من الملاحظات . تمنيت لو تحدثت عنها وعن الندوة التي عقدتها المجلة .

إني أشعر بشيء من القصور حين أتجاوز مقـــالات جلال فاروق الشريف و د . عبد الكريم احمد و د . نورالدين حاطوم والاساتذة محمد حافظ يعقوب وعبدالحميدحسن ومحيي الدين صبحي وجورج الراسي ، وأتجاوز شعر البياتي وأتجاوز الندوة بكل ثقلها : بآرائها ، وبالذين اشتركوا فيها بصفاتهم المختلفة .

ان مقالاً مصقولاً للدكتور حاطوم امدته تجربة التاريخ ، وجلته معاناة الفكر العربي ، مفتوحاً لايستبد به معجم معين ولا نزعة متحكمة ، غنياً تتخايل افكاره وراء الفاظه من غير ضبـــاب ولا سحاب ؛ معتدلاً علته المعرفة والتجربة أن الشعب العربي مربوط الى جذوره ومعتقداته وان المثل العليا الانسانية مازجت كل حضارته — ان مقالاً كهذا كان جديراً أن يكون موضع وقفة طويلة .

وكذلك كان المقال الذي كتبه الاستاذ محيي الدين صبحي والذي أحكم فيه فقه الماضي والحـــاضر ، وقفه التشويه الذي مارسه الاستعمار . . والذي رد الانفصال الى جذوره الفكرية .

وعرض كيف يستخدم العلم أحياناً أداة لمثل هـذه المقاصد ، وربط بين العروبة والاسلام في نفاذ ووضوح — كذلك كان هـــذا المقال في صميم ما أتمنى أن أقف عنده وأشارك فيه .

شد ما رجوت أن أقف عند المقالات الاخرى ، ويؤلمني ان لم استطع ان اكتب عنها .. على عنايتي بها وافادتي منها . لقد كان العدد ضخماً ، وكان لابد لمراجعته من أن تتضخم على هذا النحو الذي يدفعني الى الاعتذار من الاساتذة .

أما الندوة فأحسبها في حاجة الى وقفة منفردة .. أرجو أن تكون .

* * *

أنطون مقدسي

الوحدة
في «المعرفة العربية»

الكلمة المسؤولة :

كرست مجلة المعرفة لموضوع « الوحدة » عدد ايلول ـ تشرين الأول (١٢٧ و ١٢٨) في (٣٣٦) ثلاثمائة وست وثلاثين صفحة و (٥٥) صفحة من عدد تشرين الثاني (١٢٩) ، وصلتني على ثلاث دفعات : أولاً « الندوة عقدها ممثلون عن المنظمات السياسية المشتركة في الجبهة الوطنية أضيف اليهم مفكرون وحدويون ، ومن ثم دراسات العدد الأول وبعدها دراسات العدد الثاني وقد اشترك في وضعها الى جانب مفكرين من القطر العربي السوري ، زملاء من بقية الأقطار العربية . وكنت كل مرة أتصفح ما يصلني بسرعة لاتميز خطوط المعالجة الكبرى ، ومن ثم أقرؤه بما أمكن من الدقة ، وأنا أسجل ما يحضرني من خواطر وتساؤلات .

ويصلني في الوقت ذاتــه كتاب الاستاذ مكسيم رودنسن (الماركسية والعالم الاسلامي) المنشور مؤخراً(١) فأراجع بسرعة الصفحات الطويلة المكرسة للقومية والقومية العربية ، اقرأ ، في الوقت ذاته للمؤلف نفسه دراسته في (الموسوعة العالمية) وهي من آخر منشوراته ايضاً ، بعنوان « القوميــة والايديولوجيا »(٢) ، أقرأ وأنا أنتقل من (المعرفة العربية) الى كتابات رودنسن لأقارن وأتفهم الآراء المختلفة ، كلًا منها على ضوء الآخر ، او بالأحرى لأتبين كيف ينظر الى المسألة الواحدة من موقعــين متباينــين .

وأعود ، ضمن حدود ما طالعت وحفظت الذاكرة ، أعود دوماً الى ما كتب عن الموضوع منــذ الأربعينات الى أيامنا ، فترتسم في ذهني ، كل مرة ودفعة واحــدة الأسئلة التالية :

لو ترجمت صفحات المعرفة الـ (٣٩١) الى لغــة أجنبية فماذا يكون وقعها لدى القارىء غير العربي ؟

الفرضية مستبعدة . ولكن العدد وثيقــة يقرؤها الأخصائيون ويلخصونها . فمكسيم رودنسن ، كما تبين لي من مراجعة مصادره ، يعرف ، تقريبــاً كل ما كتبناه وكتبه الأجانب عن واقعنا . فما هو واقع وموقع الوثيقة الجديدة لديه ولدى غيره ؟

والأهم من ذلك أن المثقف العربي يرسم للسياسي الطرق التي سيختار واحــدة او أكثر منها ، ليسلكها . فهل يوفر عدد المعرفــة ، وقد أسهم فيه سياسيون ، لهؤلاء ولغيرهم ما يسعفهم عند اتخاذ قراراتهم ؟.

وأخيراً : ما الذي يقدمه لي ؛ أنا القارىء المتتبع او غير المتتبع ، من مبادىء وخطط تشدني الى موقعي العربي ، خصوصاً الى موقعي العربي ، خصوصاً في الساعات الحاسمة ، يوم يطلب مني أن أزج امكاناتي في المعركة ؟

وأرى من واجبي ، وأنا أسجــل حصيلة تأملاتي أن أعترف بحقائق كثيرة ، كل

(1) Maxim Rodinson Marsisuc K monob musulman, Paris Suril

(2) Ibid. Nation Y idioloji N Emilopedia Universelia Tome 10,

منها ، وإن كان يتحول في ذهني الى سؤال لا أجد له جواباً مقنعاً ، فهو ذو تأثيرخطير في سيرنا نحو الدولة الموحدة ، من ذلك :

أولاً ، ان الفكر القومي أضاف الى ما كان عليه بين الاربعينيات والخمسينيات ، بعداً جديداً تمنيت منذ زمن طويل أن يضاف ، هو البعد التقدمي – الاشتراكي ، بعد جعل الفكر القومي ، يمشي على قدميه بعد أن كان يمشي على رأسه ، كما يقول ماركس بشأن الديالكتيك الهجلي ، جعله يلامس الواقع ويترسخ فيه تدريجياً ، بعد أن كان يدور في آفاق طوباوية – مثالية بأسوأ معاني الكلمة . وهذا كسب كبير ، اذ ان اعتماد المنهج الماركسي في تحليل بنى العالم غير المصنع وأوضاعه لحاسم حقاً في فهم هذا العالم لذاته . ولكن اذا كانت النظريات الوحدوية قد قامت بهذه الاضافة التي فجرتها من الداخل ، فهل حصل اي تعديل جذري على منهجنا الفكري ، أم أننا اقتصرنا على رصف الافكار الجديدة الى جانب الافكار القديمة ، وبقيت طرائقنا الفكرية على ما كانت عليه ؟ والمنهج كما هو معلوم ليس حيادياً ، بل انه يرتكس على الفكرة – الهدف فيقلبها رأساً على عقب ، كما يلاحظ ، ماركس بعد هجل(١) .

الحقيقة الثانية هي أن عددي المعرفة بمثابة خلاصة تارة مكثفة وطوراً مستفيضة لمجمل المشكلات التي تطرحها الوحدة في وضعها الراهن .

فمخطط العدد (١٢٧ و ١٢٨) كما وضعته لجنة الاشراف ونسقته هيئةالتحرير (ضمن الحدود المتاحة لها) يقسم الموضوع تبعاً لمفاصله الطبيعية : التعريفات العامة ، ومن ثم الاطار التاريخي ، تلي الاقليمية ، وبعدها حتمية الوحدة ولا حتميتها ، فالجانب الايديولوجي . وتختم العدد « الندوة » يعبر فيها السياسيون ، كل من موقعه عن وجهة نظر منظمته في الموضوعات المذكورة ، كما يذيله تحليل لكتب ومجلة وحدوية .

ويكمل العدد الثاني (١٢٩) الأول ، لثلاث دراسات عن الوحدة الاقتصادية ، يضاف اليها بعض البحوث التكميلية وعدد من الوثائق .

---

(١) كارل ماركس ، رأس المال ، الكتاب الأول ، الجزء الأول ، ترجمة انطون حمصي ، منشورات وزارة الثقافة . دمشق ، المقدمات وبصورة خاصة صفحة ٣٨ وفي مواضع اخرى من مؤلفاته .

كارل ماركس ، اسهام في نقد الاقتصاد السياسي ، ترجمة انطون حمصي .
المنشورات ذاتها ، المقدمة والفصل الاخير صفحة ٤٩ ، وما يلي .

صحيح أن كل معالجة تكادأحياناً تستوعب بقية الموضوعات، ولكن من المنطلق الذي حددته لجنة الاشراف بحيث تكمل الدراسات بعضها البعض الآخر .

وتستهويك العناوين (الوحدة العربية بين الصيرورة والوجود ، دراسة في معنى الحتمية واللاحتمية ، المثال في نظرية الانفصال ، الخ ...) . وقد تستفزك كالبحوث الأربعة (في أكثر من ستين‌صفحة)التي حشرت تحت عنوان(الوحدة العربيةايديولوجيا تقدمية) . وربما أن هذا العنوان استفزني وحدي لأسباب سآتي عليها فيا بعد . ولكن المجموع بالنتيجة يغريك‌ويدفعك الى القراءة ،فتحار بأي دراسة تبدأ ، إذ إن الباحثين والمنتدين – الباحثين أكثر من المنتدين – انطلقوا من الواقع المباشر ليقفزوا الى‌أعلى المستويات (الحقيقة الثالثة تدفعهم الى التصدي لأخطر المشكلات (أسس الوحدة الديالكتيكية ، علاقة الحرية بالضرورة ، الخ) فطرحوا ، بمناسبة مشكلتنا ، مشكلة الانسان المعاصر في صراعه مع الاستبداد ، وربما في نهاية المطاف ، صراع الانسان مع المصير .

* * *

هذا العمل ، لدى التصفح الأول ، سفر خطير .

سفر تستهويني قراءته لأني أقع ، في كل‌بحث‌من بحوثه على اسم محبب الى قلبي ، قريب من نفسي ، لازمته سنوات أو قرأت له أكثر من مرة . هذا زميل وذاك تلميذ عرفته وهو بعد على مقاعد الدراسة في التجهيز (كما كنا نقول) ، وفي الجامعة ، ثم – ويالحسن حظي ! – تخطاني بمراحل. هذا صديق وذاك باحث تخطت شهرته قطره‌وأكثر. والى جانب هؤلاء القائد السياسي تتبعت تطوره نحو الأكمل ، والمفكر رافقته في الدراسات التي وضع وما زال .

وغيرهم وغيرهم

والكل بالنتيجة رفيق الطريق ...

وبعد فالموضوعات هي التاريخ الذي عشناه معاً ، نظراً وممارسة ، تاريخ‌ظننت ظننا ! معاذ الله ! اعتقدنا – أنه يضع بذوراً أولى ستكون الوحدة ثمرتها القريبة ، أو لم نقرر ، جازمين كلنا ، يوم بدأت‌معركة التحرر، أننا ننشيء ثقافة هي فكر السياسة العربية‌الوحدوية ، اجل‌فكرها وحياتها وروحها ، فيجب ان تأتي اكلها طالما انا شيدناها، مخلصين ، على الارض الصلبة ، ارض الواقع والحقيقة ،

وبنكر ، يوماً ، اخواننا في المغرب صحة نظرياتنا ، ينعتونها بالضبابية (وما يزالون على موقفهم السابق رغم تقدمياتنا) ونصر نحن عليها اصرار الانسان على صنيعه يحبه لأنه يرى فيه ذاته متحققة بشكل آخر . ولا عجب فالذات ، وأن نقدها صاحبها حتى التهشيم ، عزيزة عليه .

نصر وما نزال لاعتقادنا الراسخ ان المضمون صحيح لاغبار عليه ، يعوزه الأداء ، الأداء وحسب ، يتأتى مع الزمن الذي ينضج الافكار وينسقها بحيث تصبح منطقية مفحمة .

كانت تراودني ، في ذلك الزمان ، خاطرة باسكال : « لن تقولوا اني لم آت بجديد فتنسيق المضمون هو الجديد . نمارس لعبة الكرة ، لا تتبدل هذه من لاعب لآخر ، وإنما أحدهم يجيد وضعها أكثر من الثاني .

يطيب لي قولهم أني استخدمت كلمات قديمة . أو لا تؤلف الافكار عينها هيكلاً آخر للعقول بترتيب مختلف كما تؤلف الكلمات عينها افكاراً جديدة في مختلف ترتيباتها !. »

« الكلمات المتنوع تنضيدها تعطي دلالات متنوعة ، والدلالات المتنوع تنضيدها لها مفاعيل متنوعة »(١)

وها هي الآن الخاطرة ذاتها تعود باصرار متزايد ، وتحضرني معها كلمة أخرى أظنها للفيزيائي هنري بوانكاره : العلم لغة محكمة .

أهي المسألة إذن مسألة أداء ؟

بمعنى ما : نعم

كان أرسطو يرى في « الصورة نظام الوجود ، والصورة ، في لغة المشائين فعل ، والفعل تمام العمل .

وأقول معقباً : الصورة هي هنا التعبير ، والتعبير الناجز ممارسة ، الاثنان بالنتيجة واحد ، كل منها ينبثق من الآخر ليزيده دقة وإحكاماً .

والدقة والاحكام هي الكلمة المسؤولة ، الكلمة التي تلزم قائلها ، اذ تتحول الى

(١) خواطر باسكال ، الخاطرة رقم ٦٥ في طبعة شيفليه ، ورقم ٤٣١ في طبعة برنشفيك . الخاطر رقم ٦٥ في الطبعة الاولى رقم ٢٢٥ في الطبعة الثانية . ترجمت النص عن الطبعة الأولى صفحة (١١٠١) .

نداء ملح ، كل حياد عنه خيانة . وربما أن المسألة الكبرى – علاقة الضرورة بالحرية – بجانب من جوانبها في هذه النقطة بالذات : أن أدراك طبيعة المرحلة التاريخية (والطبيعة بلغة أرسطو مصير – ما يصير اليه الانسان – وغاية) ادراكاً كاملاً بحيث تتملكني ، ومن ثم أتملكها فأصبح سيدها .

وبتعبير آخر : المعطى ضرورة ، ومعالجته (قولاً – عملاً) حرية . فهل أدرك فكرنا هذا المستوى من الفهم والاداء كي يستدعي العمل ، أو قل : يستدعي الحياة تنمو ؟

من هذا المنطلق ، فرضته علي « المعرفة العربية » سأبدأ حواراً معها ، مع كتابها ومنتديها ومعلقيها ، حواراً هو مراجعة نقدية كان علي منذ زمن أن أقوم بها مع ذاتي ، مع جيلي ، مع ورثتنا ، معنا كلنا نحن الذين اخترنا الوحدة هدفاً ، علي بنقدي – والنقد فن الحدود كما علمنا كنت – أسهم في الجهود المشترك .

سائلي التاريخ عنا ،

ويسترعي انتباهك ، أول ما يسترعيه ، الصفحات الطويلة المخصصة للتاريخ ، القريب والبعيد ، « ابي العلوم » كما يقول الاستاذ محي الدين الصبحي ، فقلما تخلو منه دراسة . ولا عجب ، فالتاريخ هو الذي ربط الشخصية بمعالمها البشرية والحضارية ، فميزنا عن بقية الأمم وقربنا منهم ، إذ أن الانسانية بالمنظور القومي ، وحدة في كثرة .

والتاريخ أيضاً هو الذي تنشأ فيه الوحدة وتتفكك باستمرار . فأنصار الاقليمية كالوحدويين ، يستمدون منه بعضاً من حججهم الأساسية .

والتاريخ أخيراً هو الذي زيفه ويزيفه الأجنبي . فعندما برزت ، في العصر الحديث ، الأفكار الوحدوية ، أخذت كل دولة مستعمرة ، تارة تحاول تحقيقها لحساب القطر المسيطرة عليه (١) وطوراً تشجع الحركات الانفصالية باصطناع المقومات

(١) أحمد طربين . الوحدة العربية في تاريخ الشرق المعاصر ١٨٠٠ – ١٩٥٨ تلخيص محيي الدين صبحي (I ، ٣١٥) وعبد الكريم غلاب (I ٧٨) الارقام اللاتينية (I ، II) تشير الى كل من عددي المعرفة المذكورين ، والارقام الهندية بجانبها تشير الى الصفحات الملحقة أو المستشهد بها .

لقومية قطرية (لبنانية - سعيد عقل ، فرعونية بعضهم الـخ ..) والمؤرخون موثقون اجمالاً .

ولكن اذا تجاوزنا بعض حججهم الواهية ، كاستشهاد الاستاذ أنور الرفاعي بمعلمنا زكي الأرسوزي (الكلدانيون ، بنو خلدة ، الاشوريون ، بنو شور ؟ الساميون من سما يسمو سمواً) ليبرهن على أن الساميين عرب (I ٢٦) وما يلي فلاحظ أن أن دلالة وقائعها تتنازعها قراءات ، أهمها التاريخية الخالصة والسوسيولوجية . ففي الاولى يدهشك أن عمر الأمة العربية يرقى الى أربعين قرناً قبل الميلاد وأكثر ، كما يقرر الاستاذ أنور الرفاعي (I و ٢٣) ، أو قل « بعض الخلود » (سعيد عقل عن الارزة) . وفي القراءة الثانية ينحسر عمر الأمم كلها بحيث يعود الى أواخر القرن الثامن عشر . فالدكتور عبد الكريم أحمد يؤكد لك أن أول حركة قومية واضحة المعالم في التاريخ ظهرت مع الثورة الفرنسية الكبرى ؟ ويضيف ، منذ ذلك الحين أصبحت القومية في نظر الكثيرين العنصر المميز لعصرنا (I ، ١٧٤ - ١٧٥) . ويدلل على رأيه باستشهاد تاريخي : « وقد كانت أول دولة قومية استطاع العرب اقامتها ، في الجمهورية العربية المتحدة (I ، ١٨٤) .

ويقف الأول طويلاً عند مرحلة ماقبل الاسلام ليقرر ، دون أي تردد أو تحفظ - وقد أخرج الساميين وكل شعوب الشرق الاوسط القديمة في المعركة - ان كل المنجزات الحضارية والثقافية ، وكل الاختراعات العلمية والصناعية ، عربية خالصة لاغش فيها (I ، ٢٤) ، ثم يمعن في القدم ليسائل الجيولوجيا والسلبشة (الانتروبولوجيا ، علم السلالات البشرية) ليقرر أيضاً أن وحدة العرب طبيعية وبشرية وحضارية ، وغيرها وغيرها ، حتى لكأنها قائمة من الأزل الى الأبد (I ، ٢٨ ، ٢٥ ، ٢٢ ، الخ ، أو الى يوم يبعثون على حد تعبيره (I ، ٣٦) .

وبالمقابل فان الدكتور نور الدين حاطوم ينعى على المؤرخين خلطهم بين التاريخ والقومية ليخلص الى أن القومية لم تولد معنا بالفطرة ، فقد مررنا بظروف وحدة وبظروف فرقة (I ، ١٨٩) . ولكنه ، قبلها ، وبعد أن أطرى الحضارة العربية (شمساً لمعت بسناها الوضاء ، ومشعلاً أنار ظلمات الأمم الأخرى) (I ١٨٦ ، ١٨٥) ، كتب نصاً : « لقد صنع التاريخ العربي في الماضي تلقائياً وعفوياً وبشكل غير واع على الأغلب ، أي أن الحوادث كانت تسير الجماعة العربية بشكل يختلف عن الحاضر .

وفي أيامنا انتقلت البشرية العربية من مرحلة اللاوعي الى مرحلة الوعي ».(I ، ١٨٨).

لقد طال زمن اللاوعي واستطال يا دكتور ، وما زال ، لحد بعيد ، فيه ، طالما أنك تضيف توا بعبارة مغمغمة : « لم نصل بعد الى درجة عليا من التكامل » .

أو يكون ان كل ما ذكرت من مآثرنا الخارقة قد تم بقـــدرة اللاوعي القادرة ، تبدع الشعر في الشاعر على غير علم منه ، كما كان ينادي سعيد عقل في الأربعينيات .

والواقع أن المؤرخين ، الى جانب رصفهم الحـــادثة بمحاذاة الأخرى ، لا يميزون بين القراءات التي أشرت اليها ، فينتقلون من الواحدة الى الأخرى دون «سابق انذار»، ثم يضيفون فلسفة التاريخ، ويتوجون الكل بمجموعة من احكام القيم والنصائح يقدمونها بمناسبة وبغير مناسبة .

ان التاريخ ليس في تعاقب الحوادث ، كل منها تتلو الأخرى الى ما لا نهاية ؛ بل هو في كل مرحلة من مراحله الكبرى ، قطيعة واستعادة ، الأولى تنهي تاريخاً ، والثانية تـستأنف آخر اذ تجعل من الماضي مستقبلاً .

فاذا ما انطلقنا من هذا المبدأ يصبح بوسعنا :

اولاً ، تعيين موقـــع كل من الوعي واللاوعي ، أو اذا شئت ، كل من اليقظـــة والانحطاط ، كل من الوحدة والتفكك ، وادراك تناوبها غير المنتظم .

ومن ثم ، قراءة التاريخ في كل مرحلة من مراحله ، افقياً (البنى الاجتماعية) وعمودياً (الزمان) وتقاطع كل منها مع الآخر .

واخيراً فهم عمر الأمة ، فهذه ليست كالفرد ينمو عضوياً ، رشيماً في الجنين ، يبدأ مصمماً لينضج ذاتاً . هذه الحقيقة قالها معلمنا الارسوزي ، ولكنه أخطأ المرمى عندما طبقها على الأمة التي هي نظام اجتماعي - تاريخي، عمرها في مجموعة انطلاقاتها . وقد تتفكك الأمة وتبقى فتاتاً يعيث به العابثون .

★ ★ ★

ان المشكلة التي يطرحها التاريخ على المؤرخ الوحدوي تصاغ عـلى أشكال ، ابسطها : ماالذي يربطني ، انا العربي السوري باخوان لي منتشرين في رحاب العـــالم وبخاصة في فسحة مكانية ممتدة على قارتين من الخليج الى المحيط ، أو يشدني الى اجدادي، أكان هؤلاء من البارحة أم من أيام سيدنا آدم ، كما يريد الاستاذ أنور الرفاعي، فيمكنني

من أن أعلن باسمهم كلهم ، وبم بملايين الملايين ، عن وحدتنا ، قائلاً « نحن العرب » لا بل أقفز فوق التاريخ فأشمل بقولي ابنائنا أبناء ابنائنا لمستقبل لايعلم مداه الا الله؟ أهو الأرث الثقافي الحضاري ؟ ولكنه مر بمراحل وتبدل ، وهاهو الآن يقطع أو يحاول قطع كل روابطه بماض قد لايبقى منه يوماً سوى احرف الابجدية ، قرر سعيد عقل — وهوشاعر عربي جاهلي أصيل — قرر حذفها . قد تكون هناك ثوابت يبحث عنها الآن ، فها أعلم ، الاستاذ جاك بيرك مقتفياً إثر ماسينيون . ولكن ماهي ، وماالخيط الذي يصل بينها ؟ واذا انتقلت الى القاعدة الاقتصادية للوحدة العربية نلاحظ انها اتخذت ، عبر التاريـــخ الطويل اشكالاً متباينة لايمت احدها بصلة الى الآخر . وهاهي الآن وحدات متقوقعة ، خصوصاً في الأقطار التقدمية (أجل في الأقطار التقدمية !) وشتات بحاجة الى قدرة قادر بلمه ليؤلف بين أجزائه .

لقدلامس مسألة الهوية القومية هذه الاستاذ صفوان قدسي عندكلامه عن « ذات عالية» (I ، ١٢٣)، ولكنه وضعها في اطار لم يمكنه من ادراك مرمى الكلمة ، الى جانب انه ، في سياق حديثه ، قوضها من الأساس عندما أراد أن يضعنا في التاريخ فبعثرنا فيه فوق مانحن عليه من بعثرة (I ، ١٢١) .

وأعيد السؤال ذاته بصياغة أعتقد أنها تعمقه :

ان الحادثة التاريخية نقطة تقاطع لعدة عناصر تؤلف ابعادها ، فهي بآن اقتصادية وسياسية ، جغرافية وطبيعية ، نفسية واجتماعية ،الخ. والحوادث بدورها تتجمع في محاور هي مراحل التاريخ ، كما انها تقع على مستويات ففيها تمتزج الأسباب بالأهداف، ومحركها عوامل قصدية واعية وأخرى ضمنية .

ومن ثم فان كل ماذكرت بمثابة لتحولات ، كل منها يستدعي الآخر ، ويمكن ان يؤخذ مقياساً (بارامتر) للآخر . ولهذا تعددت المنطلقات في فهم التاريخ وقراءته . فكيف نربط كل ذلك بعضه مع بعض بحيث يؤلف التاريخ، في لامحدودية احداثه ومستوياته كلا يمكننا من أن نقول : « ذلكم هو تاريخنا » ؟

السؤال الأخير يحيل الى ثالث يعمقه أيضاً أو ربما يزيده وضوحاً :

ان الوجود التاريخي (الوجود-في- التاريخ ، على حد تعبيرالفينومينولوجيا الوجودية) كالكوزموس لدى انشتين ، وقد أبدل محوره المكاني بالزماني ، أي أنه ثلاثة

ابعاد (الماضي والحاضر والمستقبل) تتوضع في رابع هو نقطة ارتكازها المادية ، أو الجغرافية – الاقتصادية ، فعلى أي محور نقيمه بحيث يتألف ويأتلف ، هذا المحور، وان كان ثابتاً – متبدلاً هو « محل » هويتنا ، وحده يمكننا من أن نقول بقول عقلي : امة عربية واحدة من الخليج الى المحيط ومن فجر التاريخ الى مستقبل حاضر – غائب ! حاضر لأن الجماعة في مراميا ، وغائب لأنه رهن قدرتنا على مجابهة الآتي ؛ مغامرة هي الاسهام في تحقيق مستقبل الانسانية .

السؤال الأخير يلم بكل ماتقدم ، والجواب عليه اذا ماتمكنا من صياغته،هو الذي يفحم الخصم ، وفي الوقت ذاته يقحمنا في المغامرة الكبرى ،مغامرة الوحدة العربية ، مستقبلاً يستدعي الماضي ويجعل منه باستمرار ماضينا .

ان علم الاجتماع لايتصدى لهذا السؤال، واذا تصدى فهو يلاشيه . فسوسيولوجيا مكسيم رودنس(١) على غزارة توثيقها ودقة تصليفاتها ، ترمي بالأمة العربية في متاهة الايديولوجيات . كما يفعل المنظرون التوريون ، يقتاتون من فضلات موائد الاجانب.

أما مؤرخونا ، وبالرغم من الجهود التي بذلوا ، فلم يذكروا السؤال ، حتى ولا باشارة عابرة .

أأحيل الى فلسفة التاريخ ؟ هذا أصح .

ولكن الجواب الحاسم لدى السياسي . وكل من يتصدى لمثل هذه الموضوعات ، سياسي .

والسياسة بهذا المستوى فـــن استدعاء « المصير » استدعاء هو الحرية لها الكلمة الأولى والأخيرة في تقريره ، نظراً وعملا ، نظراً هو العمل ، وعملاً هو الفعل الوحدوي.

والايديولوجيا :

وتلي التاريخ الايديولوجيا ، لاتنفصل عنه ، فكل جماعة، فيكل مرحلة من مراحل حياتها ، منظومة مفاهيم ضمنية أو صريحة هي الناظم لفعاليتها والمعبر عن مراميا .

(١) راجع كتابه المذكور بخاصة صفحة ٢٤٥ الى آخر دراسة«طبيعة الأساطير ووظيفتها في الحركات الاجتماعية – السياسية » كما صفحات اخرى من الكتاب،وكذلك في دراسته المذكورة « الامة والايديولوجيا » .

ومن البديهي أن تكون الايديولوجيا العربيــة تقدميــة ، اشتراكية ، مناهضة للامبريالية ، تستقريء التاريخ المعاصر فتربط الحركة الوحدوية بالأوضاع الاقتصادية والصراع الطبقي ، والتصنيع والتحديث ؛ وأن تدين العشائرية والطائفيــة ، فترفض الغيبيات وتأخذ بالعقلانية ، وتؤكد على انسانية قوميتنا ، وتعتمد بدرجات متفاوتة ، تبعاً للموضوع المطروح ، منهج السوسيولوجيا الماركسية لفهم التخلف ومحاولة تخطيه ، ولمقارعة الاستعمار والصهيونية .

ولكل باحث موقعه . وهذا أيضاً أمر طبيعي فقد لوحظ ، منذ القدم ، أن تعارض الآراء — الجدل بالمعنى الأرسطي — هو الطريق الى لقائها والى الرأي الصحيح . ولكن يصعب عليك ، في الاكثرية الساحقة من البحوث أن تتميز بوضوح منطلقات واضعها ، اذ لم تكن قد عرفته مسبقاً . فالطابع المهيمن على « المعرفــة العربية » هو التسوية لا التــأليف الديالكتيكي ، خصوصاً فيما يتعلق بالمسألة الرئيسية ، مسألة علاقــة القومية بالاشتراكية .

فالدكتور عبد الكريم احمد يشرع ، بعد التأكيدات التي ذكرت سابقاً ، بتصنيف الاتجاهات في فهم الفكرة القومية ، تصنيفه لا أدري ! ضمن حــدود معلوماتي ، مدى صحة الســوسيولوجية . ثم يأخذ ضمناً باتجاه يطلق عليه مع عالم لا اعرف عنــه شيئاً اسم « تأميم الاشتراكية » او « تشريك القومية (I ١٧٦) ليشدد على ان القومية ، عنــد معظم دعاتها ، تقدمية (I ١٨٠) متناسياً شارل موراس الفرنسي (١٨٦٨ — ١٩٥٢) ومدرسته الواسعة ، وقبله الرومانتيكية الالمانية (النصف الاول من القرن التاسع عشر كله تقريباً) ، وبعده منظّري الفاشية والنازية قبل أن تكونا ، وغيرهم وغيرهم .. واخيراً وبما أن قوميتنا مناهضة للرجعية ومــا شاكل ذلك ، فهي ثورية ، « تقــدمية بطبيعتها وبمضمونها » و« من أبعد القوميات التي عرفها التاريخ الحديث عن التعصب وأكثرها نقاء من ضروب التمييز » (I ، ١٨١ — ١٨٣) .

وعند الدكتور نور الدين حاطوم تتلاقى كل الاتجاهات وتتعارف وتتآخى (الدين والدولة العلمانية ، الاشتراكية النابعة من صميمنا ، وما هي عليه في ارجاء العالم ، الخ) شريطة الارادة الصادقة والخلق « الرفيع المجرد عن المصلحة الخــاصة » (I ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩١) ، المنطلق اذاً أخلاقي ، يليه العلم بالضرورة على ما يبدو .

فاذا تجاوزته تجد نتائج الدكتور عبد الكريم أحمد ذاتها لدى الاستاذ محمد حافظ

يعقوب الذي ، اذ يرجع المنطلق الماركسي ، يزيدها وضوحاً . ولكنه يصوغها بلهجة تقريرية لا تخلو بعض قضاياها من التناقض ، تارة تنتقل من الأسباب الى النتائج فتقنعك ، وطوراً تضع النتائج وتفترض وجوب تحقق الأسباب فتتردد بشأنها . من النموذج الأول ان القومية العربية حقيقية موجودة قائمة في اذهان الجماهير (فقراء الفلاحين ، عمال المدن ، الخ .) « ذات المصلحة الحقيقية في مواصلة الثورة » (I ، ٢١٠) . ومحركها الوحدوي ليست العامل الاقتصادي بالدرجة الاولى فتعريف ستالين الذي يربط ، (في رأي الكاتب) القومية بالرأسمالية ليس جامعاً مانعاً بدليل ان البورجوازية العربية « امتداد للاقطاعية وجزء من الاقتصاد الكولونيالي » ، بل ان هذا المحرك سياسي هو الرد على التحدي الامبريالي ، كما يرى الاستاذ الياس مرقص . ولا يرى الكاتب اي تناقض بين في ان يضيف : وخلف العامل السياسي ، تكمن المصالح الاقتصادية للأمة العربية بأمرها (I ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧) .

ويضيف بعد اسطر (النموذج الثاني) : « وحدة الأمة العربية ، ثورة ايضاً لأنها ستؤدي الى تحدير(١) وبلورة الاتجاهات العقلانية ، العلمية الموضوعية من تراثنا (ثورة ثقافية) ، لأنها ستؤدي الى ثقافة عصرية » (I ، ٢١١) ، واذا لم يتحقق هذا (الوجوب) المعبر عنه بكلمة (سيؤدي) ، مطلقة من كل شرط !؟

ويعمق هذه المنطلقات والنتائج الاستاذ جلال فاروق الشريف في دراسة مستفيضة ، تاريخية (الوضع الراهن منذ بعيد الحرب العالمية الثانية الى أيامنا) وسوسيولوجية (البنية الاقتصادية — الاجتماعية للمجتمعات العربية) ، تتميز بجدية البحث وتماسكه ، فيحاول :

١ — ربط المفاهيم الناظمة لتفكيرنا الوحدوي بعضها الى بعض في علائق ديالكتيكية (I ، ١٥٢ وفي مواطن أخرى) .

٢ — الكشف عن حركية هذه المفاهيم في القوى المتصارعة ، قومياً (الطبقات ، قوى الثورة العربية ، الخ) وعالمياً (المعسكرات ، التحدي الامبريالي ، الحركات التحررية في العالم ، الخ) .

---

(١) خطأ مطبعي ، وربما الاصل (تحديث)

٣ – اقامة موازنة بين هذه القوى تمكنه من تعيين موطن الخلل في مسيرة الوحدة .

٤ – تحديد المحور الذي تتجمع فيه القوى الثورية العربية (مصر – سوريا) تقابله : « نقطة التناقض الرئيسية الحاسمة في الصراع » وهي القضية الفلسطينية (I ، ١٧١ ، ١٦٨) .

وتقوم ويجب أن تقوم عملية التوحيد ، من حيث المبدأ ، على الارتباط بين الوحدة والحرية والاشتراكية (I ، ١٦٧) . ولكن لما كان هذا الارتباط جدلياً لاآلياً، فقد تعطله وربما تصرعه القوى المعادية وعلى رأسها امريكا والصهيونية) .وهذا ماوقع فعلاً مع الانفصال (ايلول ١٩٦١) انطلقت منه الثورة المضادة في « هجمتهاالشرسة » التي بلغت ذروتها في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، وبعده الى اليوم ، بحيث وقعت القضية العربية برمتها في نقطة الصفر « اللاسلم واللاحرب » على حد تعبير الكاتب الصحيح (I ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٥) .

ويوضح فكرته عندما يكتب : مهما كانت التحديات كبيرة« فليست موضوعياً اكبر حجماً من الامكانات الثورية للجماهير العربية ، أو بأقل من الامكانات النضالية للشعوب الاخرى الصامدة في وجه الامبريالية العالمية » (I ، ١٥٢) ، ولكن « التباس البنية الطبقية للحركات التحررية العربية وعدم ارتكازها الى قواعد جماهيرية واسعة منظمة وغموض منطلقاتها الايديولوجية وعدم التزامها باستراتيجية ثابتة » بالاضافة الى عجزها عن تصفية علائق الاستغلال ، في الداخل ، وفقدان التلاحم بينها وبين قوى التحرر في الخارج ، وانقسام المعسكر الاشتراكي على ذاته منذ الستينات ، كل ذلك رجح كفة الميزان لصالح الخصم ، لا بل حول العالم الثالث برمته الى « شبه مزرعة للامبريالية الامريكية تتصرف فيه بطشاً ونهباً وارهاباً دون رادع جدي » . (I ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٥٧ ، ١٦١) .

هـذا الكلام هو التلخيص الصحيح والمعقول لايديولوجية التقدميين العرب ، وهو ، في أدنى الحدود ، القاسم الفكري المشترك بينهم . انه يتبنى الأهداف التي ينادون بها اليوم (تلاحم قطرين او اكثر ، جبهة وطنية ، تضامن فعال مع اليسار العالمي ، الخ) وينقد ما ينقدون (الرؤية الغامضة ، تقوقع المنظمات السياسية ، نمو الاقليمية ، كون القيادة بيد الطبقة المتوسطة ، الخ) ويطالب بما يطالبون (المراجعة الشاملة كضرورة حياتية بعد الخامس من حزيران ، اقامة سوق عربية مشتركة ، تعميق النضال وزج القوى

كلها في معركة الأرض المحتلة ، الخ ..) ويمعن في هذه (الوجوبيات) اذا جاز التعبير، وجوبيات لا تدري ما الطريق الى تحقيقها ، فهي ، في الوقت ذاته ، أسباب ونتائج ، أول الطريق ونهايته ، كما أنه اخيراً يتبنى مصطلحاتهم في أجد استنباطاتها (شرائح ، فصائل ، معطاة ، أساسية ، شروط موضوعية ، الخ) .

ويمكن لهذا أن توجه اليه الأسئلة ذاتها التي توجهها اليهم .

وأضيف الى ميزات البحث ، متجاوزاً بعض (تناقضاته الجدليــة) تصوره العلائقي للتاريخ ، ومحاولته ، وإن كانت غير واضحة ، تأسيس الايديولوجيــا على الديالكتيك ، وحده يستطيع أن يعطيها صفة علمية تعوزها دوماً ، كما يرى ماركس .

ولكنه يكثر من الجدليات ، أتميز عنــده منها أربعاً على الأقل ؛ (الوحدة – الحرية – الاشتراكية) التي ذكرتها ، ومن ثم (الوحدة – التقدم – التحرر) وبعدها (حركة التحرر العربية ـ الحركات التحررية في العالم) والرابعة (المعسكر الاشتراكي ـ حركات التحرر الوطني في العالم الثالث) (I ، ١٩١ ، ١٧١ ، وفي مواطن أخرى) ؛ جدليات تتداخــل وتتراكم ، فلا تدري كيف تؤلف بينها ، اذ إن حدود كل منها لم تعرف بحيث يتبين لك كيف يستدعي أحدها الآخر ، او الأخر . أو تكون القومية طرفاً في علاقة طرفها الآخر هو الاشتراكية او التقدم او الديموقراطية ؟ الكل جائز اذا كان الأمر على هذا الشكل . وتقرأ في نهاية البحث (ولم لا تكون جدلية خامسة ؟) كلاماً توافق عليه ، وهاك نصه : « المأزق التاريخي الحقيقي الذي يمكن أن تمر بــه قضية ثورية ليس ضخامة التحديات التي تواجهها ، فلكل قضية كبرى تحديات على مستواها ، وانما انفصال وعي الطلائع عن وعي الجماهير » (I ، ١٧٢ ، ١٧٣) . وبوسعك أن تضيف : الانفصام بين القيادات والجماهير ، هــذه تتخبط في متاهة الايديولوجيات وتنتهي باللامبالاة ، وتلك يدافع كل منها عن مواقعه . ولكن تكون قد قرأت في سوسيولوجيا الاستاذ جلال فاروق الشريف تصنيفه للمجتمع العربي على أساس الفئات العاملة — وهو شائع بشكل او بآخر وضروري — وعلمت أن الطبقة العاملة زهيــدة العدد، فالجمهور في اكثريته الساحقة من فقراء الفلاحين، وأن الطلائع هي «البورجوازيات الوسطى والصغيرة وشرائح من المثقفين والموظفين والحرفيين والجنود والضباط » (I ، ١٦٣) فتساورك الشكوك في أمر هــذه القوى ، وتتساءل ما اذا كانت حقاً بمقياس

تحديات امبريالية يقول عنها الكاتب انها « ما تزال تسيطر على اكثر من نصف الكرة الارضية وتنسب مواردها » (I ، ١٥٦) ، وعندئذ يتملكك اليأس .

هذا واقع كل منظرينا التقدميين تفتت ايديولوجياتهم الأمة الى قطاعات ، أو قل الى اقطاعات يتوزعونها فيما بينهم ، والشعب بمعزل عن كل حذلقاتهم ..

ذلك ان استخدام المنهج الديالكتيكي المادي – منهج العقل الحديث – ليس بالأمر السهل . فهو يفترض ، على الاقل ، تعريف الحدود المستعملة ، وعبثاً تفتش عن شيء من ذلك . واذا وقعت على تعريف ، فهومن هذا النوع .

جوهر القومية هو الوعي والارادة (I ، ١٧٧) .

التقدمية تقاس بموقف معين من الحرية (I ، ١٨٢) .

التقدمية في القاموس تعني تبني الافكار السياسية والاجتماعية الجذرية الجديدة والعمل على تحقيقها لخلق المجتمع المتطور السليم المعافى الجدير بالبقاء والعيش والتكيف مع ظروف الحاجة ومقتضيات العصر (I ، ١٩٨) .

وعلى ذلك فقس .

زد أن احداً من الكتاب لم ينتبه الى العنوان الكبير «القومية العربية ايديولوجيا تقدمية » ليسائل عن مفارقته ، او قل عن تناقضه . هذا العنوان ، وبعد أن حولت السوسيولوجيا التقدمية الامة الى شرائح وفصائل ، وبورجوازيات ، الخ ، يحولها الى منظومة مفاهيم . فنكون قد انطلقنا من المادة لنقع في أسوأ انواع المثالية !.

* * *

نحو مرتفعات الفكر الخالص :

وبعد فدروب البحث ، النظرية منها والعملية ، متعددة . وهاهي ، بعد ان خبرناها في التاريخ وعلم الاجتماع وخسرنا الجولتين ، تحيلنا الى الفلسفة لنفتش في « الحتمية واللاحتمية » عن ضآلتنا ، ألا وهي تأسيس عقل وحدوي .

الأفكار ذاتها ، والمنطلقات إياها ، متباعدة – متقاربة تتكرر ولكن من منظور آخر . هذا الباحث يرجح الحتمية ، إذ يرى في الوحدة مايشبه القدر المحتوم (الدكتور عفيف البهنسي مثلاً) وذاك اللاحتمية إذ يشدد على الحرية (الاستاذ صفوان قدسي)

وباحث ثالث بين بين (الاستاذ ظهير عبد الصمد) . ولكن أحداً منهم ، فيا يبدو ، لاينكر دور البشر ، فالتاريخ ظاهرة انسانية ، كل من أحداثه نقطة تقاطع لأبعاد عدة ، البعد الانساني ركيزتها وهو الذي يفششها .

وتقرأ ، أول ماتقرأ ، الاستاذ ظهير عبد الصمد ،يبدأ باحصاء « الأسباب المعيقة للوحدة » (عنوان البحث) ، أو قل ، دواعي الفرقة فاذا بها اثناعشر (الامبريالية ، الرجعية ، العفوية ، أخطاء وحدة ١٩٥٨ ؛ الخ (I ، ٩١—٩٥) تقابلها ثمانيةأسباب في « اتجاه التطور نحو الوحدة » (العالم العربي ، الموحد أساساً ، والمترابط من حيث التاريخ واللغة والمصالح ، كون التنمية تقتضي الوحدة ، تناضل من أجلها القوى العمالية والفلاحية ، وكذلك الأحزاب الشيوعية والأنظمة التقدمية ، الخ) (I ، ٩٥—١٠٠) تستطيع أن تقلص هذا الاحصاء أو تمدده . فاذا تجاوزت ذلك وتجاوزت بعض التناقضات الداخلية يكاد لايخلو منها بحث ، تجد أن فكرة الكاتب تتلخص في أن الوحـــدة أصل والتجزئة أتت الينا رغماً عنا ، قسمت عالمنا الى معسكرين : الوحـــدوي حيث القوى الكادحة هي الأكثرية ، الاقليمي ، حيث البرجوازية ــ الرأسمالية ــ الاستعمارية هي الأكثرية . فالصراع (I ، ١٠٠) طبقي في جوهره ، والوحدة لاتتحقق تلقائياً بل « من خلال ايجاد القاعدة المادية وهذه تنمو وتترعرع » . ولما كان النصر بجانب التقدم والقوى التقدمية فالتاريخ يسير في اتجاه وحـــدوي ، والمسألة مخلولة أو تكاد (I ، ١٠١ — ١٠٣)

ويبعدبك الدكتور عفيف البهنسي الى منطلق الاستـــاذ أنور الرفاعي ، بدون الجيولوجيا وعلم الأقوام ، فيكتب : « الأمة العربية ، أمة حضارة بل أمة حضارات .. فاذا كان أجدادنا الأوائل هم الذين افتتحوا التاريخ بحضارة الرافدين وحضارة وادي النيل وحضارة سورية القديمة ، فان هذه الحضارة قد أعطت الانسانية خير ماليديها من أخلاق وعقائد وأفكار وفنون ، استمرت آلاف السنين موحدة شكلاً ومضموناً . » (I ، ١٠٥) وتتردد وأنت تقرأ هذا النص وماليي ، في أيها موضوع البحث : القومية أم الحضارة طالما أن الحضارة حضارات (وأن الوحدة العربية تفككت« عبرالتاريخ الاسلامي » (I ، ١٠٦) تتردد لتتعرف بعدها أن الشخصية الحضارية هي الموحدة . ولكنك تقرأ بعد أسطر : « ان وحدة الشخصية الحضارية ، هي العامل الأساسي في بناء الأمة العربية وفي استمرار وحدتها التي مازالت قائمة حتى يومنا على الرغم من التجزؤ

السياسي المفروض والذي لم يستطع اطلاقاً القضاء على الوحدة القومية الراسخة منذ القدم» (I ، ١٠٧) تقرأ فنتساءل : وكيف يمكن للشخصية الحضارية بوصفها كلاً ان تكون عاملاً من عوامل القومية ، وهي كل أيضاً ؟ ويزيد في ارباكك أن الباحث ينسى فيما يلي الحضارة والشخصية الحضارية ليحلل مقومات الأمة في صيغتها الكلاسيكية (الثقافة ، اللغة ، الفن ، الدين ، التربية والوحدة العسكرية والاقتصادية) ، ويضع لاعادة انشائها « على المنطق والتخطيط العلمي » مقترحات كثيرة كلها جيدة :

تسهيل الصرف والنحو ، اختصار احرف الطباعة ، اصدار المعاجم اللغوية ومعاجم المعاني والموسوعات ، توضيح معالم الفن العربي بعزل الأساليب المستوردة (I ، ١٠٩) وقبلها كان قد تكلم عن ضرورة انشاء سوق عربية مشتركة وتأميم النفط ، الخ ..

ويخلص الى هاتين النتيجتين المتكاملتين :

الاولى — كلية — وهي «أن تكون المجتمعات والحضارات عضوي يجنح حتماً نحو التكامل والنمو » (I ، ١٠٨)

الثانية : « وإذا اضفنا الى الوحدتين الاقتصادية والثقافية ، الوحدة العسكرية التي لامفر منها .. كان هذا معناه أن الوحدة العربية السياسية حتمية لامحال في ذلك » . (I ، ١١٠)

وينقلك ، بعد البحثين السابقين ، الاستاذ صفوان القدسي الى أعلى المستويات الفلسفية عندما يعالج مسألة الحتمية واللاحتمية بذاتها ولذاتها أولاً ، ومن ثم في تأثيرها على سلوكنا فيما إذا أخذنا بهذا المبدأ أو ذاك . فالحتمية اتكالية واللاحتمية تضع مسؤولية التاريخ على عاتق الانسان . ذلك ان التاريخ في نظره صراع ارادات ، الظفر فيه للارادة الاشد تصميماً على تحقيق ذاتها (I ، ١٢٢ ؛ ١١١) وتتضح فكرته عندما يكتب : إذ لو كانت الذات قبل كل شيء حصيلة لتجاربها .. أي للقوى الخارجية التي تؤثر فيها ، لكان من الواضح أن الاختيار ، في لحظة القرار الفعلي ، سيكون نتيجة لهذه القوى «أي» المنبهات والوراثة والتجارب السابقة » والبيئة الخ . (I ، ١٢٣) .

وليسمح لي صديقي صفوان ان اصوغ فكرته في تساؤل هو محور البحث الذي تدور حوله « المعرفة العربية » : مامعنى كلمة « نحن » في قولنا « نحن العرب » ؟!

صحيح مايقوله الاستاذ محمد حافظ يعقوب « مناقشة الوحدة العربية وبحثها بعيداً عن التاريخ ، مناقشة عقيمة ، وتعطي نتائج عكسية » (I ، ١٩٩) ولكن التاريخ الخالص يفتت الوحدة كما تفتتها الايديولوجيا المتبدلة معه . فكلاهما بحاجة الى تأسيس غير تاريخي وغير ايديولوجي ، يستند الى مبدأ « متعال » كما يقول الفلاسفة ، أي متفاعل مع التاريخ ، مرتبط به ، وفي الوقت ذاته مستقل عنه يؤلف بين احداثه المتعاقبة ليجعل منها كلا موحداً .

وهذا مايحاوله الاستاذ صفوان قدسي

فمن فضائل بحثه انه الوحيد من نوعه في عددي المعرفة ، لا لأنه يعلق المنهج الماركسي وينقده احياناً نقداً مجحفاً ، فغيره حاول ذلك ضمناً ، بل لأنه سائل العلوم الطبيعية والانسانية والفلسفية ، فسلك طريقاً غير معبدة ، بالنسبة الينا ، ونحن بحاجة لاختبار كل الطرق، نقيم الحوار بينها .

ولكنه ، قبل ان يصل الى (الذات) التي يريدها حرية (مع سرتر) ومتعالية (مع كنت) وفي ذلك مافيه من اللبس ، ضاع هو الآخر في متاهة أخرى ، متاهة الميكروفيزياء وعلائق الارتياب (هيزنبرغ) ولم يصل الى العلوم الانسانية الا بشق النفس .

ومن ثم فان البحث العلمي الخالص يقف عند حدود ماسماه « القوى الخارجية » (وهذه لاعلاقة لها بالحرية وباللاحرية) ؛فهو من مستوى ، والبحث الفلسفي ، وان كان يستند الى الاول ، فهو من مستوى آخر ؛ مستوى الدلالة إذا شئت ، الدلالة التي اذ تتكشف ، ترسم للممارسة خطاً أو خطوطاً تجعل الارادة الحرة عاقلة ، وفعلها فعلاً مسوغاً عقلياً .

وهذا من شأن الباحث في الوحدة ، أهلي الشؤون .

وبعد فان النقاش حول علائق الارتياب لمّا ينته بعد. ففي حين حافظ هيزنبرغ في آخر مؤلفاته(١) على المبادىء التي طرح في مؤتمر سولفي المعروف عام ١٩٢٧ ،

---

(١) الفيزياء والفلسفة . بامكان القارىء العربي أن يراجع كتاب الدكتور عبد الكريم اليافي (التقدم في العلم)، الذي يرجع اليه الاستاذ صفوان قدسي، او أن يراجع كتاب (الطبيعة في الفيزياء الحديثة) لهيزنبرغ وستنشره قريباً وزارة الثقافة والارشاد القومي بسورية في ترجمة الاستاذ قسطنطين قدسي .

وبقي انشتين متردداً بأمرها ، نلاحظ أن لوي ده برويل الذي وقف اذ ذاك الى جانب هيزنبرغ ، بدّل موقفه عام ١٩٥٥(١) وما يزال ، على ما أعلم حتى الآن يحاول ارجاع اللاحتمية الى الحتمية بحيث يضمن وحدة الفيزياء الرياضية . وكثيرون من رأيه . على كل النقاش مفتوح وسيبقى مفتوحاً لزمن طويل .

واخيراً فالحتمية ، في سؤال مجلة المعرفة ، ليست تلك التي تناقش بها الفيزياء والعلوم الاخرى ، تقرها ام لا ، بل مسألة اخرى تصاغ على اشكال منها :

١ – التاريخ ومعناه ، هل هو متضمن فيه (الفلسفة الاغريقية أم أن الانسان هو الذي يضيفه (الفكر المعاصر) وعندئذ يتحدد دور الانسان فيها ، اذا كان الحق بجانب الفريق الاول (الدكتور بهنسي ضمناً والدكتور شكري فيصل صراحة ، اذ يتحدث عن فطرية الوحدة . (I ، ٦٣ –) ام بجانب الفريق الثاني (لا احد في دراسات مجلة المعرفة) اذ لا اعرف شخصياً فيلسوفاً – من الكبار اللهم – يرى أن التاريخ خاضع لقوانين تلقائية حتمية لا قبل لنا بها (I ، ١٢١) .

٢ – الحدث ودلالته ؛ الحدث معطى وبالتالي حتمي بعد حدوثه ، اما الدلالة فتتأتى مع الانسان الحر . فالوحدة فعل توحيد يتحول الى معطى كلما تحقق دون أن يفقد فعاليته . اذ ان الوحدة ليست وضعاً نستقر فيه مرة ولكل مرة ، بل انشاء مستمر هو من شأن السياسي الذي يوحد أو يفرق .

ولو أن الدكتور بهنسي صاغ مفرداته وعمقها (شخصية حضارية ، أمة ، وحدة المجتمع) لالتقى مع المسألة في وجهها هذا . وتجدر الاشارة الى أن محاولة الاستاذ جلال فاروق الشريف عند اختباره القوى المتصارعة ، هي المنطلق الصحيح لبحث المسألة السياسية في وجهها الديالكتيكي ، أدق الأوجه وأبعدها مدى .

٣ – الوجود برمته من حيث أنه نظام (كوزموس كما لدى الاغريق) أو لا نظام (فلسفات العبث واللا معنى) . وهذا يطرح المشكلة التي تهيمن على الفكر برمته – علاقة الحرية بالضرورة – الصيغتان السابقتان جزء منها .

(١) لوي ده برويل ، آفاق جديدة في الميكروفيزياء . بامكان القارىء العربي أن يراجع الكتاب الذي ستنشره وزارة الثقافة والارشاد القومي بسورية عن هذا العالم ، ترجمة الاستاذ محمد وائل اتاسي .

وبا ليت أن الأستاذ صفوان وقد أبدى ما أبدى من الجرأة ، يتصدى لمثل هذا الموضوع ، يلامسه عند حديثه عن الذات ، ويرتد عنه خشية أن تلصق به تهمة الميتافيزيقا (I ، ١٢٧) وهو ، بحق ، غائص فيها . ان الميتافيزيقا – علم المبادىء الأولى بالدرجة الاولى – هي التي ، في أدنى الحدود ، تثير اشكالية الأساس الاول فتفتح للحوار طرقاً جديدة . وهذا ما حققه الديالكتيك – المثالي والمادي – عندما أبدل الجوهر بالعلاقة ، ومبدأ عدم التناقض بمبدأ التناقض ووحدة الأضداد ، فطرح بذلك مشكلة التاريخ والانسان في التاريخ طرحاً مبتكراً هو الذي يستلهمه الفكر الحديث برمته .

واذا قسنا الامور بهذا المقياس – أعمق المقاييس – نلاحظ أن «المعرفة العربية» استعاضت عنه بالوصفات والوجوبيات (أعمل – لا تعمل ...) فاستحقت « شتيمة » الدكتور شكري فيصل عندما يقول ، وفي قوله الكثير من الصواب : « في الوسع أن نصطنع كل برود العقل ، وأن نأخذ أنفسنا بشيء مما يسمونه الدراسة والموضوعية والمنهجية ... ان نخرج من جلودنا لنبرهن على أنها جلودنا ... في الوسع أن نفعل ذلك فقد كان من أقسى غزو الاستعمار لنا أنه وضع هذه الأشياء : معتقداتنا ووجودنا ، موضع التساؤل ، وموضع الشك والارتياب » . (II ، ١٥١) فعندما لا يكون الفكر بمقياس الامور الكبيرة ، عليه ان يصمت ليحيا المشكلة كما يحياها المواطن العادي ، والا فانه يتعرض لاتهام الأدباء ، ويكون حقاً مستورداً .

في جذور التجزئة :

ربما أن هذا الموضوع ، تصدت له معظم البحوث ، هو أخطر الموضوعات التي يجب على « المعرفة العربية » أن تهتم بها ، اذ ان الكشف عن الداء ، ان لم يكن الدواء ، فهو الطريق اليه . ولكم نتمنى لو أن المؤرخين يرحلون الى الماضي ، كي يرحل الدكتور شكري فيصل في الحاضر ، بحثاً عن جذور التجزئة والاقليمية ، هذا الارث الثقيل « ورثه الوطن العربي الحديث وهو يكتشف نفسه » كما يقول الاستاذ عبد الكريم غلاب (I ، ٧٦) . لقد لامس عدد منهم (الدكتور نور الدين حاطوم ، الدكتور احمد طربين، الخ) الداء الخطير برفق ؛ نلامسه كلنا ونتجاوزه كما يتجاوز العصابي عصابه ، يخشى أن يعرفه ، وفي المعرفة الدواء أو بعضه .

ثمة حقيقة مرة علينا كلنا أن نواجهها : فعل التوحيد يستدعي التجزئة بعداً سلبياً ، يجب أن ينتصر عليه باستمرار .

وتبدأ رحلة الدكتور شكري فيصل في غنائية هادئة ، حزينة ، وفي الوقت ذاته ، مصممة على أن تجتاز درب الآلام عسى البعث يكون نهايته .

الأصل الوحدة فطرة « هي ، كالبذرة ، رعاها في قلب جيل ما بين الحربين ، اساتذة أجلاء فنمت لغة وثقافة ودينـاً . الوحدانية في السماء والوحدة على الأرض » (I ، ٦٠) ، اليوم كا بالأمس ، لافرق بين مشرق العرب وبين مغربهم . خطوات اولى شاقة « كسرنا أعمدة الكهرباء ، اصطدنا بالحصى الصغير الفناجين العازلة ادرنا وجهنـا للعملاء في المدرسة .. » (I ، ٥٩) ؛ ولكنها مترعة بالآمال ، تجسدها « عصبة العمل القومي » ، أول حزب نادى بالوحدة الشاملة .

ويأتي التحرر في المرحلة الثانية ، فاذا به استقلال ، لا عن الاجنبي فحسب ،بل عن الاخوة ، كل قطر ينشيء له ذاتاً هي « خلاصة ظروفه ، موقعه وتاريخه وسكانه » (I ، ٦١) فتضطرب الصورة الاولى « في التفاضل والتمايز والفروق » بين الأقطـار يسوغها في نظر الناس بحث عن ماضي قريب أو بعيد ، أقرب الى السعي وراء المستحاثات منه الى أي شيء آخر (I ، ٦٢) .

انه الوهن يعتري الشعور القومي ، فتبدده في المرحلة الثالثة ، الوحـدة بين القاهرة ، دمشق ، « أضخم أحداث الحيـاة العربية » أعادت الثقة الى النفوس اذ « أعادت القيمة الحقيقية للاستقلال ووضعت هـذه القيمة موضع التبادل والنمو ، وامتصت السلبيات الكثيرة التي رانت على السلوك الوحدوي وعلى الفكر الوحـدوي » (I ، ٦٥) . ذلك أنهـا انطلقت من الدوائر الاربع التي رسمها الرئيس جمال عبد الناصر (الاقليم — الامة — الاسلام — الانسانية) فضمت أبعاد الوجود العربي كلها وفتحت للممارسة آفاقاً غير محدودة (I ، ٦٤) .

ولكن الوضع الدولي لم يكن ، يومها ، مناسباً ، كما يلاحظ الاستاذ ظهير عبـد الصمد (الدول الاستعمارية معادية ، وبعض الدول الحليفة والصديقة غير متحمسة I — ٩٣) ، فالشرق والغرب ، فيما يرى الدكتور شكري فيصل ، يناهضان قوة جديدة تهدد مصالحهم . ونحن لم نضعها « في المنزلة التي كان يجب أن تنزل فيها » فرأينا فيهـا تجربة قد تنجح وقد تخفق ، مع أنها مسلَّمة لا تساءلنا عنها ، ناقشنا أمرها ، وهي « مقدس » رأينا فيها بداية تاريخ ، وهي استئناف لتاريخ ، تاريخنا قبل الاسلام وبعده ، نفترق فالغلبة علينا ، ونتحد فالتاريخ منعطف جديد (I ، ٦٧ — ٦٨) .

في هذه الثغرة التي فتحت نبت الانفصال المشؤوم ، مرحلة رابعة بددت الشمل « هاجر من هاجر ، وابتعد من ابتعد ، وسكت متحــدثون ، وانطوى على جراحهم مجروحون » (I ، ٧٠) .

ويستأنف الدكتور شكري فيصل حديثه الادبي — حــديث النفس للنفس — في تأمل جديد يريده ، هذه المرة دراسة ونقداً ونداء ، دراسة تعنى بالكلي الشامل ، وكان قد علق من قبل ، نقداً يكشف بأسلوب أدبي دوماً عن مواطن الضعف في حياتنــا الراهنة ، أشبه شيء بالبهلوان « يمشي على رأسه وقدماه الى أعلى » (II ، ١٥٣) ؛ نداء الى الذين « يملكون القدرة على الفعل أن يفعلوا » (II ١٥٧) .

الاتحادفتناحية ، الوحدة الاندماجية تباشير الدخول فيها (II ، ١٥٠) ، وكل مافي وجودنا يدفعنا ، كما القدر ، نحوها :

الواقع، وهو اللغة والارض والتاريخ.. الرسالة والمصلحة .. التراث والمستقبل.. التجانس والتماثل .. التقارب والتكامل والآمال العريضة (II ، ١٥١ — ١٥٢) .

الحياة العسكرية ونحن في حروب مستمرة .

الحياة الاقتصادية ، ويجب أن نتخطى فيهــا المصالح الفردية والقطرية في سبيل مصلحة الأمة (II ، ١٥٢) .

الحياة السياسية ، ويجب أن تخرجنا .. من إسار الموقف المنفعل الى طلاقة الموقف الفاعل لا يتأتى لقطر ما وحده » (II ، ١٥٤) . هذا الموقف الفعال ، يطهر الامة من آثامها (الرشوة ، الانحراف ، متخلف ، الاستعمار ، الخ) ويمكنها من القيــام بانجازات ضخمة وحــدها تصهر الفرد في الحركة الشاملة ، وعندئذ تضاف الاصفار (الخطيئات) الى الواحد (الوحدة الاندماجية) فيتحول السلب الى ايجاب (II ، ١٥٦) .

ويعجبني شخصياً،اكثر مايعجبني ، في التأملين الدعوة الهادئة — الملحة الى التضحية أجدها ضمناً وصراحة في كل الكلام : « الدخول في معركة الوطن بعيداً عن كل الحساسيات (I ، ٦٦) « الارقام مضللة أحياناً .. حساب الربح والخسارة هنـا حساب خاسر » التفكير في المصالح الاقتصادية نوع من التجديف » (III ، ١٥٢ — ١٥٣)

من هذا المنطلق الذي هو الاساس عنده (وعندي) يصبح البحث غنياً بالدلالات .

وهذا من شأن الاديب . فالمفكر ، اذ يقتصر على الفكر ، يحول الواقــع الى مفاهيم تكشف عن ترابطه المنطقي حتى لكأنه حتمي . امـا الاديب فيحوله صوراً هي

مرمى المستقبل . المفهوم ، اذا كان دقيقاً ، اجرائي . امـا الدلالة فأفق الاجراء وغاية فعاليته .

ويتركز تأمل الدكتور شكري فيصل ، في قراءتي الفكر بالة ، على التناقضات التي تخترق الواقع العربي ، كل منها دلالة تستدعي الوحدة تجاوزاً لها .

١ ـ التناقضات الداخلية بين المصالح والسياسات القطرية .

٢ ـ التناقض الكبير بين « القوى التي تقف لهذا الوطن من نحو ، وتطلعات ابنائه نحو حياة موحدة كريمة من نحو آخر » (II ، ١٤٩) .

٣ ـ اكبر منه التناقض بين الوحـدة والتجزئة يتناوب « منذ أيام الجاهلية الى قيام اسرائيل ... تناوب الليل والنهار » (II ، ١٥١) دوافعه في المصالح الدوليـة والاقليمية ، وأعراضه شتى ، تغني الانفصاليين بالتراث الاقليمي ، احياء الفولكلور الخ .

أقف عند النقطة الاخيرة ، فالأسئلة عنها كثيرة .

هدف البحث الوحدة ، وتحية لها في شكلها الاندماجي ، ولكن ماذا عند التجزئة ، ما تزال قائمة تهددها في كل مكان ، وربما في قلب كل منا ؟

يعدد الدكتور الصور والأحاسيس ، ويلونهـا ، الأحاسيس أكثر من الصور (التجزئة ، ليل تشتت ، خسارة ، ضعف يكاد يكون مرضاً ، الخ) ولكنهـا صور وأحاسيس تستند الى مفاهيم غائمة ومتناقضة ، كما في بقية البحوث والتأملات .

الوحدة قدرنا ... ولكن هـذا القدر لم يمارس منذ قرون نشاطه حتى لكأنه اللاقـدر .

الوحدة فطرة ... فلم اذاً تشوهت منذ أن كانت ؟

الوحدة بالنتيجة أمر ايجابي ، فكيف تأتي اليه السلب ، ولازمه ملازمـة الليل للنهار ؟ ذلك هو السؤال الأساسي .

اذا كان الحـدان متعـارضين ديالكتيكياً ، يسـتدعي كل منهـا الآخر ، فيا للخسارة لأننا نكون قد وضعنا التجزئة على مستوى الوحدة وشتان بين المستويين .

هنا نلمس وهن الصور التي لا تستند الى فكر واضحـة فلنتجاوزها لنسائل عن التجزئة :

أهي في الاقليمية تستعيد القبلية ؟ ولكن الاقليمية ، على خطورتها ، نتيجـة لا سبب .

أم في تعارض المصالح الدولية والمحلية مع المصلحة الكبرى ؟

الشرح المادي أصح مما تقدم ، ولكنه يقف حائراً أمام الوحـدة ، كما سنرى ، هي هدف والتناحر على الخامات والأسواق واقع .

لقد توحد العرب مع الاسلام . أكان ذلك نتيجة لمصلحة ، أم أنها المصلحة تلغي المصالح ؟ ويقولون ان الاسلام ايديولوجيا ، والوحدة ايضاً(١) ، ولكن انشاء الأمة الواحدة لايتحقق الا اذا أسقطنا حساب الربح والخسارة ، كما يقول بحق الدكتور شكري فيصل .

لايمكنك الا أن تكون بجانب الدكتور عندما يرى في الوحدة استئنافاً لتاريخ ، لا تاريخاً جديداً (I ، ٦١) .

ولكن فكرة الاستئناف — اذا اخذت بكل قوتها ، وهذا ما يجب أن يكون — تسقط الفطرة والطبيعة والقدر ، لأنها تجعـل من الماضي مستقبلاً ، كما يرى الدكتور شكري فيصل ضمناً عندما يدعو الى « استعادة » النقد الادبي القديم ، حواراً مع النقد الادبي الاجنبي(٢) ، وهي بوصفهـا فسحة التاريخ ، المجال الحقيقي للبحث عن دور السلب .

* * *

ويحضرني عفوياً ، وأنا اكتب ، بيت المتنبي (يا أمة ضحكت من جهلها الأمم) والسياق الذي قيل فيه معروف .

فأتساءل : ينادي الشاعر الامة على أنها موحدة أصلاً ، فلم لايرى ، لا في شعره ولا في مواقفه السياسية (والاثنان واحد كثيراً ما) أي حرج في أن يكون لهذه الأمة حاكم في القاهرة ، وآخر في حلب ، وغيرهما في عواصم عربية اخرى ؟ وبوسعك أن تثير السؤال ذاته في كل مناسبات التاريخ العربي ، أدباً وفكراً ، سياسة واقتصاداً .

---

(١) راجع بشأن القومية ايديولوجيا ، كتاب الاستاذ مكسيم رودنس المذكور ، فهو جدير بالتأمل والمناقشة .

(٢) راجع بحثه في المعرفة العدد ١٢٦ ، آب ١٩٧٢ ، بعنوان التراث البلاغي والمعاصرة حتى صفحة ١٧ ومايلي .

اذا هناك تفاوت قائم من الأصل بين الامة والدولة ، هذه تفيض عن تلك في مراحل النمو ، وتلك عن هذه في مراحل التقهقر ، تفاوت هو واحد من مجالات التجزئة الهامة ــ أهمها على الارجح ــ فيه تلبث وتترعرع . والأمة بوصفها حركات شعبية تتمرد يوماً. وآخر تستكين ، اليوم كما الأمس ، وربما غداً كما اليوم .

ان الصراع في جوهره سياسي . ولا عجب ، فالسياسة أعلى مستويات الحرية . واذا كانت الدولة فسحة التعقيل كما يرى المفكرون (باستثناء مـاركس وخلفائه) من أرسطو الى هيجل وبعدهما ، أفنكون قد وُجدنا حرية أكثر منا عقلاً ؟

أجـــل هي السياسة تستدعي المصالح ، تنشئها ، وتعكسها في الايديولوجيات لتسوغ قراراتها .

على كل ، هذا التفاوت هو واحد من الاشكالات التي يجب ان نقرأ التاريخ العربي على ضوئها ، وفي صياغتها ؛ تفاوت عبثاً تفتش عنه في « المعرفة العربية » لدى الباحثين والمتأملين ، لدى المتدنين والأدباء .

هذا باستثناء واحد منهم ـ واحد وحسب ـ يلامسه دون أن يعمقه ـ وقد أثرت الى رأيه ـ هو الاستاذ عبد الكريم غلاب ، عندما يشدد : « لا نخون التاريخ فنزعم أنا كنا شعباً واحداً ودولة واحدة » . ولكنه يخشى ، فيما يبدو تهمة اللاقومية فيضيف لتوه مشدداً ايضاً على دواعي الوحدة : « وكنا مع ذلك كنا نستقي من منبع عرقي واحـد ، عرباً أصلاء او تعربنا عن طريق الهجرات المتبادلة المتداخلة . ووحـــدنا الدين في اغلب الشعوب . وكانت الثقافـــة بالمعنى الواسع ، التي تشمل الحضارة الفكرية والفنية والمادية والشعبية ، تبلور هذه الوحدة وتوجهها نحو التلاحم والترابط » (I ، ٧٥) ؛

وكان قبلها قد بحث في وحدة القوميات الأخرى (الصين ، المانيا ، ايطاليـــا) فبين بأمثلة استقاها من التاريخ الحديث أن الأمة قد تتفتت فتصبح دولاً ، كما أن الدولة، عندما تنهض ، توحد بين شعوب مختلفة عرقاً وثقافة .

ثم يمر بسرعة على الامة العربية في ماضيها البعيد (الجـاهلية) والقريب (الحكم العثماني وما تلاه) ليكشف عن جذور التجزئة في وضعنا الاجتماعي (القبلية) وفي فكرنا الذي انساق مـع نظريات المستعمر ، عندما اخذ هـــذا يصطنع القوميات بالاستناد الى الحفريات (I ، ٧٨) .

ويخلص أخيراً الىهذه النتيجة وهي ان للتاريخ حتميات، وسنستجيب لاحداها، فيختم بحثه بوجوبيات تضاف الى ما أتى به غيره .

لا أدري شخصياً وبصورة قبلية ما اذا كان الفينيقيون عرباً أم لا . ولكني ألقي سؤالين ، الواحد أوجهه الى « الفينيقيين » ليقولوا ما « الفينيقي » في انا اليوم ؛ والآخر لخصومهم لأعرف ما المقياس الذي يستخدمونه ليقرروا جازمين ان هذا الشعب ، الممعن في القدم ، عربي .

الجواب ، فيما ارى شخصياً ، قبل المفاهيم القومية وبعدها ، نفتش عنه فيالواقع المباشر : انا انتمي الى العروبة لأني اتكلم لسانها ، سيان كان من الالسن اكثرها او اقلها جمالاً ، اي اني ارى الموجودات واعرفها وأتفاعل معها من الموقع الذي خلقني الله فيه .

ان الثقافة ليست امراً حيادياً تأخذ به او لا تأخذ، بل هي لحمة وجودكالانساني وسداه . واذا صح وكان في ثقافتك العربية ما يمت الى الفينيقية او الى الآكادية ، الخ بسبب ، فقد استعيد من منظور عربي فتعرب وهذا ما يلاحظه ـ ضمناً او صراحة لا اعلم ـ الاستاذ خلدون الشمعة عندما يكتب ،

« ان دور الثقافة الادبية في التكوينالقومي للامة العربية كثيراً ما يضيعتحت ركام عناصر التكوين القومي الاخرى» . اقول (لا اعلم) لان (الركام) عنده هو العناصر الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والسياسية المكونة للقومية (اكله ركام ؟!) . يكتب الباحث هذا ثم يضيف :

« غير أن (التراث الأدبي) ، مصطلح غائم ينطوي على معنى (الملكية) الخاصة على الرغم من أنه لا ينفي حقيقة التفاعل أو التنافر أو التجاذب أو التنابذ بين مختلف الثقافات » . (I ، ٨٧) . ويا ليته وضع (الماضي ، ماضينا) الى جانب ما تقدم ، اذ ان التفاعل الثقافي يمتد على خط التاريخ كله سطحاً وعمقاً .

ولا أدري أخيراً لماذا ينقد مصطلح (التراث الأدبي) وهو يرد كل منجزاتنا الحضارية اليه وبخاصة الى الشعر ، ومسألة (الرد) هذه جديرة بالبحث والتأمل .

ونقرأ بحث الدكتور أحمد طربين ، تبحث فيه عن « الوجود والصيرورة » في الوحدة العربية ، فلا تقع لها على أثر أو خبر ، ولكن تستوقفك العبارة التالية ، أعزلها

عما قبلها وعما بعدها : لقد تأخرت (الامة العربيــة) في ميدان خطير الشأن هو ميدان الوعي القومي » (I ، ٤٠) يوضعها المؤلف عنـدما يرى أن المثقفين العرب لم يتضموا بمهمتهم ، وهي ان يكونوا اداة تعقيل تتوسط بين الحاكم والشعب (I ، ٥٤ و ٢٧٥). وكلمة (وهي) بمعناها القوي تشير الى الشعور يتضح فكراً ، لذاته ولعـالمه ، فيتحول لدى العالم ، الى مفاهيم ؛ ولدى الشاعر والفنـان والفيلسوف الى دلالات ؛ كلاهما (المفهوم والدلالة ، ركيزة العمل السياسي وأفقه .

ولكن أنى لنـا ذلك ، وقد أغرقتنا « المعرفــة العربية » بسيل من المعلومات والوقائع ، يمكنك وأنت تستعرضها ، أن تضع السبب محل النتيجة، والنتيجة محل السبب فلا تدري أيها الأسبق .

وتقع أيضاً عند قراءة الدكتور طربين ، على هذه العبارة الخطــيرة الشأن إذا أخذت بكل جديتها : « إن أخطر محنة يتعرض لها المناضل الوحدوي تأتيه عن ذلك الذي (جماعة أو فرداً) يعتقد أن عقيدته هي ، الحقيقة المطلقــة ، وما عداها زيف وأوهام » . (I ، ٤٨) .

ليست كل المبادىء سواء . صحيح . ولكن كلام الدكتور طربين يذكرك — اذا كنت تذكر — بالعصبية ، يرى فيها ابن خلدون — الوحيد الذي حللها بكل أبعادها على ما أعلم — قوام الدولة العربية والمحرض عـلى انشائها . ان كاتب (مقدمة التاريخ) أدرك بحدس عبقري ،منطق تاريخنا السياسي بأكمله . وما أحرانا بالتأمل فيما كتب لانه يتكلم عن اليوم كما عن الأمس .

أولاً يذكرك النزاع الايديولوجي اليوم — مع اختلاف الزمن والموقف — بالنزاع الكلامي في الماضي ، كل فريق على موقعه لا يتزحزح عنه قيد أنملة . والمواقف تتعدد والدولة تتفكك وتنهار ؟

أقول بشيء من التبسيط لا يليق بابن خلدون ،

أن تفزع لأخيك ، أن تكون معه في الضراء والسراء تقفان في وجه الأجنبي ، ذلك موقف لا غبار عليه . ولكن اذا أمعنت ، ألا يصبح الاخ نفسه اجنبياً ؟

اني ككل عربي ، أحن الى العصبية ، وربما اني أحبها بمرونـة الدكتور شكري فيصل ولكني اسائل نفسي قبل غيري ،

ألم تصبح العصبية داء مستعصياً ، يفرق ، لا بين قطر وآخر ، بل بين الرفيق ورفيقه ؟ واذا كانت للعصبية ايجابياتها ، فكيف نفيد منها اليوم ؟

وأخيراً كيف نتجاوزها لانشاء الوحدة على أسس علمية تساير متطلبات العصر ؟

من التجزئة الى التخلف :

كما أن الوحدة السياسية تستدعي الوحدة الاقتصادية توسيعها وتكملها ، كذلك التجزئة تستدعي التخلف نتيجة من نتائجها – أدهى النتائج – ترتكس عليها .

ونحن بعد في عصر التكتلات الكبرى على كل المستويات، في عصر التنمية وتزايد الانتاج في سلسلة هندسية تؤدي الى مجتمع الاستهلاك . وياليت أن الاقتصاديين يدرسون علاقة التجزئة عندنا بوضعنا الاقتصادي . فربما – وهذا ما أرجحه – أن واحداً من دواعي التجزئة في آلية هذا الاقتصاد ، تدفع كل قطر الى الانطواء على ذاته كي يرتب حساباته لإرضاء المستهلكين الذين يتكاثر عددهم وتزداد مطاليبهم بنسبة التكاثر ، مما يربك المخطط الاقتصادي ويدفعه الى اغلاق الاقتصاد القطري وبالتالي الى ترسيخ جذور التجزئة ، وهكذا ندور في حلقة مفرغة .

ولهذا فانك تنتظر العدد الثاني (١٢٩) علك تجد ، من منطلق جديد ، الجواب على الأسئلة التي تركها الأول (١٢٨) معلقة .

وتبدأ رحلتك الجديدة ببحث الاستاذ يحيى عرودكي يحلل فيه التكتلات الاقتصادية الكبرى (بخاصة – وهذا أمر طبيعي – السوق الاوربية المشتركة ومجلس التعاون الاقتصادي المتبادل أو الكيوميكون) أولاً من حيث دوافعها ونتائجها العملية ،وبعده من حيث ارتكاسها على اقتصاديات البلدان المتخلفة . يليه بحث الدكتور هشام سمعان الذي يتناول الموضوع ذاته من منظور أوسع ، وفي صياغة أكثر دقة .

ويمكنك استخلاص ما يلي من البحثين ، مع العلم أن السبب ، هنا ، يؤدي الى نتيجة تتحول بدورها الى سبب .

١ – الدوافع وتتلخص في التقدم العلمي والتقني ، أدى الى تسارع الانتاج في سلسلة هندسية ، تتكشف كل يوم عن منتجات جديدة ، كما أدى بالتالي الى تراكم رأسمالي متزايد.

٢ – الاجراءات العملية ، وتتلخص ، من حيث نقطة الانطلاق ، بالتخطيط ، هدفه :

آ ــ ايجاد أسواق داخلية وخارجية بمقياس الفعالية الاقتصادية المتسارعة انتاجاً واستهلاكاً .

ب ــ وضع تشريعات تحطم الحواجز الادارية والجمركية التقليدية وتوسع السوق وتسهل تنقل العمال والأعمال من بلد الى آخر ، كما أنها تفسح المجال لتنافس اقتصادي ملائم للاقتصاد الجديد .

ج ــ اعادة التوازن الى سوق اختلت لحساب بعض البلدان على حساب البلدان الأخرى . وهذا يستلزم بدوره انشاء مصرف مشترك يوظف فائض رأس المال ويسهل حساب المدفوعات (التقاص) فيحقق التوازن المطلوب .

٣ ــ النتائج بالنسبة للبلدان المتخلفة : تقليص حجم الواردات وزيادة حجم الصادرات بحيث تصبح أسواق هذه البلدان استهلاكية بالدرجة الاولى ، تغرقها البلدان المتقدمة بسلعها (آ ، ١٥٩ - ١٦٣ ، ١٨٢ - ١٨٦) .

نتائج خطيرة على المدى البعيد . فانشاء مصرف مشترك يوحد لحد بعيد بين رساميل الدول الاعضاء ، توظيفاً أو استثماراً ، كما في السوق الاوروبية المشتركة ، كاف لوحده ليجعل من اقتصاديات البلدان المتأخرة صناعياً اقتصاداً تابعاً الى ما شاء الله ، إذ يربطه بعجلة الكتلة الأقوى ، وبهذا يتباعد الشقة بينها ويزيد في نسبة التخلف . ذلك انه لما كان النقد مرتبطاً بالفعالية المنتجة ، وكان مردود اقتصادنا ، رغم تقدمه، ضعيفاً بالقياس الى ما هو عليه في العالم المصنع ، فنقدنا تابع ، هبوطاً وصعوداً ، لا لحركته الذاتية وحسب ، بل لسوق النقد العالمية حيث تسيطر العملة الأقوى ، عرفت هذا بالعملة الصعبة .

ويبين الدكتور هشام سمعان بتحليل ضاف يتناول الموضوع من العصر الوسيط الى أيامنا، الارتباط الوثيق بين الوحدة الاقتصادية والوحدة السياسية ، كل منها يستجيب للآخر دون أن يحدده تحديد السبب للنتيجة . فتاريخ أوربا الاقتصادي يرسم ، على مستوى آخر ، ملامح تطورها نحو الوحدة السياسية ، تكاملاً أو تنافراً ، تبعاً لتقارب الاقتصاد أو لتباعده (آ ، ١٨٩ - ١٨٧) .

ان الاقتصاد ــ اليوم كما بالأمس ، اليوم أكثر من الأمس . هو المحرك الخفي ــ المعلن لكل الفعاليات الاجتماعية ــ السياسية منها والثقافية وغيرها على حد سواء، قد يفسرها كلها أو قد لا يفسرها ، ولكنه ما يبرح واحداً من نقاط انطلاقها الأساسية .

ويتبين لك من بحث الدكتور سمعان أن معطيات الوحدة الاقتصادية في الاتحاد الثلاثي أوفر مما هي عليه في البلدان الأخرى التي اتحدت . فسكانه ٤٤ مليوناً ومساحته ٢٩٤٦١٧ هكتار ، وثرواته الزراعية والمعدنية لا حصر لها ؛ يذكر منها الباحث بشكل خاص احتياطي النفط (٤٦٦٤ طن متري) واحتياطي الغاز (٨٠٨ ألف مليون متر مكعب)، كما يقارن بين مخزون الفوسفات لدينا وما هو عليه في بلدان أخرى (الولايات المتحدة الامريكية) فنعرف أن دولة الاتحاد تحتل ، بالنسبة لهذه المادة الهامة ، المرتبة الثالثة في العالم (ا ، ١٨٨ – ١٩٣) .

ولكن عندما يلمح باقتضاب وبكثير من اللباقة الى ما فعلنا في المجال الاقتصادي وإلى ما يجب علينا أن نفعل نفهم مدى تأخرنا في الافادة من مواردنا . فهذه تفيض عن حاجاتنا ، ومع ذلك فنحن نستورد كميات كبيرة من المواد الغذائية ، والأغلبية من مواطنينا في حالة مجاعة أو شبه مجاعة .

ويعجبك ، إذا كنت مدققاً ، بحثه عن ايجابيات وسلبيات الاتحاد ، تلك تفيض عن هذه ، على ما يرى ، عندما يتحقق شرطان :

١ – إذا كانت الدول الأعضاء في الاتحاد ذات تجارة خارجية قليلة بالنسبة للانتاج الوطني .

٢ – إذا كانت الدول المتحدة ذات علاقات تجارية كبيرة أصلاً فيما بينها (ا ، ١٧٨)وتتمنى لوأنه طبق هذا المعيار بدراسة احصائية لحجم المبادلات التجارية لدول الاتحاد الثلاثي فيما بينها ومع العالم الخارجي .

ويضيف عبارة أخرى هامة ويتركها معلقة : « ومن هنا نجد أن المشكلة في الدول النامية ليست في توزيع المصادر المتوفرة وإنما في تنمية المصادر المحلية والتصنيع والاستفادة من حسنات السوق الواسعة التي يتم ايجادها بواسطة الاتحادات »(ا، ١٧٩).

كما نتمنى لوأنه أثار عدداً من المشكلات المماثلة الأخرى ودرسها في بعض ملابساتها. فالمواطن يسهم في انشاء السوق العربية المشتركة اسهاماً جدياً ، لا بل يضحي بالمصلحة القطرية في سبيل المصلحة القومية ، كما يريد الدكتور شكري فيصل ، إذا كانت لديه صورة واضحة عما لها وعما عليها . ولكن يؤسفك أن تعرف من الباحث ذاته أن بحث مثل هذه الموضوعات لا يستقيم إلا إذا توفرت له الاحصاءات الدقيقة وهذا لم يحصل بعد (ا ، ١٩١) .

فكم وكم من الطاقات الطبيعية والانسانية تهدر بلا ثمن ، أو يفيد منها الأجنبي أكثر مما يفيد منها المواطن العربي !

وعندما يدرس الاستاذ يحيى عرودكي السوق العربية المشتركة والانتقادات التي وجهت اليها ، يضيف العبارة التالية ، وهي أيضاً هامة : « وفي اعتقادنا أنه من أجل القاء اللوم على اتفاقية الوحدة الاقتصادية فإنه لابد من أن نطبق نصوصها ونحترم أحكامها » (١٦٨]) (١) . والذي يغضبك حقاً هو تفاؤل الباحثين .

التشاؤم مثبط للهمم . هذا صحيح . ولكن التفاؤل المطلق يخدر حس المواطن ، ويدفعه الى القاء التبعة على الآخر ، فمن مهام الباحث الكشف بجرأة عن الثغرات كشفاً لا يرحم ، وحده يمهد السبيل لتلافيها .

وبودي، وأنا أراجع للمرة الأخيرة بحث الدكتور هشام سمعان الدقيق أن ألقي عليه سؤالاً اعتبره هاماً :

أحقا الوئام والمحبة اللذان يسودان حقاً العلائق بين الأقطار العربية ، كما يرى ؟ وكيف تتجلى المحبة ، بالكلام المعسول أم باجراء عملي كتحطيم القيود الجمركية والمالية التي تجعل من كل قطر عربي ـ تقدمي ورجعي ، التقدمي أكثر من الرجعي ـ وحدة مغلقة على ذاتها ؟ (١٨٦])

سؤال آخر ، وان أطلت ، له ، للاستاذ عرودكي :

هل يكفي تعيين ما يجب أن يعمل (الوجوبيات دوماً !!) لتنشأ الوحدة ؟ أما كان الأجدى ، رغم ضيق صفحات المعرفة ، رسم خطة علمية ، ولو جزئية ، لعمل توحيدي في قطاع معين من قطاعاتنا الاقتصادية كالنفط مثلاً الذي أصبحت معطياته معروفة لحد بعيد ؟

أما آن لنا (وهذا ما أقوله لذاتي ولغيري) ان ننتقل من النظرات الشاملة الفضفاضة ،تعرفها الهيئات التنفيذية كما نعرفها ، واكثر ، الى وضع نماذج دقيقة اجرائية هي السبيل الوحيد للانتقال من النظر الى العمل ؟

(١) راجع كتاب الاستاذ يحيى عرودكي، السوق العربية المشتركة، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ، ففيه معلومات جيده عن الموضوع .

عندما يتحدث السياسيون :

الرحلة السياسية أشق الرحلات ، خصوصاً عندما تأخذ شكل حوار . إذ ان هذا النوع الكلامي يفترض الصلابة والمرونة ، الصلابة ، كي يرسخ كل من المتحدثين موقعه ، أو بالأحرى موقع تنظيمه ، المرونة (معنى من معاني كلمة سياسة) كي يستدرج الصنو صنوه ، يكشف هذا عن (اوراقه) فيبدأ ذاك هجومه المعاكس . السياسة فن الحوار ، لا على طريقة سقراط ، يولد الافكار ليرقى الى الحقيقة ، بل في (المناوره) توقع الخصم في (الشرك) الذي نصبته له ، فتكسب الجولة .

ويجب أن أعترف ، بادىء ذي بدء ، أنا تخطينا هذا النوع من اللقاء السياسي التقليدي ، إن على صعيد التنظيم (قيام الجبهة الوطنية التقدمية) أو على صعيد الشعب حيث توحدت الاهداف لحد بعيد ، فأصبحت الفوارق في الجزئيات .

هذا كسب كبير حققه القطر العربي السوري

يليه أنه لم يعد عندنا ثمة فاصل كبير ، طبقي او ثقافي ، بين المناضل ومن يناضل من أجلهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بين الحاكم والمثقف . فسياسيونا مثقفون انبثقوا من صفوف الشعب ليتولوا قيادته ، تلاحظ ذلك في سياق الندوة ، ولدى المسهمين فيها . فهؤلاء ، وان كان جلهم من السياسيين الملتزمين ، كل منهم بخطه وبخط الجبهة ، تلاقوا في حوار أقرب من حيث حركته ومعطياته الى الشؤون الثقافية منه الى الشؤون السياسية أضف تقارب وجهات نظرهم ، كما يلاحظ الاستاذ جورج صدقني (٢٥٦،I) في أغلب الموضوعات المطروحة .

ومع ذلك فأنت تلاحظ ، ضمناً او صراحة ، بين الأسطر وفيها ، تعارضاً كنت تلاحظه في البحوث ، بين الخطين اللذين أخذنا بها : القومي والاشتراكي . فما أن ينساق المتحدث مع الواحد حتى يستدرك خشية أن يفوته الثاني . وهكذا تراوح الندوة مكانها طويلا بانتظار استطراد يخرجها من (ورطتها) .

الواقع أن هذا التعارض تردد قائم في قلب كل منا ، نحن العرب ، ان دل على شيء فعلى قصورنا العقلي .

وتتوقع ان تجد لدى السياسيين مالم تجده لدى الباحثين ، ألا وهو الكشف عن خط سياسي أو اكثر لنلتزم (وكلنا ملتزمون والحمد لله) . فتقرأ وتقرأ.. تقرأ سبعين صفحة من الحرف الصغير . واذا استثنيت بعض مواقف جازمة سأشير اليها في حينها ،

فانك لاتقع الا على (عموميات) ان اختلفت عن كتابات الباحثين ، ففي أن هذه مرتبة لحدها وتلك مرتجلة .

ويحز في نفسك ان سياستنا صورة عن فكرنا . ولاعجب فالاثنان واحد .

* * *

قلت ان اول ما وصلني هو وقائع الندوة .

ليس من المستغرب أن يتلكأ الحوار،هنا ، أن يستطيل ، أن تكثر الاستطرادات وكلمات الوصل المسقطة (في الواقع ، برأيي ، في الحقيقة ، الخ .) ، فكل من المتحدثين يفتش عن فكرته، يعتقد انه التقطها فاذا بها تفلت منه ، وهذا من مستلزمات(اللعبة).

وأقرأ النص المطبوع ، فاذا به قد نقح أحياناً ، ولكن بدرجات متفـاوتة ، فأصبح اقرب الى الحديث المنفرد (المونولوج) منه الى الحوار العفوي واسأل فيقال لي أن المطبوع غير المخطوط ، وهذا غير المسجل فأسكت ، لابأس ، قول السياسي ملزم.

ولكن يؤسفني أن بعض المشكلات التي قرأتها وعلقت عليها في حينها قد طويت وطوي التعليق ..

أفيكون أن المثقف ، إذ يصبح سياسياً ، يفقد جرأته ؟ ربما . ولكن عندماتقف الامة على الحد الفاصل بين الوجود واللاوجود يجب على السياسي وعلى المثقف (وهنا ألتقي مرة اخرى مع الدكتور طربين ، السياسي قبل المثقف ، ان يدل بوضوح على المرض في الوجود) .

الاسئلة خمسة : اثنـان فكريان (مفهوم الوحدة : تطوره ، واقعه الراهن) وثلاثة من النوع السياسي (موقع المنظمات من الوحدة ، عوائق هـذه ، تصورات مستقبلية) عولجت في ثلاث جولات ، تتناقص حجماً كلامياً لتتسع مضموناً فكرياً .

يبدأ الاولى الاستاذ جورج صدقني ليميز بين المفهوم والواقع الذي يقابله . هذا لاينفصل عن ذاك وان كان غيره . وينسى المنتدون هذه النقطة الاساسية فيذكرهم بها في مطلع الجولة الثانية (٢٥٦ ، I) . ثمة تطوران الواحد على مستوى النظر والثاني على مستوى العمل . ولكن الطريق الى المفهوم عسيرة . ففكرنا الذي اصبح يحيط بأهم مشكلاتنـا ما يزال يراوح في مكانه من حيث المبادىء الاولى التي تجعل منه تأليفاً ،

وبالتالي من حيث قدرته الاجرائية . وهذا ما أثرت اليه عندما شددت على التوفيق غير الموفق بين المنطلقين ، القومي الاشتراكي ، أو على تهافت الجدليات ، وغير ذلك .

وتبدو الطريق الاخرى ايسرمتناولا . ولكن سرعان ما تتضارب وجهات النظر ، فاذا بمراحــل تجسيد الوحدة ، على ندرتها ، تتقلص تارة فترتد الى اثنتين (الاستاذ يوسف فيصل ؛ I ، ٢٢٧) وتتمدد طوراً فهي ست (الاستــاذ ظهير عبد الصمد ؛ I ، ٢٥١) . وهي عند الاستاذ فوزي الكيالي ثلاث (I ، ٢٦٠ وما يلي) . ولا تعلم ما اذا كانت ، عند غيره ، اكثر ام اقل .

وتلاحظ أيضاً ان التاريخ الوحدوي يرقى عند هذا الى اواخر القرن التاسع عشر في حين يبدأ عند ذاك بعيد الحرب العالمية الثانية . والواقع أن مفاصل التاريخ غير واضحة في هذا المضمار الذي هو واقعنا المباشر . وربما أن الحق بجانب الدكتور جمــال الاتاسي واحمد طربين اللذين يتجنبان التحديد الدقيق ليبرزا احداث التاريخ الاساسية (ميثاق ١٩١٥ ، مؤتمر بلودان ١٩٣٧ ، نكبة ١٩٤٨ ، وحدة ١٩٥٨ ، الخ) فهي أقوى تعبـــيراً واكثر دلالة ، اذ انهــا حاولت تجميع القوى الوحدوية وزجهـــا في معركة المصير .

وعلى أن الجولة الاولى تدور متباطئة مسترخية (عشرون صفحة من الحرف الصغير) حول التاريخ الوحدوي ، فقد ابرزت عدداً لابأس به من الامور الاساسية ، تتلمس طريقك اليها بشق النفس لتعثر عليها اخيراً ، وألخصها بما يلي :

١ — الوحدة هي الهوية القومية تناهض الاقليمية الاستعمارية لتجد ذاتها في العلاقة الجدلية (؟) بين الوحدة والحرية والاشتراكية (الاستاذ جور صدقني ، I ، ٢٢٦) .

٢ — الوحدة بدأت دعوة بورجوازية نظرية لتصبح في المارسة نضالاً شعبياً واقعياً (الاستاذ اديب ملحم ؛ I ، ٢٢٩)

٣ — الوحدة ليست عملية لصق (الاستاذ اديب ملحم ؛ I ، ٢٣)

٤ — الوحدة حركة تحرر من الاجنبي وجدت في الاشتراكية مضمونها الاجتماعي (الدكتور احمد طربين ؛ I ، ٢٣٥ وكل المتندين)

٥ — عندما نتوحد تختل موازين العصر (الاستاذ ادهم مصطفى ؛ I ، ٢٤٢) .

ولا تخلو الجولة الاولى من معارك نظرية جانبية حول :

١ ـ الجامعة العربية ، يدينها اغلب المنتدين بينما يرى فيها الدكتور جمال اتاسي وعاء لوحدات سياسية على حد تعبيره الذي لم افهمه (I ، ٢٣٤) .

٢ ـ تفاوت الوعي القومي بين مشرق العرب ومغربهم ، يناقش في درجاته واسبابه الاستاذان ظهير عبد الصمد (I ، ٢٥٤ ، ٢٧٤) واديب ملحم (I ، ٢٦٩) ويسقط النقاش في الفراغ .

٣ ـ المنجزات الوحدوية أهي تتحقق تدريجياً ، كما يرى المرحوم صدقي اسماعيل (I ، ٢٣٩) أم أنها مناهضة كلية للتجزئة كما يرى الاستاذ جورج صدقني (I ، ٢٥٨) ؛ هذا اذا فهمت مايريد قوله كل منهما .

وتتجاوز هذه الاستطرادات التي هي من اصل (اللعبة) عندما يعارض المرحوم صدقني ؛ بمعارضة حقاً ديالكتيكية لو وسعت وعمقت بين المفهوم والقوى التي يستدعيها وتستدعيه ، ثم بتنقل من هذه الفكرة الكلية الى ثلاث تعارضات أثارها ويثيرها الانفصاليون .

١ ـ بين الوحدة القومية والاستقلال الوطني (أي القطري) .

٢ ـ بين الوحدة القومية والحضارة (يزعمون أنها متعددة بتعدد الأقاليم) .

٣ ـ بين القومية العربية والقوميات الأخرى (الاقليات القومية القائمة ، بدرجات متفاوتة من حيث الوعي ، في الوطن العربي) .

تلك دواعي التجزئة تتخطاها الثورة العربية إذ تؤلف بينها في تركيب جديد هو الدولة الواحدة (I ، ٢٣٧ ـ ٢٤٠) .

وآمل أن لا أكون قد خنت فكر صديقي الراحل .

ويعقب الدكتور جمال اتاسي فينقلنا ـ ينقلنا أخيراً ! ـ من النقاش الفكري الى المواقع السياسية . التحليل ، وان كان مرتجلاً ، متماسك يبدأ بنظرة سريعة الى القوى الداخلية والخارجية التي تصطرع على أرض الوطن العربي ، يليه ويرافقه تحليل آخر سريع لحركة المد الوحدوي ، صعوداً وهبوطاً ، حركة اشتدت في الخمسينات بعيد نكبة١٩٤٨ فأدت الى سقوط الانظمة البورجوازية والاقطاعية وقيام ثورة ٢٣يوليو (تموز) ١٩٥٢ ، فوحدة ١٩٥٨ ، التي توجت هذه المرحلة وأعطت « وجهاً جديداً للنضال العربي وأبعاداً جديدة للعمل الوحدوي » بتصنيفها للمشاريع الوحدوية الاستعمارية (الهلال الخصيب وغيره) .

وينحسر المد الوحدوي مع الانفصال ليتصاعد مرة ثانية مع « حركة ٨ شباط في العراق وحركة ٨ آذار في سورية » ، وقد تبنى ، مرة ولكل مرة، المضمون الاجتماعي هدفاً أساسياً من أهدافه . ولكن ، في الوقت ذاته ، تعددت البؤر الثورية وتأقلمت فراحت كل واحدة منها ، « تبني تجربتها الخاصة » . وتفاجئها النكسة الكبرى (حزيران ١٩٦٧) فتطرح العمل الوحدوي على الصعيد الذي كان يجب أن تطرح عليه منذ البدء . ألا وهو اللقاء على أرض المعركة ، كما يرى الاتحاد الثلاثي . ذلك ان استراتيجية تحرير الأرض المحتلة هي الطريق الى التحرر السياسي والاقتصادي ، الطريق الى الوحدة . (I ، ٢٤٤ - ٢٥٠ ، ٢٧١) .

قلت : انه تحليل حقاً سياسي ، إذ إنه يروز القوى العربية ، من خلال المعركة ، في مالها ، في ما عليها وفيما يجب أن تكون عليه .

في ماعليها : هو أنها تشرذمت ، على حد تعبير الدكتور أتاسي في الجولة الثالثة . فنحن مانزال امام تبعثر في القوى يتسع ويتمادى » (I ، ٢٨٥) ، بحيث ان العلاقات بين النظم التقدمية التي ترفع راية الوحدة ، لم تتجاوز بعد بكثير صيغة « الجامعة العربية » (الجولة الثانية I ، ٢٧١)

في ماعليها أيضاً ، هو أنها لم تضع بعد خطة لتوحيد القوى ، فحركتها في اتجاه تجاوز نفسها الى الوحدة ضعيفة ، وكذلك حركتها » باتجاه الهدف المباشر ، هدف النصر في المعركة » (I ، ٢٨٤)

في ما لها : ادراكها ما كانت تجهله اثناء وحدة ١٩٥٨ ، وهو أن القوى الاقطاعية ــ البورجوازية مناهضة للثورة ، وأن الوحدة لاتنفصل عن الاشتراكية ؛ كلاهما من شأن الجماهير العريضة .

في مالها أيضاً : الجبهة الوطنية التقدمية ؛ الاتحاد الثلاثي .

مايجب أن تكون عليه : اللقاء والحوار قطرياً وقومياً

« فالفكر الاكثر ثورية والاكثر تقدماً ليس الفكر الاكثر تطرفاً ، بل الفكر الأرحب والاوضح » .

الحوار يؤدي « الى رسم استراتيجية موحدة لصنع وحدة قوانا ولصنع وحدة أمتنا » .

اللقاء ، يؤدي الى الهدف المرحلي الأكبر : توحيد اداة الثورة .

ويلاحظ الدكتور الاتاسي في ختام الجولة الثالثة « أن نقاط التلاقي بيننا أكثر من نقاط الافتراق » . فلم اذاً « ماتزال التناقضات والمصالح الجزئية والذاتية تباعد بيننا » على حد قوله ؟ (I ، ٢٨٧ – ٢٨٨)

جوابان نستخلصها من حديث الدكتور

الاول هو غموض الفكر ، او الرؤية، كما يرى الدكتور طربين . اذاً نحن متفقون على « العموميات » على « الوجوبيات » (وهي كثيرة في حـديث الدكتور اتاسي) توحد في عالم المجردات . وهذا بيت القصيد يادكتور : التخلف في الفكر .

الثاني وهو أجدى بكثير: زج القوى التقدمية في معركة المصير بحيث ينتج الفكر عن النضال ، أو ينبثق من أرض المعركة . والواقع أنه لم تبق لنا سوى هذه الطريق ، طريق التضحية التي يطالب بها باصرار الدكتور شكري فيصل . (I ، ٢٨٦ – ٢٨٨).

ويوافق الاستاذ جورج صدقني الدكتور جمال أتاسي على تحليله ، إذ يرى أن مفهوم الوحدة « ليس من نطاق الفكر » بل هو قضية صراع « بين قوى مصالحها مختلفة ومتناقضة » الى حد التنافر الكلي ، كما يوافق على أن « القوى المعادية لقيام الوحدة في الوقت الحاضر ما تزال من الناحية الواقعية أقوى من القوى الوحدوية » فالنظرة المستقبلية تقتضي « وحدة أداة الثورة » ، وهذا ما لا يمكن لأية منظمة من المنظمات السياسية القائمة أن تنهض به . (I ، ٢٧٦ – ٢٧٨) .

وأقول بين قوسين : من البديهي أن يمضي بعدها الاستاذ فوزي الكيالي قدماً في هذا الاتجاه (I ، ٢٦٧) .

ولكن الاستاذ جورج صدقني فيلسوف قبل أن يكون سياسياً . وها هو يذكر – كما قلت – في مطلع الجولة الثانيـة (I ، ٢٥٦) بالموضوع الاول للحوار ، ألا وهو الوحدة من حيث انها مفهوم تكامل في النضال ، لا بل مبدأ . والمبدأ في لغة الفلاسفة ما يبدأ به اطلاقاً لتعقيل النظر والعمل .

والمفهوم يُعرف ويُعرِّف بالكشف عن الابعاد التي يتألف منها ، ومن ثم بوضعه في منظومة المفاهيم المرتبط بها ، وأخيراً برد كل ذلك الى مبدأ اول .

هكذا أراد مؤسس الفلسفة ، ارسطو ، ولا حيلة لي في الامر .

وأنى لنا ذلك ، ونحن كما يرى الاستاذ فوزي الكيالي بحق ، في وضع متخلف ؛ وضع جعلنا نتبنى الافكار الغربية والغريبة دون اي نقد ، فقلدنا الالمان (والعرقية والنازية أيضاً) ، وقبلهـا الليبرالية البرلمانية ، وخلطنا قبلهـا وبعدها الفكر القومي بالفكر الديني ، واستسلمنا للرومانسية العاطفية ، وكان علينا ان نبدأ بعرض الافكار على الواقع لتمحيصها . (I ، ٢٦٢ – ٢٦٤) .

والاستاذ فوزي الكيالي مبين ومنطقي في كل مـا يكتب . فهو ، اذ يكشف عن سلبيات المفهوم القومي الوحدوي ، يضعه في اطاره الطبقي المقارن لينقده مرة اخرى ، ويمثل الجرأة السابقة فيرى ما خلاصته :

اذا كانت الوحدة القومية قد تحققت في المانيا وغيرهـا على يد البورجوازية فلأن هذه كانت،في حينها ، طبقة صاعدة تقدمية حققت انجازات هائلة ، ثم تحولت الى امبريالية. أما عندنا فقد بدأ النضال القومي اقطاعياً. وتسلم زمامه البورجوازية فتبرهن عن عجزها وعن تآمرها لأنها مابرحت ، في حقيقتها ، اقرب الى اصلها الاقطاعي (وهذا صحيح ، صحيح) منها مايسميه الغرب البورجوازية القومية ؛ وهي بالتالي ومن حيث مصالحها ، مرتبطة بالامبريالية العالمية. وهذه يضيرها ، اكثر مايضيرها، قيام دولة موحدة على طول حوض البحر الابيض المتوسط وعرضه . وتزيح الحركات الشعبية البورجوازية الوطنية المزعومة عن مواقعها ، فتحل محلها الطبقة المتوسطة الأكثر التصاقاً بالشعب . ولكن هذه اخفقت ايضاً لأنها عهدت « بحماية الثورة وبقيادتها للكوادر البيروقراطية » فكان أن خنقت مبـادرة الجماهير وافرغت الوحدة من مضمونها الشعبي ووقـع الانفصال . (I ، ٢٦٢ – ٢٦٧)

هذا التحليل الطبقي للمفهوم ، على أنه صحيح ، يعلق مسألة هـامة هي موضوع الخلاف الخفي في الندوة ، لا بين المنتدين فحسب ، بل في ذهن كل منهم كما قلت ؛ خلاف اصوغه في الاشكال التالية :

١ – هل الأمة والطبقة أمر واحد ؟ واذا كانت الأولى غير الثانية ديالكتيكياً (أو العكس) فما العلاقة بينهما ؟

٢ – الشعب اليوم هو الطبقات الكادحة – كلنا منها – ولكن هل يمكن التوحيد بينه وبينها بصورة مطلقة . واذا كان الجواب بالايجاب فما معنى كلامنا عن وحـدة الشعب العربي خلال خمسة عشر قرناً وقد تغير الوضع الطبقي مراراً وتكراراً ؟

٣ - الامة ليست ماهية ، كما يقول مكسيم رودنس بحق بل هي وجود ، أي سلسلة تحققات(١) ، فما الذي يوحد بين هذه الموجودات بحيث نستطيع القول جازمين، نحن العرب أمة واحدة ؟

٤ - أن نسلم قيادة الثورة للجماهير الشعبية ، هذه مسألة نسلم بها كلنا نحن العرب ، على الأقل في الأقطار التقدمية . ولكن كيف يتحقق ذلك ، وسلطة الدولة ، عندنا كما في العالم كله تزداد وتتسع يوماً بعد يوم ، بحيث تصبح الوصية على كل المرافق العامة بما فيها الرأي العام ؟

* * *

يبدو أني انا الآخر ابتعدت عن المفهوم . ولكن الاستاذ جورج صدقني الذي يذكرنا كلنا به يقول في منتصف الجولة الثانية وقد اشتد النقاش : « ان مفهوم الوحدة واضح بما فيه الكفاية » (I ، ٢٧٦) .

واضح ؟

بمعنى ما نعم . فالوحدة القومية هويتنا او اسمنا .

وليس المرء بحاجة الى اثبات اسمه ، كما يقول الاستاذ صدقني في مطلع الندوة (I ، ٢٢٥) ، ولكنه بحاجة لأن يستحقه ! وهي أيضاً اعادة الوضع السليم (الاستاذ صدقني I ، ٢٥٦ - ٢٧٨) أو فكرة تصد واثبات وجود ،على ما يرى الدكتور أتاسي (I ، ٢٥٤) ويوافق الاستاذ صدقني (I ٢٥٦) . ويوافق الكل على التعريف ضمناً أو صراحة ، ولكنهم مجمعون أيضاً على أن الانسان العربي بحاجة الى انشاء جديد ، كما يرى الاستاذ فوزي الكيالي (I ٢٩٣) وما ابعدنا عن هذا المرمى البعيد ، البعيد جداً .

ويشدد المنتدون على الوجه السلبي للمفهوم (مناهضة الاستعمار والصهيونية والرجعية) وعلى الوجه الايجابي (تخطي التخلف ، اضافة المضمون الاجتماعي ،الخ...)؛ كما يرون ، مشددين ايضاً بحق ، ان تجربة النضال اغنت الفكر القومي . ويضيف الاستاذ يوسف فيصل « تجربة الانفصال» التي اغنت الوحدة اذ قدمت « امكانية دراسة انتقادية

(١) راجع كتابه المذكور ، حيث يعود على هذه المسألة في اغلب البحوث .

لرؤية نقاط الضعف » من حيث « نظـام الحكم ومن حيث اشياء كثيرة اخرى » . (I ، ٢٧٣ — ٢٧٤) .

وربما ان تعريف المفهوم الذي يمليه الحس السياسي السليم،هو الذي يورده الدكتور أتاسي عندما يقول :

« ان الوحدة العربية هي التطبيق الفعلي لفكرة القومية العربية اي لارادة الامة في ان تشكل دولة واحدة ، وهي استراتيجية تحقيق هذه الفكرة » (I ، ٢٤٤) .

تلك اجوبة تقع عليها هنا وهناك ، وهي تقنعك بما ان الحديث حديث سياسي تلقائي . ولكن عندما تضعها في اطارهـا الكلي تلاحظ انهـا خواطر يكتنفها الغموض ، لا لانها مرتجلة ، لا لان فكرنا كلنا مشوش في هذه المرحلة ، بل ايضاً بسبب مسألة هامة اثارها الاستاذ يوسف فيصل (I ، ٢٧٣) وأصر عليها بعد ئذ هو والاستاذ ظهير عبد الصمد (I ، ٢٨١) ، ثم علقها المنتدون ليعرجوا بمناسبتها على معوقات الوحـدة ، وعادوا اليها ، بعد ذلك ، هامشيا ومباشرة ؛ وبالنتيجة بقيت دون ما جواب ، هي والمفهوم الذي ساءلوا عنه في الجولات الثلاث .

المعوقات هي والتجزئة أمر واحـد يلخصها الاستاذ فوزي الكيالي في كتابة متماسكة وواضحـة ، اذ يردها الى زمرتين : خارجية (الامبريالية ، الصهيونية ، الحكومات الرجعية عربية كانت أم غير عربية) وداخلية (التخلف ، التجزئة المستمرة في حفر مجراها) ، وفي مثل هـذا الوضع ، كما يضيف ، تستيقظ كل أمراض المجتمع : الطائفية ، الاقليمية وبقية الولاءات (I ، ٢٩٠ — ٢٩١) .

ولكن أيمكن رد المعوقات والتجزئة الى هذا وحسب؟ هذا ما لا يرضى به الاستاذ فيصل اذ يعود الى المفهوم ليقول (والفكرة عزيزة على قلبه بدون شك) : « انمفهوم الوحدة هو مفهوم متطور وليس ثابتاً ، لأنه كمفهوم لا بد الا ان يكون انعكاساً لواقـع معـين ، واقع اقتصادي ، واقع سياسي ، واقع فكري ايضاً ، درجة مستوى تطور الوعي لدى الجماهير ، ولدى القوى السياسية ، انطلاقاً من كون ان وجود الناس هو الذي يحدد ادراكهم وليس العكس » (I ٢٧٣)

وتتجاوز بيسر هـذا التصنيف المرتجل لمستويات الواقع فتقرأ تتمته في تعقيب الاستاذ ظهير عبد الصمد : « ان الوحدة رغم التجارب التي مر بها العالم العربي لا تزال

شعاراً ، لم تصبح بعد حاجة حيوية ملحة لكل الجماهير العربية ، فلكي تتحقق الوحدة ينبغي أن تدرك الجماهير العربية ان مصلحتها هي في تحقيق هذه الوحدة . وهذا لا يمكن أن يتم الا من خلال تطور اقتصادي معين » هذا هو التنسيق والتكامل الاقتصادي بين البلدان العربية . (أ ، ٢٨١)

ومن الواضح أن مفتاح النص في كلمة «حاجة ملحة» وكلمة « تكامل اقتصادي». ويدلل الاستاذ ظهير عبد الصمد على فكرته بلبنان والعراق حيث لم تتوفر بعد هذه الحاجة الملحة ، ثم يضيف بحق : « ان تعاون البلدان العربية وتقاربها يتطلب المعرفة الدقيقة بواقع كل بلد عربي » بواقع « الطبقة العاملة العربية ، مهامها، اهدافها ، تنظيماتها» (٢٨١ – ٢٨٢)

ويرد الدكتور جمال اتاسي : « فالمعوق الآن أمامنا لا من الظروف الاقتصادية والاجتماعية » بل لأن قوانا ونظمنا « التقدمية ليست ثورية بالقدر الكافي ، فهي غير وحدوية بالقدر الكافي ولا تملك ذلك الدفع الكبير على طريق البناء الوحدوي » . (أ، ٢٨٤)

ويرد ايضاً الاستاذ فوزي الكيالي: « صحيح أننا متخلفون اقتصادياً، ولكن تخلفنا الاجتماعي والثقافي يفوق تخلفنا الاقتصادي. وبدلاً من أن نقود بالعامل الذاتي » الثقافة والفكر ، والعادات والتقاليد ، العامل الموضوعي « الاقتصاد وأدوات الانتاج » ، وان ندفع عجلة التطور الى الأمام بوتيرة أعلى وأشد ، نرى أن العامل الموضوعي يجرنا وراءه جراً ونحن نقاوم ونناضل ، لنبقى حيث نحن « ذاتياً » برغم كل التغييرات الموضوعية التي تجري من حولنا ، وبرغم الانقلابات الجذرية التي تحدث في العالم » . (أ، ٢٩١)

وبشكل أتم يتخطى الحوار، فان الفكر العربي حائر دوماً بين المنطلقين ، القومي والاشتراكي ، ولكن المسألة طرحت هذه المرة على أعلى مستوياتها الفلسفية علاقة الوعي بمعطياته ، أو الانسان بواقعه ، ايها المبدأ الأول ؟

لا ارى شخياً أي معنى لهذا النقاش ، الا اذا جعلنا منه نقاشاً عن الالهيات ــ وايضاً ؟! ــ اذ ان الفكر متصل ديالكتيكياً بواقع ما لاينفصل احدهما عن الآخر ، الا في عملية تجريد لا مكان لها في ندوة عن الوحدة العربية. فالانسان ماينشيء ، وما ينشئه لا ينفصل عنه . والكلام عن الاولية المطلقة ، هنا « قبض الريح » .

ويؤكد الأستاذ فوزي الكيالي : « القرار السياسي يجب أن يسبق – ولا بد أن يسبق – القرار الاقتصادي » (ا ، ٢٩٢) الحق معه إذا كان محاوره الماركسي يصر (وهذا غير واضح في النصوص) على أولوية الاقتصاد المشترك في عملية التوحيد. ومع ذلك فاذا سلمنا للماركسي بقضيته الأولى وهي أن الدولة ومايلي انعكاس لوضع اقتصادي معين ، فان القرار السياسي يضم الاثنين ، إذ انه ينشىء بحركة واحدة حرة ، تعبر عن ارادة الأمة وجماهيرها ، البنى الاجتماعية والثقافية ، الاقتصاد والدولة .

وهذا ما يؤكده الدكتور جمال أتاسي عندما يتحدث عن « الإرادة السياسية » (ا ، ٢٤٧) و « ارادة البشر وضغط الظروف المصيرية » وعن تغييرنا كل ذلك باتجاهنا (ا ، ٢٨٤) .

والواقع أن الجميع يعلقون – والحق معهم – هذا النقاش النظري الذي طال دون ما نتيجة مرضية حقاً ، إذ المهم هو المعركة ، المعركة وحدها .

ولكن ماذا عن هذه ؟

ماذا عن تحول المفهوم النظري الى واقع عملي الآن وفي المستقبل (السؤالان الرابع والخامس) ، محور النقاش السياسي ومرمى العمل الوحدوي ؟

لا شيء .

لا شيء سوى إقرار جازم بالعجز والتخلف والتجزئة .

فالأستاذ فوزي الكيالي يكتب بلغة جميلة : « نحن لم نفعل حتى الآن في سبيل تحقيق الوحدة العربية أكثر من أننا رفعنا الشعار ، هتفنا به ... صفقنا له ... كتبناه على اللافتات والجدران ... أدخلناه في كتب المدارس جملاً منعزلة عن المنهاج...أشعلناه زيتاً مباركاً في أسرجة (انعزاليتنا) ... حرقنا بخوره في مجامر اقليميتنا . » (ا ، ٢٩٢) .

ويختم الندوة بسؤال : « كيف السبيل الى بناء المنظمة التي تستطيع أن تصنع الانسان العربي الجديد ، هذا الانسان الذي يحمل ارادة الوحدة ويملك في الوقت نفسه القدرة على تحقيقها ؟ » (ا ، ٢٩٣) .

يسأل ، وأنا ايضاً أسأل

١– الأستاذ يوسف فيصل : صحيح أن المفهوم يتطور ، ولكن يجب أن يكون ثمة « شيء ما » ثابت يرتد اليه التطور ، وإلا فان المفهوم مفاهيم ؟

٢ – الأستاذ ظهير عبدالصمد ، تؤكد جازماً في بحثك أن الوحدة أصل والتجزئة أتت الينا من غيرنا ، ثم تؤكد ايضاً جازماً في الندوة أن الوحدة لا تتحقق الا عندما تشعر الجماهير بالحاجة الماسة اليها من خلال تطور اقتصادي معين . فهل كانت الحاجة الماسة قائمة أصلاً ، هي والتطور الاقتصادي المعين؟

٣ – الكل ، عندما ننشد الوحدة ، أنسعى وراء مجهول اطلاقاً ؟ إذاً « باطل الأباطيل » أم أن هناك وحدة ما قائمة بشكل ما ، تفككت وما تزال ؟ وإذا صح هذا فما هي وأين تقع ؟ وتحضرني بهذه المناسبة كلمة باسكال المعروفة : « لو لم تجدني لما فتشت عني ».

السؤال عن المفهوم ليس سؤالاً عابثاً . ولكنا ، كلنا أضعنا « المفهوم » لأنا فقدنا « الفهم » .

* * *

فتش عن التخلف في الفكر :

« الوحدة على أرض المعركة » تلك هي النتيجة الهامة التي أستخلصها من حديث الدكتور جمال أتاسي ، يوافق عليها المنتدون بسكوتهم أو بتأييدهم الصريح فيعلقون منطلقاتهم الايديولوجية أو يخففون من حدتها للانفتاح على الآخر .

نتيجة تدعمها البحوث التي ، وإن كانت لاتخلو من التطرف والاعلانات المفرطة ، لاتخلو من رواسب العصبية القديمة ، فهي بالنتيجة متفقة :

على الأهداف الأساسية المتكاملة : الوحدة والحرية والاشتراكية .

على السبل المؤدية اليها ، أولاً إدانة الامبريالية ، عدم مهادنة الصهيونية ، استرداد الأرض المحتلة ؛ ومن ثم اقامة نظام اشتراكي تدعمه سوق عربية مشتركة لتصفية علائق الانتاج الاقطاعية والبورجوازية واقامة مجتمع العمل يقضي على العشائرية والطائفية ؛ واخيراً دعم الاتحاد الثلاثي والوحدة الاندماجية ، نواة الوحدة المتكاملة .

لسنوات قليلة خلت كانت المشاحنات الايديولوجية تبلغ حد المبارزة والتشهير ورشق الآخر بأشنع التهم (الخيانة ، التآمر ، الخ .) . أما الآن فقد بدأ الجو يصفو والعقول تتقارب بحيث إن الموضوعات ذاتها كثيراً ما ترد وتتكرر فتحل من قراءة العددين دون أن تغضب ، بل ربما تنظر بعين الرضا الى وفاق حصل بعد طول فرقة .

ومع ذلك فنقطة الضعف ما تزال هي هي ؛ انها « النظر » ونحن في عصر الآلات الحاسبة والتخطيط حيث يتحد العلم بالممارسة والنظر بالعمل .

والعلم الذي تأخذ به يتسم ، أول ما يتسم بالدقة في صياغة المفهوم ؟ وهذا يقطع الواقع تبعاً لمفاصله، إن لم نقل الطبيعية ، فالقائمة بحيث يستطيع بعدها الإنسان أن يعيد انشاءه . أما مفاهيمنا فأقرب إلى الانتقائية والتوفيقية منها الى الترابط المنطقي ، ترصف (باستثناء بعض البحوث القليلة التي وقفت عندها) الأفكار بعضها الى جانب البعض الأخر ، كما في التمرينات المدرسية، وتسبغ على الكل تلوينات الانفعال، تارة التشاؤم وطوراً التفاؤل ؛ كلاهما لا مجال له في البحث .

ومن ثم تقليد الأجنبي ، يقحم الواقع والتاريخ العربيين في أطر كان يجب ، في أدنى الحدود ، أن يعاد النظر فيها على ضوء تجربتنا حتى تتلاءم معها. فالايديولوجيات، أخذت بها أم لم تأخذ ، مسقطة لأنها فرضت على الواقع عوضاً عن أن تنبثق منه .

أضف ضعف التوثيق . فمن النادر النادر أن يقع القارىء في البحوث (وكلها جامعة دون أن تكون ماتعة) على مرجع واحد يطلعه على المصدر الذي استقى منه الكاتب معلوماته . ولهذا فهو يوافق بدون تردد على اقتراح الاستاذ جورج جبور ، بطالب بـ (انشاء مؤسسة لدراسة الوحدة العربية) يرسم الخطوط الأولى لها ، ويحدد مهامها (التوثيق فالبحوث) ويكشف عن معوقاتها (أ ، ١٢٩ وما يلي) .

أضف أيضاً العجز عن صياغة المسائل الكبرى التي تصدى لها الباحثون والمنتدون فإن أحداً منهم لم يحاول تعريف الكليات — وما أكثرها — التي أخذ بها أو انطلق منها : التاريخ ؟ انه واحد ، ولكن أين تقع نقطة الوحدة ، وكيف يؤلف كلاً ؟ الأمة ؟ تعرف بمقوماتها فتصبح حصيلة ويقولون عنها إنها أصل وفطرة ؛ أو تعرف سلبياً مع أنها واقع ايجابي .

أما الدولة ، فلا شيء عنها ، مع أن النقاش الايديولوجي يدور حول مجهولها ومجاهلها ؛ وهو يذكر بالصراع الكلامي القديم ... ولكن أين ذاك من هذا ؟ فعندما كنا نصطرع على « الكلام » كان كلامنا يقول المصير. مصير العالم. أما الآن فإن هو الا تعبير عن اقتباساتنا ، عن مصالح كل شرذمة من شراذمنا ، إن لم يكن عن نزواتنا الشخصية .

ان الذي يقول يقول مبين يصنع ما يقول ويقول ما يصنع ، والا فالقول لغو .

فكرنا يعوزه الفكر .

والجرأة أيضاً ، لافي التصدي للأمور الكبيرة ، فهذه معلقة لأجل غير مسمى ، وإنما في الأمور اليومية ، تمس واقعنا المباشر ؛ وتلامسها لنرتد عنها بحيطة حرصاً على مكاسبنا الصغيرة فتختنق الفكرة في نفوسنا ؛ والعدو يلتهم الكبير والصغير .

هـذا شأن السياسي والمفكر ، كلاهما واحد . فلولا الموقف الجريء الذي اتخذه الدكتور جمال الأتاسي في الندوة لكانت هذه نقاشاً أكاديمياً تعوزه دقة البحث واتقانه .

وتعجبك فكرة الدكتور أحمد طربين في الندوة ، إذ يقول بهذا الشأن : « إن مفكرينا هم مفكرو العالم الثالث ... في كثرتهم الكاثرة موظفون يتقاضون مرتباتهم من السلطات » وقبلها وبعدها يدعو الى اسقاط الحواجز بين الحاكم والمثقف في سبيل لقاء أخوي حر صريح هو الذي يكوّن الشعب (أ ، ٢٧٥ — ٢٧٦) .

ويكتب بذات الاتجاه الاستاذ جورج جبور : « ولعلنا لانخطىء إذا قلنا إن المثقفين العرب — عموماً — كانوا أقسى في الرقابة على أنفسهم مما كانت عليه أجهزة الدولة » . (أ ، ٧٤٤) .

وأنا إذ أوافق على القولين أضيف : كلنا — نحن المثقفين الذين انبثقنا من صفوف الشعب — أسهمنا ، بشكل أو بآخر في انشاء الأنظمة والمنظمات السياسية ، القطرية منها والقومية ، بما لها وبما عليها ، فتارة يكون أحدنا حاكماً وطوراً منظّراً ايديولوجياً . ولهذا تقلنا الى ما أشدنا الحذر الكامن في نفوسنا ، وعصبية الجاهلية ، والتقية الموروثة عن عصر الانحطاط . وبعدها (ردت بضاعتنا الينا) .

والمعرفة العربية حصيلة ذلك ؛ حصيلة فكر لما ينضج بعد فهو يخشى ذاته .

انها معرفة تجتر أفكاراً لم تتمثلها ، أجود ما فيها منهجية ترقى الى القرن التاسع عشر ، والباقي — منهجاً كان أم مضموناً — نتف من هنا وهناك .

وأكثر ما يدعو الى الأسى هو فكرتها عن العلم .

انها ما تزال تأخذها سطرة كلنا بأيدينا في الكتب المدرسية من أن العلم ملاحظة الواقع لاستخلاص قوانينه استقراء . والعلم الحديث كما رسمت خطوطه الكبرى منذ أن كان ، منذ القرن السادس عشر غير ذلك . انه فعالية تقوم على انشاء الشيء خيالاً مفترضاً ومن ثم واقعاً ، أو فكرة تحاذي الواقع أكثر فأكثر . وعملية العلم الأساسية هي الاستنتاج ، الاستقراء مرحلة من مراحله .

ولهذا كانت الفيزياء الرياضية هي النموذج الأكمل للعلم لأنها تترجم الواقعة الى مفهوم، وهذا الى دستور ، والدستور يجب أن يتحول الى آلة .

فالعلم، من الأصل، اجرائي، اتضحت سمته هذه مع انشتين وهيزنبرغ وخلفائهما، أي منذ مطلع هذا القرن ، بحيث بدل صورة الكون نظراً وعملاً ، فكراً وتحقيقاً .

ان النموذج الرياضي يقسر الطبيعة ، إذ يجبرها على الانصياع له بنسبة قدرته على محاذاة مفاصل الأشياء (الثوابت) ومعالجتها أي تحويلها .

صحيح أن القانون (المفاصل والثوابت) حتمي ، حتميته تناسبه مع دقة النموذج (المعادلة والشكل الهندسي) . ولكن فعل انشاء النموذج الذي يقحم الانسان في الشيء بعداً من أبعاده ، حر ، حر بحرية كاملة .

وها هي اليوم العلوم الانسانية تسلك هذا الخط في الاقتصاد والسياسة والاعلام وغيرها .

فالاقتصاد مثلاً يراعي طبيعة المادة التي يعالج (الأرض وثرواتها الدفينة مثلاً)، وهذه فترة الحتمية ، تليها فترة الحرية عندما يطلب الانسان من المادة الخام أن تصبح ما يريد (البترول يتحول الى خيوط نسيج مثلاً) .

وكذلك الاعلام الذي ينشىء الرأي العام ، والسياسة التي تنشىء المجتمع وفقاً لمعركة التحرير والنمو والتوحيد .

وتتساءل :

أنجد في طول المعرفة العربية وعرضها أيّة محاولة ، أو أيّة بادرة تدل على أنا بدأنا نسير على هذه الطريق ؟

قل : هل تجد ؟



العصاة

رواية سورية رائدة

الدكتور حسام الخطيب

اكثر من مرة تمنينا ، صدقي وأنا ، ان نتناقش معاً على مسمع من الجمهور روايته « العصاة » . لم تتح لنا الفرصة ، وما أقل الفرص التي تتاح . وقد كانت هذه الدراسة جاهزة قبل وفاة صدقي ، انشرها كما هي دون أدنى تبديل وفي خاطري ذكرى انسان غير عادي كانت آفاق ادراكه وبصيرته وطموحه ابعد بكثير مما سمحت به امكانات الجسد وظروف الحياة وفسحة الأجل .

(حسام)

(*) طبع دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

تمهيـد :

تحكي رواية « العصاة » لصدقي اسماعيل قصة اسرة محمد الحلبية ومن اتصل بها من الأشخاص منذ مطلع القرن العشرين حتى نهاية النصف الأول منه وتقف عند اكتمال شباب احفاد محمد: عدنان وعمران ومديحة . وتعج الرواية هذه بالشخصيات والعلاقات المتشابكة بين افراد الأسرة ومن اتصل بهم من ابنـاء جيلهم بحيث يصعب اعطاء فكرة مختصرة ووافية بالغرض عن مادة الرواية ، وربمـا كان الجدول التالي المبسط مفيداً في مساعدة القارىء على متابعة الدراسة الحالية .



ويلتقي أفراد الاسرة بكثير من الأشخاص من خلال تطور حياتهم ، وأهم هؤلاء الأشخاص : هاني المنذر وهو سياسي عصامي اشتراكي ، و ن . أيوب معلم التاريخ ذو الأطوار الغريبة ، وراجي السياسي الميكيافيلي المحترف . وتعتمد الحركة الروائيـة على العلاقات الاسرية العادية كالحب والزواج ، بالاضافة الى العـلاقات النـاجمة عن اندماج بعض أفراد الاسرة ، بالعمل السياسي الثوري .

وترتكز الرواية بمجملها على خط معين من ضمن خطوط الحياة المختلفة التي عاشتها

اسرة محمد في النصف الأول من هذا القرن ، وهي علاقة افراد الاسرة بالسلطان ، دون أن تغفل ذكر الحد الأدنى من خطوط الحياة الاخرى ولا سيا تطور المفهومات الاجتماعية.

وخلاصة القصة من هذه الزاوية أن الاسرة بدأت حياتها في مطلع القرن وهي على ولاء مطلق للسلطان وتسليم بوجوده وارادته اللامحدودة (عقلية محمد السياسية) ولكن تطور الحيـاة جعل استمرار هذا الولاء مستحيلا وبدأت بذور الشك بالسلطان تنمو بالتدريج ، فاذا هي في بادىء الأمر ثورة انفعالية لاواعية ممثلة بشخصية رمزي خال عدنان الذي اشترك في الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الاولى ثم في الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، وتتطور الثورة بعد ذلك الى مقاومة واعية أهم عناصرها البعد القومي ممثلا بموقف سعاد ويونس أثناء احداث الاسكندرون سنة ١٩٣٧ ، وبعـدها تدخل الاسرة في صميم التجربة الثورية ممثلة بشخص عدنان الذي ينخرط في (العصبة) بموافقة من والده ويجر معه الى هذه المؤسسة الثورية ابن عمه عمران الذي يمثل موقف المحافظة الريفية ، وتنتهي الرواية اخيراً بتصميم كل من عدنان وعمران على الاستمرار بالثورة . ويُتَوَّجُ هذا الانقلاب الجذري في موقف الاسرة من السلطان بإقدام عمران على فتح صندوق قديم كان والده قد أودعه جد الأسرة محمداً في مطلع الرواية ، وهكذا ينقلب فكر الاسرة من فكر قائم على تقديس السلطان وتنزيهه الى نقيض ذلك تمامـاً ، الى الايمان بالثورة الدائمة والانخراط في صفوفها .

مضمون الرواية :

تعرض « العصاة » قصة تطور الفكر السيـاسي في سورية خـلال النصف الاول من القرن العشرين ضمن اطاره الطبيعي وهو الحيـاة السياسة السورية في تلك الفترة ، ومن الخطـأ أن تعتبر الرواية سجلاً للحياة السياسية السورية نفسها ، فليس في الرواية من عناصر هذه الحيـاة سوى القدر الذي يكفي لتوضيح تطـورات الافكار السياسية وعوامل نشـوئها . والدليـل على ذلـك أن الاطـار التاريخي للحيـاة السياسية بدا في الرواية هشاً متفاوت السمك لا يخلو من ثغرات مهمة هنا وهناك ، وسبب هذه الثغرات – فيما يبدو – أن الافكار هي الاصل عند الكاتب وأن الحوادث التاريخية والسياسية كانت وسيلته لتوضيح هذه الافكار ولذلك كانت النزعة الانتقائية واضحـة في الرواية ، وبدلاً من التسلسل التاريخي المتماسك وجدنا في الرواية شواهد منتزعة من التاريخ

مع ضعف الروابط فيا بينها ومع انتهاء وظيفة كل شاهد بانتهاء مناسبته. فمن اجهة يغفل الكاتب نقاطاً تاريخية مهمة أولها وأهمها تحول سورية الى دولة منفصلة ادارياً وسياسياً عن فلسطين وشرقي الاردن بعد أن كانت هذه الاقطار ولاية عثمانية، كما أن الاحتلال الفرنسي نفسه يحتل مكاناً ضئيلا جداً في الاطار التاريخي ويكون تأثيره في الفكر السياسي ، تبعاً لذلك ، ضئيلا ايضاً . ان القارىء يتساءل طوال الرواية : أين الفرنسيون في سورية ؟ أي تأثير كان لهم في الحياة العامة ؟ ويخيل للقارىء حيناً أن اسرة عمران لم تحس بوجود الفرنسيين في حياتها اليومية الا عشية مهاجمة السنغال (لا الفرنسيين) للبرلمان، وبشكل جانبي تقريباً .

ومن جهة أخرى نجد الروابط ضعيفـــة — ان لم تكن معدومة — بين الحوادث السياسية التي مرت بها سورية خلال نصف القرن ، ان الذي صنع مأساة ميسلون هو نفسه الذي سلخ لواء الاسكندرون وهو نفسه الذي ضرب البرلمان ، ولكنه لا يبدو كذلك في الرواية ، ثم ان القوة التي جزأت البلاد العربية وخذلت العرب في الحرب العظمى هي نفسها التي هيأت لمأساة فلسطين التي بدت في الرواية مشكلة سورية داخلية دون أن يذكر مايشير الى وجود أبعاد أخرى للمشكلة سوى هذا البعد . واذا اتفق أن وردت اشارة ما الى هذه الامور فهي غالباً مختصرة وعابرة كما في الفصل ٤٤ .

ومن المؤكد أن تاريخ الفترة التي تجري فيا حوادث الرواية مملوء بالاحداث ذات الاهمية الجذرية من فعل الحرب العظمى والاحتلال الفرنسي والجلاء وفلسطين مما جعل موقف الكاتب غاية في الصعوبة ، فهو مخير دائماً بين الاهتمام بالاطار او الاهتمام بما يجري من تفاعلات داخل الاطار ، وقد اختار الكاتب الحل الثاني في جميع مراحـــل الرواية ، وخيراً فعل لأن ذلك أقرب الى طبيعة العمل الروائي ، وأن كان لا بد من الاعتراف بأن ذلك تم على حساب الاطار التاريخي ، وهو ذو أهمية فائقة في مثل هذا الموضوع .

ولكن هناك إطاراً آخر لا يمكن تصور وجود الفكر السياسي والحيـاة السياسية دون وجوده وذلك هو الإطار الاجتماعي . ومن الحق أن نقول ان الكاتب لم يغفل هذه الناحية بل وضعها دائماً نصب عينيه ؛ ولكنه ، تمشياً مع اهتمامه بالفكر أكثر من اهتمامه بالحياة ، صب اهتمامـــه على تطور التفكير الاجتماعي أكثر مما اهتم برسم صورة للحياة الاجتماعية . وقد اختار الشخصيات النسائية عامة لتصوير تطور الأفكار الاجتماعيـة ، وهذا حق لأن اعباء التطورات الاجتماعيـــة الحاسمة كانت ملقاة على عاتق المرأة قبل

الرجل ، ولكن الذي يلفت النظر هو أن النساء البارزات في الرواية مثل هدى ومديحة وعالية أعطينا صورة عن تطور الفكر الاجتماعي بما أبدينه من أفكار وكذلك بما قمن به من تصرفات ولا سيما في حالة سعاد التي ألحت على الزواج من يونس الشاب المغامر ، وكذلك في حالة مديحة التي تركت زوجها لأن نفاق المجتمع البرجوازي في العاصمة لم يرق لها ، وكذلك في حالة عالية التي تبادلت رسائل الحب مع ابن عمها بجرأة واضحة ؛ ويعتبر التأكيد على هذه الناحية لفتة واعية ونقطة لصالح الرواية . وإذا كان من مأخذ هنا فلا بد أن نقول ان التطور الاجتماعي تم في الرواية بمعزل عن التطور السياسي فكراً وعملاً وأن الشخصيات التي تم بواسطتها التعبير عن مراحل التطور الاجتماعي ومعظمها شخصيات نسائية – كانت معزولة تماماً عن الفكر السياسي ، مما جعل الرواية تتحرك ضمن خطين متوازيين في جوهرهما رغم أنهما متداخلان في التبويب الشكلي للرواية ، بل انهذا الأمر غير مطرد دوماً فالقسم الثاني من الرواية ص ١٥٧ – ٢٦١ خال من البعد الاجتماعي تقريباً .

ثم ان صورة الحياة الاجتماعية التي يقدمها الكاتب كانت محصورة في معظمها ببعد واحد هو علاقة الرجل بالمرأة مع اغفال شبه تام للابعاد الأخرى من الحياة الاجتماعية ، حتى ان القارىء يشعر في كثير من الأحيان ان الرواية قائمة في الفراغ وأن المجتمع بمعناه الكامل غير موجود بالرغم من الصور الاجتماعية التي تعمد الكاتب تقديمها والتي تناولت جوانب من حياة البورجوازية الشامية وجوانب من حياة اللاذقية (في القسم الثالث) وجوانب من حياة الريف في أول الرواية . الا أنه ، في الرواية – كما في الحياة – يتضمن كل تعميم نسبة متفاوتة من الخطأ ، والانصاف يقتضينا ان نشير الى استثناءين مهمين من الاحكام السابقة :

الاول : تصوير الكاتب للحياة الاجتماعية في لواء الاسكندرونة وبشكل خاص في منزل سعاد ويونس ، وعلى الرغم من أن الكاتب لا يفصل في هذا الموضوع (ص ١٣٦ – ١٥٢) فان صورة الحياة الاجتماعية التي قدمها بدت طبيعية وصادقة .

الثاني : تصوير العلاقة بين السياسة والطبقة الاجتماعية في الحياة البورجوازية في دمشق ، وقد تعرض الكاتب لهذا الموضوع في القسم الثالث على الأخص وأعطى فكرة كافية عن الأساس الطبقي للبنية السياسية . (الفصل ٤٩ وما بعده) .

وعلى الاغلب ، لم تكن الملاحظات التي ذكرت سابقاً غائبة عن ذهن المؤلف اذ أن

هناك محاولة واضحة لاستدراكها تجعل من التعميم – مرة اخرى – مغامرة غير مأمونة العواقب في الرواية . انها رواية كاتب يعرف مايكتب وينقد مايكتب في الوقت نفسه – على الاقل من الناحية الفكرية ، ولكن اتساع نطاق البحث وطموح الكاتب الى استيعاب مختلف مظاهر الحياة السورية في نصف القرن الماضي افقداه القدرة على وضع الاشياء ضمن إطارها الطبيعي الحي ، ممـا اضطره الى اعمال يد الاختصار في جمع مادة الرواية ، من ذلك مثلاً اللهجة التلخيصية ، التي يتناول بها الرجل العجوز قضية الملك فيصل والاحتلال الفرنسي (ص ١٢٦ – ١٢٨) ؛ وهي تتكرر في امـاكن متعددة من الرواية وتتخذ أحياناً طابعاً لايخلو من طرافـة كوصفه لاتتاج عمران الأدبي :

« وازدحمت على شفتيه نغمات هادئة ، مالبثت أن استقامت في قصيدة تقليـدية مطولة جاء في بعض أبياتها .. »

ثم يذكر سبعة من ابيات القصيدة ، وبعد ذلك يقدم مثالاً للصفحات النثرية ص١٣١ – ١٣٢ التي كتبها عمران بالطريقة نفسها .

ثم ان المؤلف اضطر ، بسبب من اتساع نطاق روايته ، الى الاكتفاء بالاشارة العابرة الى عدد من القضايا التي ربما كانت تستحق مزيداً من المناقشة في رواية حول الفكر السياسي في سورية ، من ذلك مثلاً مشكلة الديمقراطية والشعب التي يثيرها الكاتب في مناقشة مختصرة بين مجموعة من الشباب في حفلة ماجنة ، وكذلك فسـاد الادارة الحكومية (ص ٣٧٢ – ٢٦٣) وعلاقة الموظفين الكبار بالمتنفذين المحليين (ص ٢٦٤)

على أن المؤلف قد لا يقبل بالتحديد الذي ذكرته للرواية وقد يصر على انه هـدف الى تسجيل تطور الحياة العامة في سورية خلال نصف قرن ، بل إن ماذكرته من اتساع نطاق الرواية قد يشير الى هذا الاتجاه ، وسواء أكان قصد الكاتب تأريخ الفكر السياسي ام الحياة العامة فان ماتقدمه الرواية بشكل اساسي هو الفكر السياسي ، انها رواية افكار لا رواية ناس ، وحتى من الناحية الكمية الخـالصة يمكن ان نقول ان صفحات المناقشة والتحليل الفكري تغلب كثيراً على صفحات القص ، وفي الوقت نفسه تتغلب المـادة السياسية حجماً وعمقاً على ما سواها ، وان كان لهـا منافس أخر في الرواية وهو المادة السيكلوجية التي حسب لها الكاتب حساباً كبيراً خلال الرواية حتى لنحسب انه اسرف فيها اسرافاً لا تحتمله رواية ذات موضوع شامل كهذه مما يجعل الحديث عن هذا العنصر بشكل مستقل ضرورياً عند الحديث عن شخصيات الرواية .

العرض الفني :

جرى العرض الفني للرواية ضمن الخطوط التالية :

آ – جرى تطور الرواية باتجاه أفقي وعمودي في وقت واحد Progressive) digressive) ، بحيث يستوعب السرد مادة الرواية في مقاطع طولانية وعرضانية تتصالب وتتداخل ، وتتجه زمنياً الى الأمام دائماً على هدي منطلقات تاريخية كبرى اختارها الكاتب من خارج الرواية ، ولذلك كانت متابعة هذه المنطلقات الكبرى تتطلب قفزات زمنية كبيرة لم يكلف الكاتب نفسه كبير جهد في تغطيتها . وأهم الأحداث التاريخية في الرواية :

السنوات الاخيرة من عهد السلطان عبد الحميد
الحرب العظمى ودخول فيصل الى دمشق
الثورة السورية سنة ١٩٢٥
حوادث سنة ١٩٣٧ وسلخ لواء الاسكندرون
الجلاء الفرنسي عن سورية سنة ١٩٤٧ وبدء مأساة فلسطين .

وبين هذه الانطلاقات الزمنية ذات الاهمية الرئيسية – تاريخياً – كانت حنــالك حوادث جزئية في الرواية تتداخل زمنياً وان كانت لا تتجاوز حدود هــذه الاحداث اللهم إلا لتذكر حادثة تمت إلى عهد سابق (مثل ذكريات الشيخ حامد عن الحرب الاولى والهرب من صفوف الجيش العثماني ، أو للتعريف بماضي شخصية من الشخصيات تمهيداً لاعطائها دوراً مهمــاً في الاحداث المقبلة مثل حديثه عن هاني المنذر في الفصل ٤٨ ، وحديثه عن راجي في الفصل ٥٣ .

والجدير بالذكر هنا أن الكاتب كان يعين الزمن غالباً بالارقام والتواريخ، وأحياناً عن طريق حوادث تاريخية معروفة كعهد السلطان عبد الحميد وكدخول فيصل لدمشق .

ب – وكانت طريقته في السرد منوّعة ففي الاغلب كان الكاتب يتولى السرد بنفسه بأسلوب اخباري مباشر معلقاً على تصرفات الشخصيات محاولاً أن ينفذ الى اعماقها مشيراً الى مناقشاتها الداخلية لأعمالها وأفكارها ، وهو في خلال ذلك يغتنم أية مناسبة ولو شكلية لادخال شخصيات جديدة الى ســاحة العمل واصطناع الحجج لتقديمهــا الى القارىء والحديث عن ماضيها بالقدر الذي يناسب أغراض الكاتب (وليس أغراض الروايةالذاتية

بالضرورة) . فمثلاً يرد اسم راجي في نهاية الفصل ٢٥ فاذا بالفصل ينتهي ويبدأ بالفصل ٣٠ بهذه العبارة .

« ليس من السهل أن يذكر رجل فذ مثل راجي على هذا النحو العابر »ص٢٩٨ ويعود بنا الكاتب القهقرى إلى نشأة راجي وماضيه السياسي ونفسيته حتى يتصل حديثه ثانية بالنقطة التي بدأ الاستطراد منها ، وأظهر الكاتب شغفاً بهذه الطريقة ، فقد كررها بالنسبة لشخصيات أخرى ذات أهمية رئيسية في الرواية مثل هاني المنذر (الفصل ٤٨) ن . أيوب وسليم وغيرهما .

ولكن الكاتب قد يأمن بعض شخصياته على سرد وقائع معينة ربما لانت هــذه الشخصيات أقدر منه على عرضها وربما لأنه يود ان يتجنب الخوض مباشرة في موضوعات معينة ولا سيا حين لا يؤمن اللبس في مسألة التوجيه الفكري والسياسي . إذ أن المؤلف التزم جانب المؤرخ المحايد في روايته للأحداث وفي تعليقه على الاشخاص والوقائع . ومن هنا كان يفضل أن تتولى بعض الشخصيات التبشير بافكارها بدلاً من أن يتولى ذلك بنفسه مخافة أن تقع عليه شبهة التبشير . وربما كان أوضح مثـال لذلك تكليفه عدنان بان يروي لعمران قصة تطور (العصبة) فكراً وتنظيماً وذلك في فصول مطولة « ص٢٧٣-٢٩٥» انتهت في آخر الرواية باقتناع عمران بالفكرة .

وكانت تتغلل السرد ملاحظات مباشرة تفسر أفكار الشخصيات ومواقفها ونفسياتها وتتراوح هذه الملاحظات من جملة معترضة (ص ٣٠ مثلاً) الى فصول كاملة أو شبه كاملة (الفصل ٢٢ مثلاً ، ص ١١٣ – ١١٥) كما تتفاوت من حيث الغنى والعمق ومن حيث صلتها بتطور الرواية عامة ، ومنذ مطلع الرواية يناقش الكاتب قارئه في بعض نقاط السرد على نحو ما كان يفعل كتاب القرن الماضي وما قبله في انكلترا (ديكنز ، جين أوستن ، ستيرن الخ ...) فهو مثلاً يروي للقارىء قصة زواج عمران ويعلق عليها بما يلي :

« ولما كان هذا الزواج بداية الارتباك في شخصية عمران فمن الطبيعي أن يكون الصفحة الأولى من الرواية » ص ١٢ كما تغلب اللهجة التعليمية المدرسية عــلى كثير من التعليقات التي يوردهــا المؤلف بصيغة المتكلمين ومن أمثلة ذلك « من الامور المألوفة في بلادنا » وما أشبها من عبارات : ص ١١٤ ، ص ١٩٦ ، ص ٢٨٠ ، ص ٢٨٢ الخ .

حـ – وفي الرواية جنوح ظاهر الى الطـابع المقالي الذي يكاد يطغى عــلى الطابع القصصي ولا سيا في القسم الثاني من الرواية وفي الفصول التي تتصل بالحياة السياسية للبلاد

(الفصل ٢٢ مثلاً) . وفي كثير من الاحيان يتحول السرد الى شيء أشبه بالمقالة ويحمل طوابعها المميزة ، ومن أمثلة هذه الطوابع :

١ ــ الاشارات المتكررة إلى الموضوع الرئيسي

٢ ــ عرض المادة باسلوب تقريري أقرب الى الشرح والايضاح منه الى الايحاء

٣ ــ عرض النقاط الرئيسية أولاً ثم التفصيلات

٤ ــ مخاطبة القاريء مباشرة ومحاولة اشراكه في التفكير .

٥ ــ تضاف الى ذلك امكانية حذف بعض الفصول من الرواية دون ان يتأثر القص (الفصل ٥١ مثلاً)

د ــ وهكذا يحس القاريء بافتقار الرواية الى التطور العضوي من الداخل كما انه قد لا يجد ما يغريه بمتابعة القراءة إلا إذا كان مهتماً فعلاً بالموضوع السياسي وهو اهتمام يأتي من خارج الرواية . وتبدو معظم الفصول كأجنحة مستقلة في بناء ضخم وأحياناً لايتصل بعضها ببعض الا من خلال ممرات جانبية . ثم ان هناك إحساساً بانتهاء الرواية عند نهاية بعض الفصول ولا سيما عند انتهاء القسم الأول وكذلك القسم الثاني . وهناك أيضاً استطرادات كثيرة ليس لها ما يسوغها ضمن خط الرواية الداخلي ، ومعظمها ناتج عن ولع الكاتب بالتحليل النفسي واقحامه هذا العنصر كلما سنحت الفرصة . مثال ذلك تحليله لطبيعة الصداقة بين عدنان وزميله في المدرسة عبد الرحمن . وكذلك تحليله للعلاقة الغرامية بين عدنان وعاليه .

تحليل الشخصيات والعنصر السيكلوجي :

ووفقاً لما هو منتظر من كاتب يعتبر مختصاً في علم النفس وهاوياً له ، أتت صفحات الرواية غاصة بالتحليل النفسي المباشر ، حتى أمكن القول إن معظم أشخاص الرواية كانوا مكشوفين لدى القاريء من الداخل ، بل لعل هواية الكاتب قادته إلى تعريتهم نفسياً بأكثر مما تقتضيه أبعاد رواية تندب نفسها لتأريخ التجربة الحياتية لشعب كامل خلال نصف قرن حاسم من تاريخه . ولقد تجلت في صفحاته النفسية مختلف أنواع الثقافة النفسية المعاصرة حتى ليخيل إلى القاريء في بعض الأحيان أن الكاتب (ينقل) بعض صفحات الكتب النفسية كما هي ، ومن ذلك وصفه لمراهقة ن . أيوب . (ص ٢٠٣) واهتداؤه إلى العادة السيئة (ص ٢٠٤) وبدء نمو الشعور بالإثم في نفسه (ص ٢٠٤) ، وتأثير حوادث الطفولة في سلوك الرجل (ص ٢٠٣ ، ٢٠٥) ، فقد ذكر كل هذه الأمور بأسلوب

منهجي ، وكأنه أحد أتباع فرويد يتصيد أمثلة لتعاليم أستاذه ، يضاف إلى ذلك أن العنصر الجنسي واردٌ في معظم الصفحات النفسية بحيث تحتل التجربة الجنسية مكاناً رئيسياً بين العوامل التي تحرك تصرفات الأفراد ، من ذلك مثلا تحليله لسلوك هدى الجنسي مع زوجها وأثر (ليلة الزواج) في موقفها تجاه زوجها فيما بعد ، بطريقة فرويدية واضحة :

(وعلى الرغم من أن الأيام التالية كانت أكثر بهجة فقد احتفظت هدى بشيء من النفور الداخلي الدفين تجاه الرجل . غير أن سلوكها أصبح بعيداً عما تكنه من مشاعر) ص ٧٢ - ٧٣ .

وهو يرصد التجربة الجنسية في حياة معظم أشخاصه ، فهناك سعدى وتجربتها الجنسية القصيرة مع زوجها عمران ص ٤ وهناك هدى وتجربتها الجنسية بعد الزواج ص ٧٢ ، وتجربة ن . أيوب مع عشيقته نادرة ص ٢٢٥ ؛ كما أن الكاتب لايغفل الشذوذ الجنسي في وصفه لمحاولة الاعتداء التي تعرّض لها ن . أيوب على يد أستاذه وتأثير ذلك في نفسه (٢٠٣ - ٢٠٥) ويمكن أن نعتبر حالة ن . أيوب نفسها مثالاً لإسراف الكاتب في التحليل النفسي ومحاولة ربط العناصر النفسية بأسلوب التفكير الذي تؤول إليه الشخصية ، فالقارىء يفهم من تاريخ ن . أيوب النفسي والاجتماعي سبب اضطراب أفكاره على الرغم من عمقها وسبب (عدميته) وتمرده على القيم .

ثم إن الكاتب يظهر ولعاً لا يخلو من مبالغة في تحليل نفسيات النساء والمراهقين ، وكأنما يشعر أنه فارس هذين الميدانين ، فقد احتلت سعدى وهدى ومديحة وعالية قسما كبيراً جداً من صفحات الرواية النفسية ، لا في علاقاتهن مع الرجال فحسب ، بل في علاقاتهن المتبادلة وغيرتهن وغرورهن وتأثير الأشياء الصغيرة في تصرفاتهن ، من ذلك تصويره الجميل للعلاقة بين هدى وسعدى (ص ٧٨ - ٨٣) إلا أن مديحة كانت أوفرهن حظاً فقد طغى الاهتمام النفسي بها على الفصول الأخيرة من القصة حتى بدا أنها تحتلُ من الصدارة في الرواية ما لايؤهلها دورها التاريخي لاحتلاله (الفصول ٥٣ - ٥٦ ، الفصل ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩).

أما المراهقة وحبها ، وأخلاصها فقد كانت ميداناً محببا للكاتب طالت فيه صولاته وجولاته ، ففي الفصل ٤٦ نواكب (عمران) في بدء تفتح مراهقته وانطلاق مشاعره الحالمة باتجاه الجنس الآخر ، وفي الفصل ٦٩ نقرأ صفحات متألقة عن حب عدنان وعالية ونطلع على مقاطع من رسائلها اللاهبة ، وكذلك نعيش صفحات حلوة مع الصداقة البريئة الطفولية بين عدنان وعبد الرحمن (الفصل ٣٠) وما تؤول اليه فيما بعد من

غربة نفسية ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ ، وكذلك مع ألعاب الطفولة ومتعها ، ومع تفتح خيال المراهق وخصب تصوراته ص ١٧٠ – ١٧١ .

ومن الواضح أن قسماً كبيراً من هذه الجولات النفسية كان ضرورياً لجلاء موقف الشخصيات وإعطائها بعدها الانساني ، ولكنه – ضمن نطاق الرواية الشامل – قد تم على حساب عناصر أخرى ولاسيما العنصر الاجتماعي ، ثم إن أسلوبه المنهجي المباشر في التحليل كثيراً ما كان يوحي للقارىء بأنه في مجال قراءة مقالة نفسية أكثر مما هو في مجال قراءة رواية تاريخية .

غير أن الاهتمام بالتحليل النفسي ، منهجياً كان أم غير منهجي ، لايعني بالضرورة نجاح الكاتب ، أي كاتب ، في خلق شخصيات حية ، فتلك موهبة أخرى مستقلة تجلت في انتاج الروائيين الكبار – قبل ظهور علم النفس الحديث، وإن كان طبيعياً أن يؤدي اطلاع الكاتب على معطيات علم النفس إلى إغناء فهمه للأشخاص الذين يخلقهم في عالم القصص.

وفي رواية صدقي إسماعيل شاهد على مقدار ما يمكن أن تقدمه الإحاطة بعلم النفس من عون للكاتب ولكن فيها أيضاً شواهد على ما قد يؤدي إليه الإغراق في علم النفس من مسخ الأشخاص إلى أمثلة توضيحية لفصول الكتب النفسية ، فكما أن شخصية (مديحة) تصلح مثلاً للشخصية الروائية الحية التي زادتها أضواء علم النفس حياة وعمقاً يمكن أن تعتبر – بالمقابل – شخصية ن . أيوب شخصية دَرْسية من تلك النماذج التي ترد في كتب علم النفس لتوضيح الاثر العميق الذي تتركه حوادث نوعية في مرحلة الطفولة على تصرفات الشخصية وأفكارها فيما بعد .

ومن الطبيعي في رواية واسعة الموضوع كهذه الرواية أن يصيب الكاتب النجاح في عدد من الشخصيات وأن يخطئه التوفيق في عدد آخر . ولما كانت مقاييس نجاح الشخصيات أو إخفاقها تفتقر إلى الدقة والدعم وتقتضي الدخول في أدق التفصيلات فأجدر بنا أن نضرب صفحاً عن إطلاق الأحكام ونحاول بدلاً من ذلك أن نتلمس الملامح الرئيسية في فن التشخيص عند الكاتب .

وأول ما يبدو ، بالاضافة إلى إغراق الكاتب في التحليل النفسي وتقصي حوادث الطفولة والعقد النفسية ، أن الكاتب حريص على إبراز خواص الشخصية المعنية عن طريق مقارنتها بنقيضها أو مايشبه نقيضها، فهو يعتمد على عنصر المفارقة كثيراً وهو محق في ذلك لأن مفهوم الإنسان سواء في عالم الفن أو في عالم الواقع يظل نسبياً، في مجموعة معينة.

ولا سبيل الى معرفة الانسان الا بالمقارنة والمقايسة ، وكذلك فعل الكاتب اذ حاول جهده ان يقدم الشخصية ونقيضها ، فقدم لنا هدى الزوجة المدنية المعقدة اجتماعياً وجنسياً في تماسها مع سعدى الارملة القروية الساذجة ، ومحمداً الاب التقليدي المهيمن على الجميع في تماسه مع ابنه ابراهيم الذي اصاب حظاً من العلم وسكن العاصمة وخرج من الطوق ، ووضع اميرة الفتاة المدنية التي صاغتها التربية في اطارات معينة وجهاً لوجه امام ابن عمها عمران الريفي العاطفي المراهق ، وحاول دائماً ان يجمع بين عدنان وعبد الرحمن في مناسبات عديدة ليدلنا على طرازين مختلفين من الحياة: طراز الطبقة المتوسطة او القريبة من المتوسطة التي تصدّر ابناؤها المواكب الوطنية والايديولوجية (عدنان) وطراز الطبقة البورجوازية المنحلة التي وقف ابناؤها انفسهم على اجتناء الملذات .

وهناك دائماً جيل مقابل جيل ومدينة مقابل ريف وثورية مقابل انحلال وحق مقابل ظلم وعفوية مقابل تعقيد ، وهناك صراع مستمر لا يتخذ دائماً اشكالاً عنيفة واحياناً يؤول الى تعايش وتواد كالمودة التي ربطت الشيخ حامد بابن زوجته عمران ، واحياناً يتخذ طابع القطيعة الدائمة كما حدث بين سعاد ووالدها محمد ، واحياناً طابع التعايش على مضض كما كان شأن هدى وسعدى ، واحياناً طابع العنف كاقدام السلطات على قتل سامي الخ .. وهذه المواقف المتنوعة تعكس حياة كاملة غنية وتقدم صورة مقبولة لتنوع تصرفات الناس وأهوائهم ومواقفهم .

واذا كان الكاتب قد وفق في "وضع الشخصيات" المتباينة بعضها مقابل بعض فكذلك لم يخالفه التوفيق في وضع بعض الشخصيات المهمة في الرواية بين قطبين من الاهتمام بالقضايا الوطنية والفكرية الكبرى وبين المشاغل الشخصية والعواطف والشؤون الصغيرة ، وقد ظهر ذلك واضحاً في جميع الشخصيات التي أتاحت لها ظروفها وتكوينها العقلي وقوف هذا الموقف ، ولا سيما (عدنان) الذي كان يحس دائماً بأن حياته الوطنية نمت على حساب حياته العاطفية وكان يتقلب بين الحياتين بشكل "يوحي أحياناً أنه نسي احداهما لحساب الأخرى (قصة غرامه مع عالية في الفصول الاخيرة من الرواية) . وكذلك الشأن بالنسبة لهاني المنذر الزعيم الشعبي الذي استطاع ان يكيف حياته الزوجية وسلوكه الشخصي لصالح القضية التي انتهى الى الايمان بها بشكل تدريجي وطبيعي ، ولكنه آثر في النهاية أن يتوارى عن ساحة النضال . لماذا ؟ ان الرواية لا تقول شيئاً

عن سبب تواريه ولكنها تؤكد أن دوافع تصرفات الانسان معقدة وغير مطردة ، وفي هذا كفاية . ويمكن أن يقال الشيء نفسه بالنسبة لشخصيات أخرى أقل شأناً في الرواية مثل الخال رمزي وابراهيم ويونس .

وإذ كان من نقد يوجه إلى شخصيات الرواية . فهو أنها تبدو بوجه عـــام وسيلة لطرح مشكلات فكرية وسيكلوجية . لا غاية في نفسها كما يفترض أن تكون الشخصيات في العمل الفني ، ونتيجة لذلك يصعب أن يحس القـــارىء بنوع من الألفة مع هـــذه الشخصيات التي لا تثير مشاعره بقدر مـــا تثير تساؤلات في فكره ، فهو لا يحب هذه الشخصية أو يكره تلك أو يتعاطف مع هاتيك بقدر مـــا يناقش أفكارها ويخالفهـــا أو يوافقها . لقـــد كانت الشخصيات تقول كثيراً ومن الحق أن نقول إن هذا لم يعطلها عن الفعل ايضاًولكن الكاتب بدامعنياً بأقوالها وأفكارها أكثر مما هو معني بأعمالهاوتصرفاتها حتى لقد بدت الأفكار هي الجانب المهم من الشخصية « عدنان هاني ، الخـــال رمزي » ومن الحق الاعتراف بأن طبيعة الرواية وطبيعة الاشخاص أنفسهم ربما كانت تسوغ ، ولو جزئياً هذه الظاهرة .

وقد امتازت معظم شخصيات الرواية ــ لا جميعها ــ بقدرة على التطور والتغير، ان الحوادث لتؤثر في هذه الشخصيات وقد تعدل قناعاتها وقد تقلبها رأساً على عقب، وغالباً ما يتم ذلك بصورة تدريجية طبيعيـــة . ان عدنان يتحول الى ثائر ومناضل بالتدريج، وان يكن بسهولة قد تفتقر الى المسوغات الكافية، وهاني المنذر يبدأ حياته مغامراً غير جاد ثم يجد نفسه زعيماً سواء أشاء ذلك أم لم يشأ ويتم ذلك بصورة تدريجية مقنعة ، ولكنه فجأة يتوارى عن الميدان ، وليس هـــذا بغريب وان في بداءة حياته ما يبرر ذلك .

ثم هذا هو عمران ، الذي يمثل المحـــافظة التقليدية عملاً وفكراً وحياة ، يبـــدأ بالاتصال بالافكار الثورية وتأخذ بذرتها بالتفتح في نفسه ويجد نفسه بالتدريج متورطاً مع اصحابها بالمساعدة المادية دون أن يتضمن ذلك تحييده لأعمالهم. ولكنه اخيراً ينخرط في الكفاح ويفتح الصندوق ويبيع الدار بالرغم من أن وضعــه الطبقي لا يتطلب منــه ذلك ولكنه لايختلف في ذلك كثيراً عن قادة الفكرة الثورية فمعظمهم كانوا فوق الخط الفاصل بين الطبقة المتوسطـة والبروليتاريا ، ومعظمهم كانوا يتحركون بدافع قومي

وبدافع أخلاقي أكثر مما يتحركون بدافع طبقي، وإن لم يخل سلوكهم من الدافع الطبقي، فقد كان عدنان وسامي وهاني يمثلون طليعة شباب الطبقة المتوسطة الذين يناضلون ضد تحالف الاقطاع مع البورجوازية التجارية، كانوا يشعرون بالظلم والنقمة لاستئثار الطبقات الحاكمة بخيرات البلاد والوظائف العامة والسلطة السياسية .

ومن الملاحظ أن الشخصيات النسائية تحتل حيزاً ضخماً من التحليل النفسي ابتداء من سعدى حتى هدى حتى مديحة حتى عالية ، ويظهر الكاتب عند الكلام عليها براعة واضحة لا تدل على عمق قراءاته حول سيكلوجية المرأة فقط بل تدل على تعلقه الشخصي بشخصياته النسائية وعنايته باعطائها نصيبها من الحياة . وربما كانت قلة انشغال الشخصيات النسائية بالأفكار السياسية من بين العوامل التي أتاحت للمؤلف أن يخلق منهن شخصيات حية . ولعل شخصية مديحة مثال الشخصية الروائية الحقيقية فقد أتاح لها الكاتب فرصة التصرف بحرية فمارست مشاعرها تجاه زوجها (سليم) بهدوء الزوجة التقليدية ، ولكنها لم تلبث أن استثيرت بدخول راجي في حياتها وتفتحت فيها طاقات كانت مكبوتة بفعل رتابة الحياة اليومية فاذا بالوهم ينكشف عن عينيها واذا بها تنقلب على زوجها وأسرتها وتكتشف أن اخلاقيا (نصف الحضرية) لا يمكن أن تتفق مع أخلاق بورجوازية العاصمة القائمة على النفاق والتظاهر والمواربة ، وبعد أن حصلت على الطلاق لم يكن لها بُد من أن تقع فريسة للعقد النفسية التي تنتاب المرأة المطلقة فاذا بالتعقيد يتسرب الى نفسيتها رويداً رويداً حتى تبدأ بممارسة سلطانها واضفاء عقدها على أختها عالية ، وهي في كل ذلك شخصية حية قوية جميلة تفرض مهابتها حيثما حلت .

إن مديحة — في رأيي — من الشخصيات الروائية النامية التي يراها القارىء بكامل أبعادها . وهي دليل على ما يمكن أن تفعله الموهبة والهواية اذا رفدت بمعطيات علمية كافية . انظر الفصول ٥٣ — ٥٩ ، وكذلك ٦٧ ، ٦٩ .

ومن الشخصيات الرئيسية الأخرى التي تستحق وقفة قصيرة ، شخصية الأب محمد التي تمثل الجيل القديم خير تمثيل دون أن تفقد جميع مقومات الحياة الطبيعية ، فمحمد والد الأسرة وعميدها ولولاه لما كانت أسرة آل عمران ولما كانت الرواية تبعاً لذلك ومن هنا تأتي أهميته ، وهو الأب المسيطر المهيمن العالم بكل شيء المثل المحافظة الفكرية والتراث الديني والمؤمن ايماناً مطلقاً بالسلطان . انه ليس غبياً وان كان تقليدياً ومستسلماً مبدئياً للدين والسلطان ، فهو يستطيع أن يصادق الولاة وينفذ مآربه الى

حد ما وهو يستطيع أن يحل نفسه من بعض المستلزمات الدينية لأسباب واقعيـة وان كان ضد الكفر وضد الفسـاد المكشوف ، وهو مستعد لأن يذعن للواقع بشرط تغطيته بستار اجتماعي مقبول (حين أصرت ابنته سعاد على الزواج من يونس الشاب مغمور النسب لم يستطع الا أن يرضخ للواقع ولكنه قوّه الواقع بأكذوبة مفادها أن سعاد تزوجت تاجراً غنياً في بلدة بعيدة .. الا أن أهم ما يميزه من الناحية النفسية العنـاد الفكري في المعتقدات الأساسية (السلطان والدين والتقاليد الاجتماعية) ولجوؤه الدائم الى لوم الأشياء والآخرين بدلاً من لوم نفسه حين يتكشف له بالدليل الملموس خطأ هذه المعتقدات .

ان الأب محمد كذلك شخصية روائيـة توافرت لها درجة من المقومات الحياتية لا بأس بها .

وبلفت النظر في شخصية عدنان الهوة السحيقة بين الحماسة النظرية وبين والممارسة العملية للأشياء ، ولعل أفضل ما في ذلك أن عدنان كان واعياً لهذه الهوة وقرر أن يخوض التجربة وأن يتغلب . وقد تعرض لفترات من العزوف النفسي عن الفكرة الثورية ولكنه آب الى نفسه في نهاية الرواية وصمم على المضي . ولقد اعتمد المؤلف على عدنان اعتماداً كبيراً حتى يمكن اعتبـاره الشخصية المركزية ، فهو من صلب آل عمران جمع بين عراقة نسبهم وعراقه البرجوازية الشامية ، وتعلم في التجهيز وفي معهد الحقوق ، مصنعي الجيل في ذلك الحين ، وانتمى الى الثورة بدافع غامض أولاً ثم بكامل وعيه ، وحمل اللواء بعد ان انسحب هاني المنذر قائده وقتل سامي صديقه ، ثم ان المؤلف حمله من الناحية الفنية عبئاً كبيراً وكلفه بسرد قصة الثورة لعمران وجعله سفير الثورة حينما ذهب حتى في مجتمعات اللاذقية اللاهية ، ، دون أن يزوده بالمعدات النفسية التي تؤهله للقيام بالدور المنشود . وأحسب ان المؤلف في غمرة حرصه على أن لا يستأثر عدنان بطابع من البطولة الرومانسية جار على جوانب مختلفة من شخصيته وجرده من مقومات نفسية معينة مما أظهره أمام القارىء عاجزاً عن تنفيذ المهات العظيمة التي أنيطت به . (١)

وبوجه عام ، يحس الانسان بوجود عين ذكية وفكر موهوب من وراء كل ما ورد في (العصاة) ، وهناك دائماً منعة خاصة في فصول الرواية ومواقفها ، ثم ان فهم

---

(١) توسعت عمداً في دراسة الشخصيات لأن (العصاة) تكاد تكون الرواية السورية الوحيدة التي تتيح مجالاً لبحث جدي في الشخصيات .

الكاتب لموضوعه وشخصياته يستحق الاعجاب . الا أن مقاطع الوصف المادي أتت فقيرة مطبوعة بطابع العجلة في حين أن مقاطع الوصف النفسي مفصلة وغنية ومعروضة من خلال زوايا ضوئية مختلفة ، وكثيراً ما يبدو الكاتب عازفاً عن استغلال فرص للتوسع في وصف الطبيعة والأرض والبنية الجسدية اذ ينتقل بسرعة من وصف الأشياء الى شرح فلسفتها ومن وصف الأشخاص الى التعليق على فلسفتهم ونفسياتهم . وتعج الرواية بالأمثلة الموضحة لهذا الاتجاه ، من ذلك مثـــلاً الوصف المختزل لأول رحلة بحرية قام بها محمد (الفصل التاسع ص ٤٦) فقد جرى الانتقال بسرعة عجيبة من وصف الطبيعة والمركب الى رصد أفكار الرجلين محمد وابنه . ولعله متأثر هنا بالكتاب الوجوديين الفرنسيين ولا سيما جان بول سارتر لا في مجال اهدار وظيفة الوصف المادي بل كذلك في الجمع بين العمل السياسي والتحليل النفسي وفي اعطاء الشخصيات فرصة التحقق الذاتي عن طريق الممارسة العملية للسياسة لا عن طريق الحب وحده .

وفي القسم الأول من الرواية يبدو النسيج متيناً في غير كثافة مزعجة ومتألقـــاً دون بهرج — على نحو يذكر بكتابة سارتر أيضاً، ولكن هذا الأمر لا يطرد في القسمين الثاني والثالث اذ يرق نسيج الرواية ويضعف إيحاؤه بالتدريج ، فكأن الكاتب يدركه التعب او تسيطر عليه اهتماماته الفكرية وتبعده عن ألق الفن .

وبمعنى من المعاني يمكن اعتبار (العصاة) النسخة السورية لثلاثية نجيب محفوظ من حيث انها تشير الى مرحلة جديدة جدية في تطور الرواية السورية المعاصرة .

خلدون الشمعة

عزرا باوند وحركة الشعر الصوري

« كثيراً ما يبدو بمظهر انسان يحاول أن يوصل الى شخص أصم ، حقيقة ان العالم يحترق . . »

هكذا يصف (تي . اس . اليوت) الشاعر والناقد الأمريكي (عزرا باوند) الذي توفي في الشهر الفائت عن عمر يناهز السابعة والثمانين . واذا كان هذا الوصف يؤكد على دور (باوند) الناقد والمعلم ، فان اهداء (اليوت) قصيدته (الأرض البوار) الى « عزرا باوند ،الصانع الأمهر il miqlior fabbro » يشير الى (باوند) الشاعر الذي شذب (الأرض البوار) الى النصف تقريباً.

ولعل أهمية (باوند) الحقيقية لا تعود الى أن شعره وآراءه الدينامية الجسورة في الأدب والفن ، قد أسهمت في بلورة أول حركة أمريكية في الشعر الحديث هي الصورية Imagism (١٩١٢ — ١٩١٤) .. وانما ترتكز أهميته بالدرجة الأولى على تأثيره الشامل على حركة الشعر الحديث في هذا القرن.

ولد (باوند) في (هايلي) بولاية (ايداهو) في عام (١٨٨٥) ، ودرس في جامعة (بنسلفانيا) ، ثم سافر الى اسبانيا في عام (١٩٠٧) ليعد أطروحة عن الشاعر (لوب دي فيغا) ثم ذهب الى لندن في عام (١٩٠٨) وبقي فيها حتى عام (١٩٢٠) حيث التقى بـ (اليوت) و (وندام لويس) و(جويس) والناقد الشاب هيوم T.E.HuLme الذي دعا الى الثورة على الرومانسية والعودة الى نوع من الكلاسيكية التي تؤمن بكوابح العقل. وانتقل الى (باريس) حيث التقى بـ (هيمنغواي) ، وفي عام (١٩٢٤) ذهب الى (رَبالّو) المدينة الايطالية التي جعلها مستقراً له حتى عام (١٩٤٥) حيث بدأ بكتابة أطول قصائده (الأناشيد) ، وقبضت عليه القوات الأمريكية .المنتصرة بتهمة التعاون مع الفاشيين ، والقاء أحاديث (معادية للسامية) من اذاعة (روما) في وقت كانت الحرب فيه ناشبة بين ايطاليا والولايات المتحدة .

وبعد استجواب (باوند) اقتيد الى (بيزا) حيث وضع في قفص حديدي سلطت عليه الأضواء الكشافة ، فأصيب بالانهيار العصبي ، ونقل الى معسكر مجاور وهناك تمكن جندي أمريكي زنجي من تهريب بعض أدوات الكتابة اليه ، حيث شرع في كتابة قصيدته العظيمة (الأناشيد البيزية) التي تعتبر من أبرز القصائد في الشعر الانكليزي والتي ضمنها احدى عشرة لغة..وفيها يقول،

« ليس ثمة من انسان واحد أمضى شهراً في زنزانة للمحكوم عليهم بالاعدام..لا يؤمن بالعقاب الأعظم . .

ليس ثمة من انسان واحد أمضى شهراً في زنزانة للمحكوم عليهم بالاعدام . . لا يؤمن بالأقفاص الموقوفة على الوحوش الكاسرة.»

ولم يلبث (باوند) أن نقل الى (واشنطن) لمحاكمته . الا أن المحاكمة لم تتم .. فقد أحيل الى لجنة طبية أعلنت أنه كان يعاني من الشعور

بالاضطهاد . ولهذا فقد أوصت اللجنة بأن يحجر عليه في مستشفى للأمراض العقلية ، وفي عام (١٩٤٨) منح (باوند) جائزة (البولنغن) للشعر . وعلى الرغم من دفاع (همنغواي) عنه ، فان الكونغرس الأمريكي اعترض على منحه الجائزة ، متجاهلاً رأي اللجنة المحكمة التي كان من أعضائها شعراء بارزون من أمثال (اليوت) و (أودن) و (لويل).

ومن المحقق أن تعاون (باوند) مع الفاشية لم يكن السبب الوحيد لهذا الموقف . فقد كان موقفه من الوضع الاقتصادي في الولايات المتحدة ،وسيطرة النظام المصرفي القائم على الربا ، وكراهيته العميقة اليهودية والبروتستانتية التي أفسدتها اليهودية ، وقصائده التي يهاجم فيها (ليون بلوم) واليهودية ،ورأيه في أن الحضارة الأمريكية والاوروبية قد قصرتا عن بلوغ مثلها الأعلى الذي رآه متحققاً في عصر (آل ميديتشي). كل ذلك كان يقرع في أسماع (الكونغرس) عندما أثيرت الضجة حوله آنذاك .

لقد كان (باوند) يمقت نظام الاستثمار . وكان يكتب هذه الكلمة التي تتردد في قصائده بالحرف الكبير . . . وقد كتب في احدى قصائده يقول :

« الاستثمار . . انه الاثم الذي ينافي الطبيعة البشرية . . »

ولهذا فان التجاهل وعدم التقدير اللذين قوبل بهما قد جعلتا الناقد الانكليزي (ج . اس . فريزر) في دراسته الشهيرة عن (باوند) ؛ يبادر الى الاعتذار بأن نزعة (باوند) (المناهضة للسامية)وميله للفاشية ، واحتقاره للديمقراطية ، انما كانت تصدر عن الجزع ازاء انهيار التقاليد وسيادة الديماغوجيين باسم (الدهماء) ، وفي مقاله « التبشير الدائم للدهماء » [نشر لأول مرة في مجلة شعر عام ١٩١٦] لا يكشف(باوند) عن نزعة معادية للجماهير ، لأنه يمثل القطب المعاكس لها ، وانما لأنها تسمح بأن يضللها الديماغوجيون(١) . يقول (باوند) :

« الزمن يمر والكذبة القديمة تتكرر . ليس ثمة من فائدة من التحدث الى الجهلة عن الأكاذيب ...ذلك أن الجهلة ليس لديهم مقاييس . ان خداع الجهلة يعتبر من قبل البعض شراً . . الا ان دور الديماغوجي هو ان يدعم مواقعه وأن يبين ان الديماغوجي أنبل مخلوقات الله . . وهكذا نقرأ مرة أخرى ، للمرة الألف ومائة واحدى عشر ان الشعر قد وجد ليسلي . . » . .

(١) الديماغوجي هو الذي يقود الجماهير عن طريق الخطب التي تستغل العواطف بدلاً من أن تستثير العقل .

وبنبرة حادة السخرية ، يمضي (باوند) فيكشف عن أسلوب النفاق الذي يلجأ اليه « الديماغوجيون » لخداع الجماهير ، فيقول :

« انه لما يشبع النشوة في أعطاف الدهماء أن تخبرهم بأن أهميتهم عظيمة الى حد ان أحزان الرجال المتوحدين وأروع الفنون . . . لم تخلق الا من أجل تسليتهم . . » .

واذا كان الناقد « فريزر » يبرىء باوند من مهمة الفاشية انطلاقاً من أنه لم يكن ينوي بأفكاره شرا ، فان باحثاً جاداً آخر هو « جورج شتاينر يعزو نزعته الفاشية الى آرائه في الاقتصاد وبالتالي فهو ينفي عنه النزعة الفاشية اصلا .

يقول شتاينر :

باستثناء (مونترلان) و (سيلين) لم تجتذب الفاشية الى مدارها كاتبا من الدرجة الأولى : عزرا باوند لم يكن فاشياً . . وانما كان يستخدم المظاهر الخارجية للفاشية من أجل تدعيم آرائه في الاقتصاد . . » .

الا أن الحملة الصهيونية على « باوند » لم تكتف باستثمار انتصار الحلفاء على الفاشية لصالحها ، وانما حاولت اعتبار الشكل الشعري الذي كان (باوند) رائداً له والذي تأثر به كل من (اليوت) و (ييتس) ، التجسد الفني لايديولوجية (رجعية) معادية للتقدم ، ويذكر الناقد (برنارد برغونزي) (١) كتاباً لـ (جون هاريسون) بعنوان : « الرجعيون : باوند ، إليوت ، وييتس » كنموذج لهذه المحاولة .

غير أن أثر (باوند) على الشعر الحديث ظل ماثلا رغم الحملات المستمرة ، فخلال الاربعين عاماً التي أمضاها بين باريس ولندن و (رابالو) ، المدينة الايطالية التي استقر فيها ، كان على صلة بجميع الحركات الشعرية التي تبنتها المجلات الأدبية ونذكر منها :

الشعر Poetry والأناني Egoist والمجلة الصغيرة Little Review. ويكاد لا يوجد شاعر أو كاتب اصبح له شأن في أدب هذا القرن ، الا وحصل على مساعدة (باوند) :

لقد ساعد (جويس) على نشر روايته (صورة الفنان شاباً) ، ونشر له (يوليسيز) مسلسلة في المجلة الصغيرة Little Review وأقنع سيدة أمريكية بتقديم المساعدة المادية له ، حتى تمكن من التفرغ لاتمام كتابة (يوليسيز) . . ونشر قصائد لكل من (طاغور) و (ييتس) و (روبرت فروست)

واذا أردنا اكتشاف الجو الذي كان عليه المشهد الشعري الانكليزي عندما نشر (باوند) ديوانه الاول في عام (١٩٠٨) وهو الديوان الذي أسماه بـ (عندما يخبو الضوء) .. ولم يطبع منه سوى مائة نسخة

(١) Bergonzi, Bernard, - The Situation of the Novel -

فان وصف (البوت) له قـــد تكون له دلالته :

« لقد كان وضـــع الشعر في عام « ١٩٠٩ » أو « ١٩١٠ » راكداً الى حد يصعب أن يتخيله أي شاعر شاب اليوم » ،

وفي منطقة الفراغ هذه.اكتشف(باوند) الشعر الرمزي الفرنسي والحركة الجمالية في القرن التاسع عشر . . وكان هو والناقــد هيوم Hulme والشاعرةاويل Amylwell على رأس الحركة الأدبية الأميركية الوحيدة تقريباًوهي الصورية Imagism «١٩٢٢- ١٩٢٤ »وقد حاول الصوريون تقديم المادة الشعرية بوضوح وضبط واقتصاد في اللغة ، والاعتماد على التفاصيل ، مع ترك الزوائد والاستطالات .

كما دعوا الى تضمين الشعر ، الحـــديث العادي ، وسخروا من فكرة وجود مادة شعرية واخرى غير شعرية .

وكما يقول « باوند » فقد أكدوا على « خلق ايقـــاعات جديدة في الشعر ونظمه وفق سياق الجملة الموسيقية » .

وعلى النقيض من الرومانسيين فان الأدب بالنسبة لباوند هو ، « اللغة مشحونة بالمعنى » .. وليس اللغة مشحونة بالعاطفة . وهو يقول في كتابه (مبادىء القراءة) : ان « الادب العظيم هو اللغة مشحونة بالمعنى حتى اقصى درجة ممكنة .. » .

ويرى ان سبيـــل الشاعر الى المعنى ، لايقتصر على دراسة آداب لغة معينة ، وانما ينبغي على الشاعر أن ينظر الى الأدب من خلال (وحدة فنية) أساسها عظمة(الصنعة) وتعاليها على الحدود بين الثقافات .

واذا كانت تقنيـــة المـــذهب الصوري (الايماجيزم) قد ابتكرت أصلاً لتناسب القصيدة الغنائية القصيرة ، فان (باوند) في (الأناشيد) و (اليوت) في (الأرض البوار) قد استخدما هذه التقنية في عملين شعريين ينطويان على بعد ملحمي . الا انه — كما يقول الناقد « ميشيل همبرغر » ، في الوقت الذي تمتلك فيه الأرض البوارمركزاً خـــارج ذات الشاعر ، فان مركز أناشيد (باوند) يظل شخصياً بالدرجة الاولى .. وقد يكون في الاعتماد على ثقافات لغـــات عديدة في (الاناشيد) ، اشارة الى بحث مضن عن الجذور ، واستخزاء امريكي شبه تقليدي ازاء العالم القديم .

الا ان المفارقة تكمن في محاولة (باوند) أن يمزج لغة الاشارات اليومية أو (اصوات الجملة) — على حد تعبير الشاعر روبرت فروست — بمفردات الكتب . وهذا كان يؤدي الى ابطال مفعول لغـــة الاشارات اليومية كما يقول (همبرغر) .

ومن جهـــة اخرى فان تأثر (باوند) بترجماته للشعر اليـــاباني والصيني والمصري

القديم ، ربما يفسر تعدد اساليبه الشعرية . ويرى (همبرغر) ان هذا التعددفي الاساليب يمكن ارجاعه الى عدد من الشعراء المختلفين لو ان قصائد (باوند) نشرت تحت اسماء مستعارة .

ولهذا السبب فان شاعراً آخر في اللغة الانكليزية ، لم يقدم لمعاصريه أو لاحقيه آفاقاً عملية في مثل غنى واتساع آفاق (اليوت) و (روبرت دنكان) و (لويس زوكوفسكي) و (روبرت كريلي) و(باسيل بنتنغ) و (تشارلز اولسن) .. علىسبيل تعداد القلة الذين لاشك في انهم مدينون لباوند .. »

ويرى أيضاً ، ان مشكلة (إليوت) لم تكن في الحقيقة تختلف عن مشكلة (عزرا باوند): فقد اتجه كل منها نحو أوروبا بشعور حاد بالحاجة صنعته آمال أدبية ورومانتكيةأكثر منها واقعية . وقد كان (إليوت) هو الذي تميز برفضه للديمقراطية الليبرالية ، والتعددية والتجارية Pluralistic ، بأنه رفض جذري .. فقد كان (باوند) قادراً على أن يعقد حلف سلام مع الشاعر (وولت ويتمان):

« اني اعقد معك حلفاً ياوولت ويتمان
لقد مقتك زمناً طويلاً
بما فيه الكفاية ..
وإني لاجيء اليك كطفل شب عن الطوق
وكان له أب بالغ العناد ..
لقد تقدمت في السن الآن ..
بما يكفي لأن يكون لدي أصدقاء
وكنت انت الذي شق الغابة الجديدة
حان الآن وقت النقش على الخشب
لدينا نسغ واحد وجذر واحد ..
فلنكن بيننا مخالطة .. »

* * *

وخصومته الأخيرة مع البيروقراطية الامريكية والنزعة التجارية ، لم تمنعه من الاهتمام اهتماماً عميقاً بالتاريخ وبالمؤسسات في بلاده . الا انه لما كان (باوند) و (إليوت) يريدان ان تكون أوروبا ما لم تكنه أمريكا، فانأحداً منهما لم يستطع القبول بالتيارات في أوروبا المعاصرة .. التيارات التي كانت ليبرالية وتعددية وتجارية. ويقتطف(همبرغر) من قصيدة Ode Pour l'Election de Son Sépulchre الأبيات التالية التي يتجلى فيها شعور بالاشمئزاز تجاه انكلترا التي غادرها في عام (١٩٢٠)، يماثل شعوره بالاشمئزاز تجاه امريكا . فقد مات أولئك الذين ماتوا في الحرب العالمية الأولى :

« من أجل كلبة هرمة درداء
من أجل حضارة مرقعة ..

* * *

من أجل تماثيل غليظين ..
من أجـــل بضعة آلاف كتاب اهترأت
لكثرة الاستعمال .. »

* * *

ولعــل قصيــدة Hugh Seluyn « Mauberly » الصادرة في عام (١٩١٩) أن تكون من أبرز قصائد (باوند) التي تجلى فيها شعوره بعــدم جدوى الحرب . واذا لم يكن (موبرلي) صورة مطابقــة لباوند ، فانه شديد الشبه به . والفارق الاساسي بين شخصية (موبرلي) وشخصية العاشق (ألفرد بروفروك) لإليوت ، يتجلى على حد تعبير – همبرغر – في ان (موبرلي) يشارك صانعه (باوند) اهتماماته الجمالية :

« كان فلوبير ..
بنلوبه الحقيقية .. »(*)

* * *

لقد ظلت رؤية (عزرا باوند) متوحدة، انتقائية ، وفردانية بالضرورة ، على الرغم من اهتمامــه المخلص بالتاريخ والاخــلاق الكونفوشية ، والاصلاح النقـدي ، والكثير من القضايا الأخرى التي لا علاقة مباشرة لها بممارسة الشعر أو الفنون الأخرى .

وكانت قصيدة (موبرلي) بكل مــا فيها من اشمئزاز من الحرب وتفجع على فقدان صديقيه (برزسكا) Brzeska و(هيوم) Hulme تجسد في تعاليها وبحث بطلها عن (الهــدوء في الضجيج النيتشوي) – على حد تعبير فريزر – مثالاً كان (باوند) قد رسمه في كتابه عن ذكرياته مع (برزسكا) الصادر في عام (١٩١٦) ، حيث يقول :

« لقد بدأنا على ما اعتقــد نتخلص من تمجيد الغباء النشيط ..
ان فن الاغبياء ، بأقــلام الأغبيــاء ،
ومن أجل الأغبياء، ليس كافياً.. وبعد
جيل لا نحتمل نجد هذه اليقظة مرة
أخرى .. »

* * *

والواقع ان ما أحرزه (الصوريون) وعلى رأسهم (عزرا باوند) كان كما يرى الناقد ستيد C.K.Stead :

١ – الاعتراف بشرعية الشكل العضوي Organic fonm في الشعر ..

٢ – رفض الموضوعات العامة التي يقصد بها اتباع جمهور معين في زمن معين ..

وكل مظهر من مظهري الثورة هــذه ، أكد على علاقــة الشاعر بجمهوره ، باعتبار ان جمهور القراء قــد كان – بالضرورة – يبحث في نتاج الشعراء الجدد عن الأسلوب

(*) نسبة الى (بنلوبي) ..

واللغة والموضوعات التي اعتاد أن يعجب بها لدى الشعراء القدامى ..

وقد رفض الصوريون - كما يقول ستيد - الحلف الذي كان الشاعر يوافق بموجبه على أن يحدد نفسه بأسلوب معين ومدى معين من الموضوعات ، وبجمهور يستجيب بعاطفة غير انتقادية . لقد رفض (الصوريون)هذا الحلف وأصروا علىكتابة القصائد التي توجد حاجة لكتابتها. .وليس القصائد التي يستمتع بها جمهور كبير .. وليذهب الجمهور الى الجحيم ..

وكانت بداية الحركة الصورية في عام (١٩٠٩) في مطعم بحي (سوهو) بلندن .. ويقول F.S. Flint أحد قادة الحركة في ذلك ؛

« اعتقد ان النواة التي التفت الجماعة حولها كانت السخط على الشعر الانكليزي كما كان يكتب آنذاك . وقد اخترنا استبدال هذا الشعر بقصائد من الشعر الحر . Verslibre .. بقصائدعلى غرار شعر الـ Tanka والـ Haiku الياباني .. بقصائد على غرار قصيدة (الخريف)(هيوم Hulme .. وفي كل ذلك كان هيوم على رأس الحركة . وقد أكدنا ايضاً على العرض البالغ الدقة والابتعاد عن الاشراف اللغوي .. »

ويقول الناقد (ستيد) :

قبل أن تبدأ الحرب كانت الجماعة قد وجدت زعيماً جديداً هو (باوند) ... ومجلة هي (الأناني) .. وناشراً هو (هارولد مونرو) ...

وقد انحسر تأثير الحركة حوالي عام (١٩١٧) .. عندما صدرت (على حد تعبير (باوند) في مقال له نشر في عددتموز ١٩٣٢ من مجلة Criterion) : عندما صدرت في مجموعة اليوت الشعرية الثانية قصائد غير متضمنة في مجموعته الأولى .. ونشرت قصيدة « باوند » المسماة « هيو سلوين موبرلي » ..

* * *

وكانت نظرية الشاعر الصوري ريتشارد ألدنغتون Aldington فيالشعر نسخةنصف متمثلة من نقد « باوند » .. وأفكاره حول العلاقةبين الفنانوالمجتمع كانت نسخةمكررة عن مقالات « ييتس » الأولى .. لقد كان جوهر النظرية اصرار « باوند » على :

« الفرق بين ماهو (مناسب)للجمهور.. وبين ماهو مناسب للفنان الذي يرى الاتقان هدفه الوحيد .. »

يقول « باوند » في احدى رسائله ،

« أما بالنسبة لعيون جمهور قاس فلتعلن عيونه . لم يَنمُ فن حتى الآن

بالنظر الى عيون الجمهور القاسي وغير القاسي .. »

لقد هاجم الشاعر والناقد (هيوم) الفكرة الرومانتيكية القائلة (ان الانسان ، الفرد ، مستودع لا نهائي من الامكانيات) .. وتنبأ بكلاسيكية جديدة في الشعر .

وحـدد (باوند) في القسم الاول من (المقالات الأدبية) اهداف المانفستو الشعري للحركة الصورية كما يلي :

١ ـ التعامل مباشرة مع (الشيء) سواء أكان ذاتياً أو موضوعياً ..

٢ ـ ألا تستعمل اطلاقاً كلمة لا تسهم في العرض والتقديم ..

٣ ـ بالنسبة للايقاع ، ينبغي أن ينظم وفق سياق الجملة الموسيقية ..

وعلى ذلك فان الشعر لدى شعراء أقـل وزناً من « باونـد » من امثال آمي لويـل Amy Lowell (١) مجرد تقنية تستهدف تقديم سياقات من النثر غير المؤثر .. في مظهر شعري .. [كما في هذه القصيدة التي نشرت في مجلة « الاتاني » في /١٦/ شباط ١٩٢٤..].

« طائر في شجرة مقلمة
يغني بعض الألحان
المتوقعة(٢) والكاملة ..
إنها تغزل في السكون .
أجراس الكاتدرائية تقرع
واحد، اثنان، ثلاثة ، ومرة أخرى ..
ثم مرة أخرى . .
إنه صوت صامت ..
يدعو الى الصلاة ..
بالكاد أن يبعثر الهدوء
إنه يجعله مكتظاً فحسب ..
البستاني يجمع ثمار التوت الناضجة
من أجل عشاء « السيد » الليلة ..
ان الهدوء لشديد .. »

غير أن اهمية الحركة تتجلى في أهم نماذج تلامذة (باوند) كما في القصيدة التالية للشاعرة (H.D.):

« دوّم(٣) بسرعة أيها البحر،
دوّم صنوبراتك المدببة
رشرش صنوبراتك العظيمة
على صخورنا

---

(١) أطلق (باوند) على الإيماجيزم Imagism اسم Amy gism بعد أن دخلها Amy Lowuell

(٢) نسبة الى « ايقاع »

(٣) نسبة الى دوامة.

طوّح علينا باخضرارك
غطنا بأحواض شربينك (١)..»

* * *

وبعد ان يورد عدداً من نماذج الشعر الصوري لدى تلامذة (باوند) ، يؤكد الناقد (ستيد) ان الهجمات التي كانت تشنها مجلة (الاثاني) على (القارىء) لم تمض شوطاً بعيداً ، فقد كان ثمة حاجة لقوة انفجارية أعظم اذا ما كان العالم الادبي الانكليزي سيهتز من جذوره كما كان (باوند) يأمل . ولهذا فقد انشأ (باوند) مجلة Blast (انفجار) لهذا الغرض ، وأعلن في عددها الاول :

« لانريد ان ننشيء في انكلترا فناً شعبياً. لانريد القيام باحياء فن فولكلوري مفقود، أو احتضان أوضاع غير مباشرة، احتضاناً رومانتيكياً .. وإنما أن نصنع الأفراد..

إننا نناهض نزعة تمجيد (الشعب) كما نناهض الخديعة والتعاظم (الارستقراطي).. ليس من الضروري أن تكون بوهيمياً منبوذاً أن تكون فقيراً.. كما انه ليس من الضروري أن تكون ثرياً أو وسيماً، أن تكون فناناً...

الفقراء حيوانات كريهة . . انهم مناظر جميلة ومسلية للعاطفي والرومانسي . ! والأثرياء مقززون مثيرون للسأم بلا استثناء.! en tant gue riches

اننا نتوجه الى أولئك الناس البسطاء والعظام الذين يوجدون في كل مكان.. Blast تقدم فناً هو فن الافراد .. »

ولم يلبث (باوند) ان شق حملة شعواء على من اسماهم (باعداء الثقافة) ، وذلك بعنفوان يأخذ بالانفاس. وقد خاطب صحيفة (التايمز) قائلا :

« أنت ياملوثة الصدر يامعيقة التقدم .. أنت الخصم المخلّف لحرية الكلام والكتابة الجيدة ..

أيتها الكمأة ، أيها الجرح الناغل العفن..»

ولم يسلم المرابون والمستثمرون من الهجاء ايضاً :

« تعالوا نفتحن صفحة جديدة . .

ولنتخلصن من (اليهود) وسماسرة الأوراق المالية ..

ولنبصقن على المتمسحين باليهود
من أجل أموالهم . .
ولنخرجن الى المروج .. »

* * *

وكانت (الرومانتيكية) هدفاً آخر للهجوم . ولم يلبث (باوند) ان استبدل (الصورية) بحركة اخرى اسماها بـ«الدوامية» Vorticism .. وعرف الدوامة تعريفاً

---

(١) شجر الشربين .

غامضاً على حد تعبير (ستيد) .. فهي : « درجة الطاقة القصوى » .

وعندما بدأ (باوند) بكتابة النقد اخذت معظم آراء الحركة بالتبلور :

يقول (باوند) : «انني اخالف ملاحظة (ويتمان) الشهيرة حول حاجة الشاعر الى جمهور » .

ويقول (ألدنغتون) : « في التسعينات كانت الشعبية تعتبر مثلبة « بحق » .. »

ويقول (إليوت) : — « من الخطأ أن يتوجه السيد (كيبلنغ) إلى جمهور كبير ، ولكن هذا أفضل من التوجه إلى جمهور صغير . ولعل الأفضل من هذا التوجه إلى القارىء الذكي المتخيل والذي لا وجود له ، القارىء الذي يشكل جمهور الفنان .. ».

* * *

هذا هو رد فعل الحركة تجاه الجمهور الذي أفسدته نزعة التقليد في الشعر . ولعل في سخرية (باوند) من أساتذة الجامعات ، تلك السخرية التي عبر عنها في كتابه (مبادىء القراءة) .. ما يفسر هذا الموقف :

« إن الجهلة العباقرة هم الذين يعيدون اكتشاف قوانين الفن التي قام أساتذة الجامعات بحرفها عن مسارها أو باخفائها ... » .

إذن فـ(باوند) يتصدى لجمهور أساتذة الجامعات . يهاجم الجهلة غير العباقرة ويبحث عن الجمهور الحقيقي : عن الجهلة العباقرة. ومن هذا المنطلق فهو يعيد صياغة تعريف الكلاسيكية فيقول :

إن الأثر الكلاسيكي ليس كلاسيكياً لأنه يمتثل لبعض القواعد البنيانية أو لأنه يطابق بعض التعريفات التي ربما لم يسمع بها مؤلف هذا الكتاب اطلاقاً . إن الأثر الكلاسيكي يكون كلاسيكياً لأنه يحتوي على بكارة ابدية لاتقاوم .. »

وعلى ضوء آراء (باوند) النقدية يمكن فهم شعره . وكما يقول (إليوت) في مقدمته لـ(المقالات الادبية) .. فان« من الضروري قراءة شعر باوند من أجل فهم نقده وقراءة نقده من أجل فهم شعره .. »

وبالمقابل فان قراءة نقد (باوند) ضرورية من أجل فهم نقد (إليوت) وتعريف (الصورة) الذي قدمه (باوند) يفسح المجال أمام فهم (المعادل الموضوعي) لدى (إليوت) .

يقول (باوند) :

— « الصورة هي تلك التي تقدم تركيباً عقلياً وعاطفياً في هنيهة من الزمن .» ..

ويعلق الناقد (ماثيسن) في كتابه (حصاد تي . إس . إليوت) بقوله :

« إن هذا التعريف يبدو على طريق

المعادل الموضوعي .. ومن المؤكد أنه ينطبق مباشرة على ما كان إليوت يحاول انجازه في السطر التالي على سبيل المثال :

« لقد كنت أحصي (دقائق) حياتي بملاعق القهوة .. » .

ولكن المشكلة — يقول ماثيسن — ان باوند توقف عاجزاً أمام تعريف التفاصيل.. واقتضى الأمر أن يأتي (إليوت) ليوصل هذه الاكتشافات التقنية إلى مرحلة النضج الكامل عن طريق بنائها في كل هندسي .وقد يفسر ذلك نجاح (باوند) في ترجماته حيث كان ثمة بناء خارجي يتكىء عليه ويمكنه من تركيز اهتمامه كله على خبرته الخارقة في اللغة والإيقاع.. كما يفسر لماذا كانت (أناشيد) باوند على الرغم من اثباتها بأنها مدرسة للنظم بالنسبة للشعراء الشبان ، لا شكل لها بالمقارنة مع شعر (إليوت)... ويفسر أيضاً كيف أن أشد أشعاره أصالة هي قصيدة « هيوسلوين موبرلي » التي كتبها في عام (١٩٢٠) والتي تكشف كيف ان (باوند) بدأ بدوره يشعر بتأثير طريقة (اليوت) الشعرية .. » .

وفي كتابه الشهير « قلعة آكسل : دراسة في الأدب التخيلي » » يقول الناقد «ادموند ويلسون » :

ثمة تباين غريب بين (إليوت)و (عزرا باوند) . لقد غرق شعر باوند جزئياً بحمولته من الحذلقة والبراعة ،بينما خلفت أعمال إليوت على مدى عشرة أعوام : خلفت في الشعر الانكليزي علامة أشد بروزاً من تلك التي خلفها أي شاعر آخر يكتب بالانكليزية . من الممكن أن يكون صحيحاً أن إليوت (في الوقت الحاضر) يقابل بثناء مسرف .. بينما أهمل (باوند) الذي كان له تأثيره على العديد من الشعراء أهمل على نحو متعسف .

إن علي أن أفسر شعبية«إليوت»الكبيرة بحقيقة انه على الرغم من طريقته المشتتة ، يمتلك شخصية أدبية كاملة على نحو لا يمتلكه «باوند» على الرغم مما في طريقته من تماسك، ان « عزرا باوند » وهو الشاعر الجيد — لا يسيطر علينا بمخيلته مسيطرة ، وانما هو يبهجنا بمجموعة من الأعمال الفنية المنتقاة بعناية » .

ولكن هذا الحكم يبدو لي متعسفاً بعض الشيء ، خذ على سبيل المثال هذا المقطع من«أناشيد»باوند«البيزية Pisan Cantos:

« النملة صلنتور(*) في عالمها التنيني
فخفف من غلواء كبريائك خفف
ليس الانسان هو الذي صنع الشجاعة

(*) الصلنتور مخلوق خرافي له رأس انسان وجسد حصان .

او النظام أو الخجل

خفف من غلواء كبريائك

أنا أقول خفف

وأعلم ان العالم الاخضر يمكن ان يكون عالمك

في الخلق وفي الفن

خفف من غلواء كبريائك ..

لقد استفاد «باوند» « كما يقول « .ج.س فريزر» في كتابه -«Metr. Rhymeand free verse» مثله في ذلك مثل الشاعرين الصوريين هيوم Hulme وفلنت Flint ، استفاد من النماذج الفرنسية لشعر الـ Haiku الياباني وهو يقدم في شكل يتألف من: «ثلاثة سطور و /خمسة و/سبعة/وخمسة / تفعيلات، صورة واضحة يقصد منها إثارة عاطفة متميزة وحدس روحي معين » (١)

ويقدم « فريزر » هذا المثال على شعر الـ « هيكو » الياباني :

1	2	3	4	5		
Fu	ru	i	Ke	ya		
1	2	3	4	5	6	7
Ka	wa	Zu	to	bi	Ko	mu
1	2	3	4	5		
Mi	Zo	No	O	to		

وترجمة القصيدة هي :

« البركة القديمة .. أجل ..

وضفدع تقفز إلى

الماء فترشرش (ماحولها) ..»

* * *

وبالطبع فان هذا النوع من الشعر الذي يعتمد البساطة والاقتصاد والضبط والإحكام هو أقرب ما يكون الى الشعر الغنائي . وقد كان « باوند » شاعراً غنائياً أما « اليوت » فلم يكن كذلك . وفي حين ينتمي معظم شعر « باوند » الى المدرسة الصورية « الإيماجيزم » فان معظم قصائد « اليوت » هي أقرب شيء الى المدرسة التعبيرية Expressionism وفي التمييز بين المدرستين يكمن الفارق بين أسلوبين مختلفين في الشعر . غير ان النشاط النقدي لباوند الذي تجلى في كتابه « مقالات عزرا باوند الأدبية » الذي قدم له وحرره « اليوت » في عام « ١٩٥٤ » ، وفي كتابيه: « روح الرومانس »و« مبادىء القراءة» ... انما يكشف عن وجود مواقع نقدية متقاربة بين كل من « باوند » « واليوت » .

(١) Harmsworth, J. R. « Dictonary sf Literary Terms»

ويميز اليوت في مقدمته لمقالات « عزرا باوند » الأدبية ، المحاور الثلاثة التالية ، في نقد « باوند » :

١ – قدم « باوند » آراء دائمة الصحة والفائدة ، عن فن الكتابة وفن كتابة الشعر بشكل خاص .

٢ – قال الكثير مماهو ملائم تماماً لحاجات الزمن الذي كتب فيه النقد .

٣ – لم يفرض على اهتمامنا كتاباً وإنما لعرض مناطق كاملة من الشعر لايستطيع أي نقد في المستقبل تجاهلها .

وقد قسم « إليوت » هذا الكتاب الى ثلاثة أقسام :

– القسم الأول ويعالج فن الشعر .

– والقسم الثاني ويتناول فيه التراث الشعري ..

– والقسم الثالث وموضوعه معاصرو « باوند » . وقد درس منهم : « ليونيل جونسون » و « روبرت فروست » و « د. ه . لورنس » و « جيمس جويس » و « اليوت » و « ونذام لويس » .

يقول « باوند » في فصل بعنوان « الفنان الجاد » ظهر في القسم الاول :

« ان الفن الرديء فن غير دقيق . إنه الفن الذي يقدم تقارير مزيفة .. اذا زيف العالم تقريراً عن عمد ، او بسبب الأهمال ، نعتبره مجرماً أو عالماً رديئاً وذلك حسب الجنحة المرتكبة .. وسيلقى عقابه على هذا الأساس. « واذا مازين الفنان تقريره حول طبيعة الانسان ، وحول طبيعته ، وطبيعة المثـــل الاعلى في الكمال ، . . . فان جنحته تكون من طبيعة جنحة الطبيب نفسها .. وبقدر مركزه وطبيعة كذبته ، يكون مسؤولاً عما يحدث في ذلك المستقبل من حوادث اضطهاد وسوء تقدير ..»

ويقول في روايه « يوليسيس » لجويس [في مقال نشره في مجلة المزولة TheDial عندما كان مراسلا للمجلة في باريس–حزيران – ١٩٢٢] ،

« فليتحد البشر كلهم . . وليمتـــدحوا يوليسيس . . أما أولئك الذين لايريدون ذلك فليقنعوا لأنفسهم بمكان والحيء في السلم الفكري ..»

– ويقول في مقال بعنوان « جويس » [نشر في مجلة المستقبل–مايس–١٩١٨] :

« صورة الفنان شاباً لجويس .. أدب « حقيقي » لقد كادت أن تصبح الكتاب المقدس للعديد من الناس .. وقـــد التقيت بثلاثمائة معجب بالكتاب على الأقل » .

ويكتب مقالاً عن « إليوت » في مجلة الأناني The Egoist عـــام [١٩١٧] فيقول :

« ان نتاج إليوت يثير اهتمامي اكثر من نتاج أي شاعر آخر يكتب الآن بالانكليزية» – ويعلن في كتابه « روح الرومانس»:

« ان الشعر إن هو إلا نوع من الرياضيات الملهمة التي لاتمنحنا معادلات للأرقام المجردة والمثلثات والدوائر وما الى ذلك وإنما تمنحنا معادلات للانفعالات الانسانية » ..

وفي كتابه « مبادىء القراءة » الصادر في عام ١٩٣٤ يقول :

« ان أي حـكم عام [أي رأي] هو أشبه شيء بصك مسحوب على مصرف . ان قيمته تعتمد على مايوجد من رصيد لتغطيته. إذا ماسحب روكفلر صكا بقيمة مليون دولار فهذا شيء حسن . أما اذا سحبت أنا صكا بمليون .. فان هذه طرفة، نكتة عابثة لاقيمة لها . وإذا ماأخذ الأمر على محل الجد فان كتابة الصك تصبح عملا اجرامياً .. »

والشيء نفسه ينطبق على الصكات المسحوبة على « مصرف المعرفة » ، اذا قال «ماركوني» شيئاً عن الأمواج فوق المغناطيسية فهذا يعني شيئاً ، ان قيمة ذلك يمكن تقديرها من قبل شخص يعرف ، انك لا تقبل صكا من غريب دون أن يكون ثمة من يعرف به .. وفي الكتابة يكون اسم الانسان هو الذي يعرف به .. »

ويكتب في فقرة تحت عنوان : «مذهب»:

« لايهم كثيراً في عالمنا المعاصر من أين تبدأ بتفحص موضوع ما .. طالما استمررت حتى تصل الى نقطة البداية مرة اخرى ، انك تبدأ من نقطة الصفر .. وعليك الاستمرار حتى تكون قد رأيته من جميع جوانبه ، أو اذا كنت تظن ان موضوعك كرسي أو طاولة ، فان عليك أن تستمر فيه حتى تصبح له ثلاثة أرجل فينهض عليها، أو أربعة أرجل فلايسقط بسهولة بالغة ..»

ويقول في الناقد :

« ان الناقد الذي لايطرح رأياً شخصياً بايناسب المقاييس التي صنعها بنفسه ، هو ناقد لايوثق به ، انه ليس بقائس وانما هو يكرر النتائج التي توصل اليها الآخرون..».

ويبتكر « باوند » الطريقة « الصورية » التالية لدراسة الشعر وكأنه « صور » او رموز صينية قديمة ؟ .. يقول :

« فلنأخذ أربع « صور »• من اللغة الصينية القديمة ، هي صورة « انسان » و « شجرة » و « شمس » ثم تركيبها الاخير في « صورة واحدة » هي صورة الشمس التي تتخلل أغصان الشجرة عند الشروق فتعني، كلمة « الشروق » ..

• لاتوجد « حروف » في اللغة الصينية بل «صور»

人 إنسان
木 شجرة
日 شمس
東 شروق

[هكذا يعبر الصينيون عن المعاني]

ولكن كيف يعبرون عن الالوان ؟.. كيف يمكن تحديد اللون الاحمر « مثلا ».. كيف يمكن تحديده في « صورة » ليست مرسومة بالحبر الاحمر ؟..

هنا يتم تركيب صورة تتألق من صور :

وردة — كرز
صدأ الحديد — طائر الفلامنغو

« البشروش »

* * *

وهذا يشبه الى حد بعيد مايفعله البيولوجي « بطريقة اشد تعقيداً » عندما يجيء عدة مئات او آلاف العينات ويختار مايراه ضرورياً لما يريد قوله .. »

ويعلق « باوند » على ذلك فيقول :

[اذا ماتم تطوير هذه الكتابة الرمزية Ideogram في انكلترا فان الكتاب قد يستبدلون طائر الفلامنغو «البشروش» بـ عصفور احمر الصدر وأشد تواضعاً .. » .

وقد بين «فينولوزا » كيف ولماذا ينبغي أن تظل لغة كتبت بهذه الطريقة .. لغة شعرية ..

* * *

« وهذه هي مع ذلك ، الطريقة المناسبة لدراسة الشعر أو الأدب أو الرسم ، انها في الحقيقة الطريقة التي يدرس بواسطتها الناس الأشد ذكاء ، اللوحات ، اذا أردت أن تجد شيئاً يتعلق بالوحات ، فلتذهب الى « الناشيونال غاليري » ... ولتنظر الى هذه الصور ...

مقابل كل قارىء للكتب الفنية ثمة ألف من الذين يذهبون لمشاهدة اللوحات ... شكراً للسماء .!.. »

اذن فان على القارىء أو الناقد أن يقرأ الشعر كـ «صورة» .. تماماً كما يشاهد اللوحة .. ولهذا فانه لا بد أن يكتشف اكتشافه عن طريق باصرته الخاصة به .. «فالجهلة العباقرة — كما يقول باوند — هم الذين يعيدون اكتشاف قوانين الفن التي قام أساتذة الجامعات بحرفها عن مسارها أو باخفائها .. »

لقد أكد « باوند » دائماً على أهمية الاكتشاف ليس بواسطة الباصرة فحسب وانما بواسطة حاسة السمع أيضاً .

ولعل في دراسة « جورج شتاينر » عن « جورج لوكاتش » ما يشير الى أهمية العامل

الصوتي في شعر « باوند » وتطبيقاته النقدية في مدرسة الشعر الصوري بشكل عامل .

يقول « شتاينر » :

« إن لوكاتش يفتقر الى الأذن . انه لا يملك المفتاح الموسيقي الذي يمكن « عزرا باونـد » ان يختار – دون خطأ – لحظة المجد في قصيدة طويلة وفي حب منسي » . [اللغة والصمت – ص ٣٠٣] .

•

بعض مصادر البحث

1 - Ezra Pound, Literary Essays of Ezra Pound
2 - Ezra Pound, A. B. C. of Reading
3 - Michael Hamburger, The Truth of Poetry
4 - G. S. Fraser , Ezra Pound
5 - C. K. Stead, The New Poetic .. Yeats to Eqiot
6 - Edmond wilson, Axel's Castle
7 - F. O. Matthiessen, The Achievement of T. S. Eliot
8 - G, S. Fraser, Metre, Rhyme and Eree Verse

كتاب جديد

جوريس

تأليف: اندريه روبينه
ترجمة: جورج صدقني
عرض: عبدالحميد حسن

رغم قول افلاطون قولته الشهيرة بانصلاح حال العالم عندما « يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الحكام » ؛ ورغم وصول البشرية الى عهود تخلصت فيها سياستها من الانفعال. بعوامل البيئة ثم بعوامل المصلحة الفردية الشخصية بين الحكام ووصولها الى العهود الذي تتحكم فيه بالسياسة « ايديولوجيات » معلنة او مضمرة ؛ متسايرة او متصارعة ؛ فان. العلاقة بين الفلسفة والسياسة مازالت علاقة محيره .

فما زلنا قاصرين عن معرفة كيف يمكن للسياسي « الذي يعمل فيما هو كائن » ان يصبح حكيما « فيضع نصب عينيه ما يجب « ان يكون » . وحتى ان ظن هو انه عرف الوصفة السحرية ، فليس من السهل علينا ، كشاهدين ، ان نعرف « الايديولوجيا » التي يستلهمها بعض السياسيين ، او « الحكمة » من قراراتهم اليومية او اعمالهم. وحتى عندما تكون الايديولوجيا معلنة راسخة موطدة بمرور الزمن وبالممارسة ، فليس من السهل رؤية علاقة الجانب النظري منها « الفلسفة » بالجانب العملي « السياسة » ، بل رؤية العلاقات التي تربط عناصر كل جانب ، مازال الكثيرون لم يلحظوا الرابطة بين ماركس ولينين او بين سادية ماركس واشتراكيته ، ثم ماركسية لينين وثورته ثم لينينية ماو وشيوعيته !

* * *

لنأخذ « جان جوريس » . لقد كان فيلسوفاً جاداً وسياسياً نشيطاً ملتزماً واميناً . وان كان الظاهر انه سوء الحظ فجعه بالجانبين ، خصوصاً الجانب الفلسفي اذ يبدو ان عمله السياسي قلص من جهده الفلسفي بل اوقفه نهائياً بعد نواله الدكتوراه سنة ١٨٩٢ (وان كان مؤلف كتابنا الذي سنعرضه اليوم يعتبر ان كل سياسة جوريس الاشتراكية تنبع من مذهبه الذي اكتمل برسالتي الدكتوراه وبمجموعة دروس ألقاها في ثانوية «ألبي») . اما حياته السياسية فقد خبت ثم انطفأت لظهوره في فترة من اعتى فترات التاريخ عداء لأمثال فكره « اوائل القرن العشرين » فكانت حياته السياسية، رغم طولها وعنفها بالنسبة لحياته الفلسفية ، فترة تجميع لعداء الاتجاهات السياسية اليمينية والسلطات العسكرية الفائقة النفوذ حينئذ ، بحيث انتهت عشية الحرب العالمية الاولى برصاصة اطلقها عليه مجنون في المقهى « او هذا هو قرار المحكمة التي برأت القاتل على هذا الاساس » .

* * *

ولد جان جوريس في كاستر بفرنسا سنة ١٨٥٩ وكان من المبرزين طوال حياته الدراسية . ومن زملائه في الجامعة « مدرسة المعلمين العليا » برجسون وكانا يتقاسمان المراكز الاولى مع شريك هو « سالومون » توفي مبكراً . وهذه الزمالة لبرجسون لم تكن عرضية فقد كانا من ذات الاتجاه الفلسفي وبطموح واحد في وقت كانت المذاهب الفلسفية الالمانية في أوج قوتها لايستقي منها الراغبون في المعرفة فقط ، بل الجيل الراغب في التغيير . كما كان لتقدم العلوم « الجديدة » نسبياً ، البيولوجيا والسيكولوجيا ، اثر كبير في البيئة الفلسفية ، وهذا ماأوحى بوجود منافسة بين برجسون وجوريس ،

فرسالتا الدكتوراه عند الاثنين متقاربتين في زمن المناقشة وفي الموضوع : «معطيات الشعور المباشرة» عند برجسون و «واقع العالم المحسوس» عند جوريس . ولكن موضوع الزمالة «او المنافسة» انتهى عند هذا الحد . فقد انتهت حياة جوريس قبل حياة برجسون المليئة بالعطاء بخمس وعشرين سنة كما ان عطاءه الفلسفي انتهى قبل ذلك بكثير ، اذ تفرغ للكتابة السياسية والعمل السياسي . وفي هذا المجال نراه يشير الى ماركس ويعتمد عليه ويهتم به اكثر بكثير مما يهتم ببرجسون ، حتى ان موسوعةلاروس تسميه : رجل سياسة فرنسي .

كانت اطروحته الثانوية للدكتوراه : «في أصول الاشتراكية الالمانية عند لوثر وكنط وفشته وهيجل» واستغل موهبته الخطابية واسلوبه البسيط في الكتابةالسياسية في عدة صحف ، وانتخب عضوا يسارياً في البرلمان منذ سنة ١٨٩٣ حتى اغتياله سنة ١٩١٤ ماعدا دورة واحدة «١٨٩٨ — ١٩٠١» فشل فيها . وهناك كان ذا تأثير كبير في الكتلة اليسارية فأسس الحزب الاشتراكي الموحدسنة١٩٠١وجريدة«لومانيتيه» سنة ١٩٠٤ ، وأدان التعامل مع البرجوازية او مهادنتها واشترك فعلا في اضرابات٢١ حزيران ١٩٠٧ فكان يخطب في العمال المضربين ثم ينتقل الى البرلمان ليخطب مدافعاً عنهم ضد حكم عات يرئسه «كلمنصو» العنيد . ثم اضاف الى قائمة أعدائه الطبقة العسكرية فاعترض على طول الخدمة العسكرية وعلى اهدافها وكتب كتاب «الجيش الحديث» داعياًفيه الى تنظيم قوى للاحتياط فيما يشبه تنظيم الجيوش الثورية حالياًوهذا جر عليه عداء حتى حسني النية فقد كان الوقت وقت عداء قومي ضد عدو قوي هو ألمانيا مما أدى الى اغتياله عشية الحرب الاولى بيد مجنون في فترة عاصفة لايعلم الاالله خفايا التيارات التي تتحكم بالاحداث فيها .

وحبذا لو عمدت وزارة الثقافة ، وقد نشرت كتاباً عنه لاندريه روبينه يلخص فلسفته الميتافيزيقية ، مترجماً بقلم جورج صدقني وهو استاذ فلسفة وسياسي ملتزم ، ان تبادر الى نشر كتاباته السياسية والعسكرية وخطبه خصوصاً «التاريخ الاشتراكي للثورة الفرنسية» و «الجيش الحديث» ففائدتها في ظروفنا الحالية أعم .

* * *

الميتافيزيقيا :

دافع برجسون عن اطروحته «معطيات الشعور المباشرة» في نهاية العام ١٨٨٩ في الوقت الذي سمي فيه جوريس استاذاً محاضراً في تولوز . وقد قدم جوريس دفاعه في ١٢ آذار (مارس) ١٨٩٢ وكان قد درس كتاب برجسون دراسة عميقة ، ويمكن

التخمين بأن « واقع العالم المحسوس » امتداداً للمبارزات الجدالية القديمة بين الزميلين . وإننا نرى في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، وفي النصوص التي تؤيده ، الطريقة التي يرد جوريس بها على برجسون .

لكن برجسون أسدل ستاراً من الصمت على اعتراضات جوريس ، ولكن من الممكن ألا تكون بداية كتاب « المادة والذاكرة » غريبة عن ارادته في الانطلاق من المكان ذاته الذي وضع جوريس نفسه فيه ، لأن هذا الكتاب يقتفي في حركته الخاصة به أثر حركة كتاب جوريس .

وعلى كل حال فهذه الميتافيزيقا تؤلف أساس أفكار جوريس السياسية . لأن المذهب العملي انما وجه تبعاً لهذه الرؤيا للعالم . إن الاديكارتية جوريس ولامار كسيته تتوضحان بهذه الميتافيزيقا عن الوجود ، بهذا الديالكتيك : ديالكتيك الكم والكيف ؟ بهذه الوحدة: وحدة الجسد والعالم .

لقد كان جوريس يعلم ان موضوع الفلسفة هو دراسة الماهية الحقيقية والواقعية والوجود الصميمي والخفي في الاشياء كلها . فوراء الصور التي تتوقف الميتافيزيقا عندها توجد حقيقة خفية ليست هذه الصور الا تبدياً عابراً لها .

ان الفلسفة تجد ، في صميم المظاهر المتباينة والمتحركة كلها ، وجوداً متشابهاً في كل جانب من جوانبه ، وبهذا يفلت هذا الوجود من المكان بالمعنى المحدد للكلمة ، وجوداً ساكناً مثل أعماق البحر تحت الامواج ، وبهذا يفلت من الزمان .

* * *

بأي معنى نقول عن العالم انه واقعي ، وبأية طريقة وإلى أي عمق؟

ان مشكلة الواقع تصبح مشكلة الوجود ، وهي المشكلة القصوى ، ولكي نعرف بأي معنى يكون العالم واقعياً والى أي حد ، ينبغي أن نعرف ماهو الوجود ، وكيف يسيم العالم سواء في الوجود بالفعل ، أو في الوجود بالقوة .

اذن اذا كان العالم معقولاً وبالتالي واقعياً مع هجل ، فليس مرد ذلك فقط الى ان الظواهر كلها فيه مرتبطة بعلاقات سببية ، ومنتظمة في نظم من الغايات كما يشير الى ذلك « لاشليه » ، انما مرد ذلك أيضاً الى ان العالم يشارك من داخل اتصال المكان والزمان، في الاتصال المطلق للوجود غير المعين والمتجانس والمتصل . ان التعيين لايكفي لتكوين واقع العالم ، بل يحتاج أيضاً الى اللاتعيين المطلق اذا صح التعبير ؛ فالارتباط والانسجام والفعل لاتكفي كلها لاعطاء العالم صفة الواقعية : انها تحتاج أيضاً الى الاتصال المطلق في الوجود بوصفه قوة غير محددة . « لايكون واقعياً الا ذلك الذي يكون منطقياً وفعالاً في وقت واحد . »

نقد المثالية: لكي يكون الانتقال من فكرة الوجود الى وجود فكرة الوجود ممكناً، ينبغي أن يكون الفكر قادراً على التمييز بين فكرة الوجود ، ووجود فكرة الوجود؛ وهذه مأثرة يعجز عن تحقيقها. ولكي نحكم على صحة أن فكرة الوجود موجودة أو غيرموجودة، ينبغي أن نفترض سلفاً امكان وجود الوجود ، وإلا حملنا حكم الحقيقة على عدم خالص بجمل القول ، أن قصد المثاليين الجاف والمجرد لايسمح بادراك الواقع الانطولوجي للوجود، لأنه يستبعده سلفاً .

ليست الميتافيزيقا إلا تمجيد الوجود ، ليست الا خضوع الفكر لهاتين المتقدمتين الغامضتين في الوجود ، الفعل والقوة .

ان واقع العالم المحسوس ليس قابلا للتعريف الا تعريفاً ميتافيزيقيا، فلا يمكن حسم مسألة الواقعي الا انطلاقاً من عملية وضع الوجود المطلق .

اذا انتقلنا في وصف العالم وصفاً علمياً الى صعيد الجزيء ، فاننا نفطن الى ان الجزيئات بدورها في حركة دائبة ، بعيدة عن أن تكون الجوهر غير المتحرك الذي تتركب الحركة منه، ويجعلنا تقدم مماثل نتساءل عما اذا كانت الذرات هي مكونات الجزيء . غير أن العلم لم يعد يعترف اليوم بذرات لاتتجزأ ، ذرات جامدة ثابتة . انما الذرة شذرة من الاثير ، والأثير نفسه — وهو مادة اولى — متصور على انه تخترقه حركات لاعد لها ولاحصر . ان تصور العالم تصوراً علمياً يدخل « كومة من الحركات » ومركباً من « الدوامات » ، و« نظاماً محدداً » من الحركات ، وهو نظام يتجاوز علم القرن الثامن عشر . كما يتجاوز الفرضية المالبرانشية عن المادة الخفية ، ويأخذ معناه الكامل في أعمال فورتس ، وشوتسنبرج ، وبرتلو ، وبريه .

لست أدري أين ينبغي التوقف ، لست أدري ان كان ينبغي التوقف عند الاثير او ينبغي النزول أيضاً ، غير ان فرضيتين فقط ممكنتان ، فاما أنه يجب علينا النزول الى مالانهاية له دون ان نعثر ابداً في واقع ثابت على القاعدة التي يمكن الامساك بها للحركة الكلية واما انه يمكننا ، بفرضية معاكسة ، ان نلمس قاع الحركة ذاته ، يمكننا ان نصل الى تلك الصورة من الحركة التي لايوجد في خارجها صورة اخرى للحركة . فبحسب الفرضية الأولى ، كلما صفت معرفة المادة وخلصت ، عثرنا على حركة متضملة . والحال ان مثل هذا القاع من الحركة الكلية لايمكن ان يصور الا من الوجود اللامتناهي بالذات ،

الذي لايستطيع العـلم ان يدركه في أي مكان ، ولكن الذي يتصوره العقل العلمي بوصفه الجوهر اللامتناهي في الكون ، ويسميه « أثيراً » لكي ينفض يده من الأمر . وبحسب الفرضية الثانية يفضي الفكر العلمي الى الميتافيزيقا . فيا من أثير منفصل عن الفكر الذي يعين وجوده . فالعلم ، ببحثه عن دعامة للحركة المادية ، يقود الفكر الى واقع لم يعد فيه شيء يتصف بالمادية ، واقع لم يعد مرئياً ، ولايوجد الا بالنسبة الى الفكر لأن الفكر يحمله في باطنه .

فالعلم ، اذ يريد أن يفسر المادة ، يخرج من نطاق المادة دون أن يفطن الى ذلك . ويؤول به الأمر في النهاية الى تسمية مايدعوه أثيراً تسمية اخرى: « وجوداً لا متناهياً»، « وجوداً ثابتاً وواحداً »؛ واذا كان لا يقيم منه حقيقة الله، فانه على الاقل يجعله مظهراً عظيماً من مظاهر الواقع الالهي . ان بديهيات العلم الاساسية برمتها ترتكز على هذا الحدس عن الوجود . وإذن فاذا كانت الحركة حركة شيء من الاشياء ، فانها ليست حركة المادة. إن لها اساسها في الوجود نفسه . ان العلم يؤكد وجود الوجود بمعناه الكامل .

فالوجود هو في اعماق المادة، والمادة ليست الا حركة، والحال أنه اذا كانت الحركة وجوداً ، فانها يجب أن تشارك في تكوين الوجود . انما ترجع المثالية والوضعية الحركة الى الكم وحده ضلالاً . ففي نظر من يتبع نظرية التقيد تضيع الميكانيكا في الجبر ويضيع الجبر في الهندسة . ان الكم جوهري بالتأكيد بالنسبة الى الحركة ، فلقد إتاح السبيل امام نمو الفيزياء التقليدية ونجاحها. ولكن الكم قوقوالوجود قوقوفعل. والحركة ، التي تنبع من الوجود، يجب ايضاً ان تكون فعلا على نحو ما، انها ليست الا تجريداً رياضياً، بل هي واقع ميتافيزيقي مرتكز على « صورة » . ان الحركة ، شأنها في ذلك شأن الوجود .

ينتج مما تقدم ان المفاهيم الفيزيائية ستجد نفسها متأثرة بهـذا الوصف للحركة . فالحركة ، بوصفها قوة ، تجـد نفسها على صلة مع طبيعة الامتداد ، وهو معنى غير مكتمل . والامتداد ، بعدم اكتماله ، يسمح باتصال اجزائه ، التي ليس فيهـا شيء معين ، والتي تظل تابعة لمجال من المكان غير معين . ولأنه لا يوجد شيء محـدد ثابت في نطاق القوة ، فان المكان يظل مفتوحاً على نحو غير محدد ؛ وكل جزء من اجزائه يتشوف الى روابط اخرى . ان الحركة تحقق ماهية الامتداد الصميمية وتظهرها، لأنها تخرج كل نقطة من نقاطه من تلقاء نفسها ، وتحذف الحدود المصطنعة التي تؤثر في ماهيتها غير المحـددة . فالامتداد والحركة غير قابلين للانفصال .

معنى التاريخ الميتافيزيقي

ففي كل موضوع طبيعي ، وفي كل موجود حي ، وفي الروح الانساني ، نلاحظ تغيرات متضايفة مرتبطة بالنظام في العالم .

ان هناك صورة مميزة للحياة ، تضم الصور الحية كلها منذ أن تظهر ، وتوجه نموها ونضجها .

لنأخذ التكون الفطري في البذرة . « لا يوجد الانسان المقبل مصغراً ، في حالة البيان لا يمكن إدراكه ، بل مكوناً تكويناً تاماً في أعضاء أسلافه المولدة ، ومع ذلك فان ملامح تكوينه الجسمي والنفسي جميعاً ، معينة سلفاً منذ الحمل » .

لنأخذ التكون الفطري العقلي . « أجل ، لو لم نكن نحمل فينا ، في نفسنا ، معنى الوجود ، ومع معنى الوجود معنى الوحدة والاتساع والاتصال المتجانس ، فان الأثير المعرى من كل حركة لا يصبح بالنسبة الينا إلا كامة » .

لنأخذ التكون الفطري الاجتماعي . « منذ ان وجد بشر في مجتمع ، توافرت القوى الأساسية كلها ، تلك القوى التي تحرك المجتمعات الانسانية ، على سبيل التهيئة والبذرة على الأقل ، أما فكرة الاسرة ، والملكية فقد كانت موجودة مغلقة على الأقل » .

« قبل ظهور هاتين الطبقتين المتخاصمتين ، كان هناك تاريخ ، وكانت هناك انسانية ، وكانت هذه الانسانية قد أقامت مذاهب من المعاني والاعتقاد والعمل ، مذاهب تمتد وتستمر ، وهذه المذاهب من المعاني والاعتقاد والعمل لها ، في رأيي ، قوة معينة خاصة بها ، ومنطق معين باطني يضطرها الى النمو في هذا الاتجاه او ذاك ، وهذا العمل محدود بالشروط الاقتصادية ، وهو في نهاية الأمر تابع للشروط الاقتصادية .

الماركسية :

في هذه الشروط لا يكون للنظرية الماركسية في (الانعكاس الفكري) « انعكاس البنى الاقتصادية على الفكر مثلاً وقيماً » أية فرصة لاستنفاد التفسير الواقعي لصيرورة الأفكار في التاريخ . ان المادية الاقتصادية ترتكز على دراسة صحيحة لواقع المبادلات الاجتماعية : ولكن التعميم الفلسفي ، القائم على تفسير تكوين المثل العليا بتأثير البنى الاقتصادية ، ليس مقبولاً إلا من جهة واحدة .

يزيح جوريس التفسيرات المضيقة في نظرية الانعكاس . فالانعكاس ليس إلا

نتيجة آلية تناسب الفرضية التي تقول بها المادية السيكو – كيميائية (مادية فيورباخ)، الأمر الذي يرفضه ماركس. وهو يناسب ايضاً المادية الاخلاقية، التي يخضع بنتام، على سبيل المثال، بمقتضاها كل فاعلية من فاعليات الانسان لمبدأ المنفعة. ففي رأي ماركس، على نحو مبسط، أن المحرك الصميمي في التاريخ يكمن في نمط تنظيم المصالح الاقتصادية. فاحلال مذهب اقتصادي محل مذهب اقتصادي آخر يولد تحولات تلازمها تصورات سياسية، وعامية، وفلسفية، ودينية تعبر عنها.

ان الانسان يعكس فكرياً داخل نفسه العلاقات الاقتصادية للانتاج: من هنا تتفرع فكرتا الحق والعدالة اللتان ترتكزان ارتكازاً تاماً على نظام معين في المبادلات الاقتصادية. ويرفض ماركس كل لجوء الى الفكرة « الخالصة » عن العدالة، اذ لا شيء يمكن أن ينضاف الى قوة البنية التحتية.

في مقابل ذلك، يدعي التصور المثالي [وجوريس] ان البشرية قد كوّنت، منذ البدء، فكرة مسبقة لا شعورية عن نموها « قبل تجربة التاريخ، وقبل انشاء هذا النظام الاقتصادي او ذاك، تحمل البشرية بين جوانحها فكرة سابقة عن العدالة وعن الحق؛ وهـذا المثل الاعلى المتصور سابقاً هو الذي تسعى اليه، من صورة حضارة الى صورة حضارة أسمى؛ وعندما تتحرك، لا تتحرك بفعل التحول الميكانيكي والآلي في انماط الانتاج، بل بتأثير هذا المثل الاعلى تأثيراً تحس به احساساً غامضاً او واضحاً ».

لقد صار التأليف بين الأضداد، والتوفيق بين المتناقضات قانون التاريخ. والحال أن ماركس نفسه قد ادرج في هذه الصيرورة الضرورية: ليس السلام الا صورة من صور الحرب، الرأسمالية تولد الشيوعية، الانسانية تخضع خضوعاً لاشعورياً للاقتصاد في حقبة ماقبل التاريخ التي تدوم حتى ايامنا، ولكن مجيء الاشتراكية سيؤدي بالانسانية الى تنظيم سير الامور بدلاً من الخضوع لها.

عندما برز الانسان من الحيوانية، كان يؤلف جزءاً لا يتجزأ من طبيعة كان قـد سبق لها أن ادخلت الحيوان في روابطها الخاصة. وكان للدماغ البشري قابليات مسبقة وميول اكتسبها في سياق تطوره الفيزيولوجي. وكان قد استمد من الحيوانية، من تاريخه التحتي، الكونيات المتكونة على هذا الصعيد من الوجود كلها. وتلقى منها الاحساسات الخالية من الغرض والناجمة عن نمو حاستي السمع والبصر؛ وورث ملكة ادراك العام في الخـاص،

وأنموذج النوع في الفرد. ان الشعور بالتعاطف مع الجماعة يغرس في هذا الانسان ـ الحيوان المصالحة الأخوية الى جانب الانانية . « اخيراً ، ان الانسان يملك ـ منذ بداية حياته ، بل قبل اول تجل من تجليات فكره ـ مايمكن ان نطلق عليه اسم حس الوحدة ، واول تجل من تجليات حركته العقلية هو ارجاع الموجودات بأسرها والصور كلها والقوى جميعاً الى وحدة استشفت استشفافاً غامضاً ؛ وهكذا يمكن القول ان الانسان حيوان ميتافيزيقي منذ الساعة الاولى ، لأن ماهية الميتافيزيقا بالذات هي البحث عن الوحدة التامة التي تتضمن الظواهر كلها وتضم القوانين جميعاً » .

ما معنى التقدم والحالة هذه ؟ اذا سلمنا بدور القوى الكامنة المكونة فطرياً ، فان البشر في علاقاتهم لايتوجهون ابداً الا الى بشر . وحتى في احط صور الاستغلال والضياع لايخلط بين الانسان وبين الآلة . انه يحافظ حتى في نظر السيد الذي يستغله على صفة تماثل تفاضلية تجعله متميزاً من الشيء الجامد . لقد تم تجاوز أكل لحوم البشر لانه يناقض العامل الاقتصادي بحذفه دون جدوى افراداً قادرين على العمل ؛ فليكن . ولكن لأنه ايضاً يقسر غريزة المجتمع بالتناقض الاخلاقي الذي يثيره . واذا كانت حركة التاريخ كلها تنجم عن التناقض الاساسي بين الانسان والاستغلال الذي يمارس عليه ، فان صورة المجتمع التي تتحقق هي الصورة التي تصدم الفكرة المكونة فطرياً عن الانسانية صدماً متناقصاً بالتدريج . ولن يكون التاريخ الا التفسير الضمني للتاريخ التحقي ، مع كل مايتضمنه من تعقيدات لحقت به فيما بعد ، ولا سيما الثقافة . لايمكن تجريد الانسان من العلاقات الاقتصادية ؛ ولا يمكن تجريد العلاقات الاقتصادية من التاريخ الانساني . التاريخ هو « في الوقت نفسه » ، « ظاهرة تجري وفق قانون آلي»، و « توق يتحقق وفق قانون مثالي » . وليس التأليف ، الذي يتحقق في التاريخ ، الا مظهراً من مظاهر التأليف الذي يخص الكون في مجموعه . ان اساس تقارب التفسير المثالي والتفسير المادي للتاريخ قائم في تصور الوجود تصوراً ديناسيا وفي اوديسة الوجود .

أليس هذا ، في الحقيقة ، هو رأي ماركس نفسه ؟ ويبحث جوريس في فلسفة ماركس عما يؤكد اتجاه ما خلص اليه من نتائج ، وذلك جرياً على مألوف عادته عندما يكون الأمر متصلا بتقدير علاقة مذهب ماركس بمذهبه . ففي المجتمع المقبل سيتوقف نزاع الطبقات ، ويحقق الانسان حياته بحرية ، وترفع الانسانية رأسها . وبالتالي فان غاية التاريخ تتضمن تغيراً كيفياً يتعلق بنمو الكون نفسه . الا يعدل هذا الاعتراف

بأن لكلمة العدالة معنى يتجاوز ادخالها في سياق نص حدد تاريخه وموضعه تبعاً للاقتصاد؟

« ألم يدخل ماركس نفسه من جديد في تصوره التاريخي فكرة ومعنى المثل الأعلى عن التقوم والحق ؟ » . هل يستطيع المنظرون الماركسيون ان يلوموا جوريس لانه فسر التقدم في التاريخ بمعنى « تطور ثوري » ؟

« لقد أعلن ماركس ، في صفحة تثير الاعجاب ، ان المجتمعات الانسانية لم تحكم حتى الآن الا بالقدر ، بالحركة العمياء للقوى الاقتصادية ، ولم تكن المؤسسات والافكار عملا واعياً قام به الانسان الحر ، بل كانت انعكاس الحياة الاجتماعية اللاواعية في الدماغ البشري . فلسنا بعد ، في رأي ماركس ، الا في مرحلة ما قبل التاريخ » (التاريخ الاشتراكي) .

يستكشف ماركس اذن عصراً من التاريخ عن تشوه العبوديات الاقتصادية فيه الحرية ولا العدالة ؛ ولكي يرى مثل هذا الرأي تلزمه فكرة الحق . ولهذا فان جوريس يعد ماركس « مثالياً » ، إذا كان يعد نفسه « مادياً » مع ماركس .

الضياع

الصدع في الوحدة الانسانية

الله هو الذي ينشىء وحدة البشر وهو « لايستغلهم » ، فلا ينبغي الانسان بالأحرى ان يكون أداة في يد الانسان .

فتحليلات ماركس المتعلقة بآلية الضياع تحليلات تثير الاعجاب وهي تحليلات صحيحة . ولكن فلسفة التاريخ المتبناة في أثناء كتابة جوريس اطروحته الثانوية لم تكن لتسمح له بأن يقيس الأهمية الحقيقية للمذهب الماركسي في الضياع .

والحال أن الامور سارت على نحو مختلف منذ عام ١٨٩٣ . فقد اسهمت دراسة أعمال ماركس ، والاحتكاك بالمحيط الانتخابي في (كارمو) في جعل جوريس يعي ضرورة بذل جهد انساني لكي تتجسد « العدالة المثالية » في « عدالة مادية » .

ان اتفاق جوريس المذهبي مع العرض العلمي في رأس المال اتفاق تام ، وهو اتفاق لم يكذب قط . ان الآلام البشرية معلقة بالبنية الاقتصادية للملكية الرأسمالية . ويزداد تبعثر وحدة الوجود على الصعيد الانساني بسبب تباين الخبرات التي يتمتع بها الافراد .

فبعضهم يستفيد من عمل البعض الآخر؛ وهؤلاء الذين يملكون ليسوا اولئك الذين يخلقون ان جوريس بعد التحليل الذي أجراه ماركس عن الضياع تحليلاً قاطعاً.

إن أيأمن البروليتاري والرأسمالي لايشعر شعوراً واضحاً بآلية الاستنزاف والضياع التي تجمع بينهما . فلو كان انخفاض محتوى العمل جلياً وواضحاً للعيان ، لما استطاع العامل أن يتحمل تأثيره ، ولأوثق « الاحساس بالخطأ » بدي المتعهد البورجوازي .

ان لعالم رأس المال وحدته وروابطه الحية . حتى ان جوريس يتحدث عن شيوعية رأسمالية [أي الشيوعية بين الطبقة الرأسمالية] ، انها تعاون في الربح الذي يتحصل في رأس المال الضخم المكون من القيم التي يخلقها العمل .

والعملية عملية لاشعورية عند الرأسمالي ، فهي تجري من خلف ظهره كما يقول ماركس . فلا يخطر في باله انه ينزع ملكية العامل ، وهو لايسعى الى هذا الضياع . ان عالمه الداخلي الطبيعي هو عالم الاستغلال . وهو يبقى في هذا الوهم بنية تجعله يقلد ضروب السلوك التي طالما رآها تمارس في طبقته فالرأسمالي الذي لايسعى الى الربح ، والذي يكافىء عماله بحسب عملهم الحقيقي ، والذي يرفض فضل القيمة ، يحيل مشروعه الخاص الى عدم ، ويبدو لأعين ابناء طبقته وكذلك لأعين العمال مجنوناً . زد على ذلك ان الرأسمالي لايعاني ابداً من وهم الطفيلية . لأنه يسهم في العمل ، اذا نظرنا الى الرأسمالي من الزاوية الفردية ، فهو ليس غريباً عن ممارسته . وهذا هو السبب الاول الذي يجعل الرأسمالي يجد في المجتمع الاشتراكي عندما يتحقق مكانا طبيعياً في صفوف العمال الآخرين . لأن القضية ليست في وضع المشكلات كمسائل اشخاص ، بل في وضعها بالحدود الخاصة بالطبقة .« انماركس ايضاً يعلن انه لامكان للغضب في التاريخ » ، ويستشهد جوريس به : « من المؤكد انني لم اصف رجال المال والبورجوازيين دائماً بألوان الورد والعسل ؛ ولكنني لااهاجم اشخاصهم ، لانهم لايستطيعون ، في المحيط الاقتصادي الحالي،ان يتصرفوا غيرمايتصرفون فهم ليسوا اشخاصاً بل هم تجسيدات شخصية ، إنهم مقولات اقتصادية » .

ولذا يجب ان تحل الأمة محل الافراد في ادارة خيرات الانتاج واستهلاكها ، ويجب علينا ان نسهر على توزيعها المتناسق . وبعبارة اقتصادية فان الجماعية تحقق جعل اجرة رأس المال صفراً ، وكمية العمل التي يقدمها العامل كلها تعود اليه . ولن يكون هناك الا مالك واحد : الا وهو الأمة ؛ « وبذلك بالذات ينقضي اليوم الاخير من استغلال

الانسان للانسان ، ومن خضوع الانسان للانسان ، ومن صراع الانسان صراعاً مرعباً مع الانسان ».

ويتلقى الفرد بالعملية نفسها وضعه الأمثل . فالجماعية ليست وضع نظم وقواعد، بل انها حرية ، والحرية ستكون « السلاح بالذات وروح النار » في النظام الاشتراكي . ان الجماعية هي ضد الوظيفية ، ففيها تنمو اللعبة الحرة ، لعبة القابليات والدعوات ، فتسمح لكل واحد بأن يقوم بفحص ملكاته والأدلة على مشاركاته في ميدان العمل والفراغ، في ميدان الانتاج والابداع .